جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الحركة الفكرية في دمشق في العصر المملوكي الأول
(٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م / ٧٨٤ هـ - ١٣٨٣ م)
عائلة السبكي أنموذجاً

رسالة جامعية أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب
حسام الدين عباس الحزوري

إشراف الأستاذ الدكتور
إبراهيم محمود زعرور

العام الدراسي
١٤٢٩ – ١٤٣٠ هـ
٢٠٠٨ – ٢٠٠٩ م

الإهداء

* إلى اليد الكريمة ، التي أعطت وما بَخَلَتْ ، صدقت وما كَذَبتْ ، إلى الروح التي فارقتنا على عجل ودون استئذان ، إلى صاحب التراب الطاهر أخي محمود (رحمه الله)

* إلى قمر عائلتنا ، وسرّ بسمتنا ، إلى صاحبة القلب الحنون ، والوجه الطاهر إلى الحنونة ابنة أخي محمود رزان (حفظها الله)

* إلى أب مكافح ، ضحّى في سبيل أبنائه ، إلى رجلٍ صابر رؤوف ، إلى من أعطى وقدّم ولم يأخذ ولم يطالب ، إلى الرجل المعطاء أبي الغالي (أطال الله عمره)

* إلى أم صابرة ، احترق فؤادها ، وانكسر خاطرها ، وجفّت دموعها ، وذاقت طعم فراق الولد باكراً ، إلى من هزمت العالم بيمينها بصبرها والدتي الغالية (حفظها الله)

* إلى الزهرة البيضاء التي أشتم عبقها في كل شبرٍ من حياتي ، إلى الدفء الجديد الذي أدفء عمري ، إلى المشكاة التي أنارت لي الدرب لإنجاز هذا البحث ، إلى حبيبتي ورفيقة دربي زوجتي بارعة أم عمرو (حفظها الله)

* إلى القلب البريء الطاهر ، إلى الربيع الذي أزهر في حياتي ، إلى من تشرق الدنيا عند لقائه ، وتهطل سحائبها جوداً في ضحكته ، إلى بسمة عمري ووجودي ، إلى من أنسى في ضحكته همومي وأحزاني ابني الغالي عمرو (حفظه الله)

* إلى سندي في حياتي ، وملجأي في أزماتي ، إلى من بادلوني الحب والعطاء ، وأقلامي عن شكرهم عاجزة مدى الدهر ، إلى رفاق حياتي أخوتي (حفظهم الله)

* إلى تلك البراعم المزهرة في عائلتنا :

حلا – سدرة – محمود – عباس – سارة – ساجدة – يوسف

(حفظهم الله)

ابنكم :

حسام الدين عباس الحزوري

بطاقة شكر

إلى المعلم المعطاء ، الذي تتلمذت على يد يه منذ كنت طالباً في السنة الثانوية ، إلى الذي جاد علينا بعلومه ونصائحه وما بخل ، إلى من أسدى الإرشادات والتوجيهات المفيدة ، والنصائح القيمة ، إلى من فرش لي هذا الطريق الطويل والصعب بالورود والصبر ، إلى عرّابي في حياتي .....

إلى أستاذي الجليل

الأستاذ الدكتور إبراهيم محمود زعرور

لكَ مني جزيل الشكر والامتنان والعرفان مقروناً بالاحترام والتقدير مدى الحياة على رعايتك وعطاءك .

الخاتمة

وهنا بما أننا نتحدث عن المدرسين والتعليم ومن خلال ما عرفناه عن التعليم في العصر المملوكي نود أن نقدم بعض التوصيات والاقتراحات للعملية التعليمية في عصرنا ومنها :

١"- يجب إعطاء مهنة التعليم مزايا مماثلة بل أكثر من المزايا التي تتمتع بها المهن الأخرى كالطب والمحاماة والهندسة ، حتى يزداد إقبال العناصر الممتازة من الطلاب للالتحاق بكليات التربية ، وحتى يشعر المعلمون بأهمية وظيفتهم وقيمتهم بالنسبة للمجتمع ومن بين الامتيازات المقترحة :

أ- إعفاء المعلمين من الضرائب .

ب- تخفيض أجور السفر بوسائل للنقل على اختلاف أنواعها .

ج- السماح لهم بدخول الأندية العامة والأندية الثقافية نظير اشتراكات رمزية .

د- أن يتمتع المعلم بحصانة مثل رجال القضاء والدبلوماسيين داخل القطر وخارجه .

هـ- أن ييسر لهم شراء احتياجاتهم من الأجهزة المنزلية والسيارات بالتقسيط مع تسهيل القروض طويل الأجل وبفوائد رمزية .

و- توفير مساكن خاصة للمعلمين وبأجور رمزية .

٢"- تشجيع المعلمين على الإطلاع والبحث والدراسة عن طريق الاشتراك في المؤتمرات والندوات العلمية .

٣"- تشجيع المعلمين على المساهمة في البحوث العلمية التربوية حتى يكون لهم دور إيجابي في حل مشكلات التعليم وتقدير الاقتراحات لتطوير العملية التعليمية مما يحقق النمو الذاتي والتعليم المستمر وتجدد المعرفة لرفع مستواه العلمي والمهني مع توفير المناخ المناسب للدراسة والبحث وإتاحة الفرص للأخذ بالأسلوب العلمي فكراً وتطبيقاً .

٤"- تحديد المواصفات الشخصية والعقلية والعلمية والخلقية للمعلم وتتخذ هذه المواصفات معياراً متقتناً عند تعيين المعلمين الجدد ، وتقويم عمل وأداء المعلم على أن يعطى للناحية الخلقية والمظهرية تقدير أكبر .

الفصل الأول

أولاً : آ – نظام الرق عند الأمم القديمة :

يمكن أن نعد نظام الرق قديماً جداً ، وجذوره ضاربة في القدم ، ومن الصعب تحديد بدايته ، فنظام الرق كان موجوداً منذ ظهور المجتمع الإنساني ، فقد كان الإنسان ينظر إلى العمل على أنه من أصعب الضرورات وأشقها على الإطلاق ، فبدأ يبحث عن المخلص من العناء والتعب ، وكان المنقذ الوحيد هو أخوه الإنسان ، فكان القوي يلزم الضعيف بالاشتغال ، ومن هنا نشأ الرق ، وكانت الحروب من أهم مصادر الحصول على الرق [1] . والأمم التي عرفت الرق منذ القديم كانت قد سنت قوانين وشرائع هذا النظام ، فقد شاع استخدام هذا النظام عند اليونانيين القدماء وأقره واعترف به الفلاسفة اليونان كأرسطو

---

[1] (عبد الدايم) : عبد العزيز (الرق في مصر في العصور الوسطى) مكتبة نهضة الشرق – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٨٣ – ص٧ .

وأفلاطون ، وكذلك الرومان عدوه نظاماً ضرورياً [٢] . أما الفرس فقد كانوا مسرفين في مسألة الرق وذلك بسبب حياة الترف التي عاشوها ، في حين جعله قدماء المصريين آلة للإنتاج ، أو إحدى أدوات الزينة والخدمة ، أما الهنود فقد عاملوا الرقيق بقسوة وعنف على عكس ما عاملوا به الحيوان من رحمة [٣] . كما عرف اليهود الرق ، وكان الاسترقاق لديهم يتم بطريقتين : **الأولى** : استرقاق أفراد لارتكابهم خطيئة من الخطايا المحظورة شرعاً . **والثانية** : استرقاق غير اليهود الذين وقعوا في الأسر . وقد قامت اليهودية على التمييز العنصري ، فهي لا تلاحظ الجانب الإنساني في غير اليهود[٤].

ويرى الدكتور علي أحمد أنه (يمكن للمرء أن يعرف معرفة أكيدة ، في أن الشعب اليهودي لا يمكن أن يرقى إلى المستوى الإنساني الذي يجعله ينظر إلى الآخرين نظرة عادلة، تعتمد في أصولها على حقوق البشر في التمتع بحياتهم العامة والخاصة ، بحيث لا يكون ذلك على حساب الآخرين ، كما أنهم يجعلون من أنفسهم سادة غيرهم) [٥] ، وفي نظرهم أن الله تعالى وحده هو إله اليهود وحدهم ، وهم – على حد زعمهم – أبناء الله وشعب الله المختار ، وقد اختارهم ليكونوا سادة وليكون الناس عبيداً لهم ، في حين عرفت المسيحية الرق أيضاً ، غير أنها خففت من ظروف الاسترقاق بما غرسته من مبادئ إنسانية من عدالة ومساواة [٦] . وعرف عرب الجاهلية – مثلهم مثل كافة الأمم الأخرى – نظام الرق ، وكان حصولهم على الرق يتم عن طريق استرقاق أسرى الحروب ، أو بالشراء ، وكانت قبيلة قريش تتاجر بالرقيق كما كانت تتاجر بباقي السلع التجارية ، وكان العربي إذا اشترى عبداً وضع في عنقه حبلاً وقاده إلى منزله مثل الدواب ، وحُرِمَ الأرقاء عند عرب الجاهلية من حقوقهم المدنية كلها، كما حُرِموا أيضاً من التصرف بشؤونهم الخاصة . وكانت الأمم التي سبقت الإسلام ، كالفرس والرومان في العراق والشام ومصر تنظر إلى السكان الأصليين كما تنظر إلى العبيد، فاتخذت الكثير منهم أرقاء [٧] .

ب – نظام الرق في الدولة الإسلامية :

ومع ظهور الإسلام لم يكن هناك من يستغرب أحوال الرق ، أو من يشعر بالحاجة إلى تعديلها غير أن الإسلام حين جاء لم يأمر بالاسترقاق مطلقاً ، ولم يرد في القرآن الكريم نص يؤكد جواز استرقاق الأسرى ، ولكن الإسلام جاء فوجد الرق نظاماً اجتماعياً عالمياً يقوم عليه الاقتصاد العالمي ، ووجد أن استرقاق الأسرى عرفاً دولياً تعترف به جميع الأمم . فعمل على معالجة تلك الظاهرة من خلال استئصال مصادر جلب الرقيق ، بغية الوصول مع الزمن إلى إلغاء نظام الرق ، ولكن من دون حدوث ثورة اجتماعية من الصعب ضبطها والسيطرة عليها أو قيادتها ، فبدأ الإسلام تدريجياً بتخفيف قلة شراء

---

[٢] (فايد) : محمود (الرق في الإسلام) دار الاعتصام – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٨٩ – ص ٧–٩ .

[٣] فايد : المرجع نفسه ص ١٠–١١ .

[٤] عبد الدايم : المرجع السابق – ص ٩–١٠ / فايد : المرجع السابق – ص١٢–١٣ .

[٥] (أحمد) : علي (اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى) مجلة دراسات تاريخية – العدد ٥٧ أيلول – ١٩٩٦ – ص ١٦٢ .

[٦] عبد الدايم : المرجع السابق – ص١٠ .

[٧] عبد الدايم : المرجع نفسه – ص١١ .

الرق ، ويسر السبل التي ترمي إلى إطلاق سراح الأسرى ، دون الوقوع في الاسترقاق ، وأخذ يعمل على تحرير الأرقاء بوسائل وأساليب كثيرة لا مجال هنا لذكرها [٨] . وفي قصة إطلاق سراح أسرى بدر خير شاهد على ذلك [٩]. ولكن الرقيق كثر في المجتمع الإسلامي في العصور التالية لصدر الإسلام – ولاسيما الدولة العباسية وما تلاها – وفي الوقت الذي استمرت فيه الحروب خلال العصور الوسطى أصبح امتلاك الرقيق في متناول المستطيعين بسبب الغنى والثروة ، سواء الحاكمون منهم والمحكومون ، فانتشرت تجارة الرقيق في الدولة الإسلامية ، كما انتشرت في غيرها من الدول . وتنوعت أنواع الأرقاء ، فمنهم السود ، ومنهم البيض (المماليك) ودفعت الأثمان الغالية في شرائهم ، ويعد الصقالبة والأتراك أشهر الرقيق البيض في العصور الوسطى، وكان الرقيق الصقالبة موضع تفضيل ، ومصدرهم بلغاريا العظمى ، في حين تمتع الرقيق الأتراك بمكانة ممتازة في البيوت الإسلامية ، وكانت مصادرهم بلاد ما وراء النهر [١٠] .

وأُحدثت للرقيق أسواق وبُنيت لهم خانات في المدن الكبرى ، أشهرها دار التوفيق في بغداد وسوق الرقيق في دمشق وسوق سامراء في العراق ، وخان مسرور في القاهرة [١١] .

ولكن الدكتور عبد المنعم ماجد قد ميز بين لفظتي (المماليك) و (العبيد) حيث أوضح أن لفظة (المماليك) تعني ما يملك بقصد تربيتهم والاستعانة بهم كجند أو ما شابه ذلك . على عكس لفظة (عبيد) التي تعني العبودية ، فالعبد يولد من الرقيق بينما يولد المملوك من أبوين حرين ، كما أن العبد يعني الأسود ، أما المملوك فيكون أبيض اللون ، ولكن وجه الشبه بين الاثنين أنهما جمعتهما وحدة الغربة والمخاطرة [١٢] .

ولقد استطاع هؤلاء المماليك السيطرة على مصر وبلاد الشام (فلسطين وسورية ولبنان والأردن) والحجاز ثم الجزيرة الفراتية وإقليم العواصم والثغور ،وهو القسم الجنوبي من آسيا الصغرى . فمن هؤلاء المماليك الذين كانوا يديرون ملكاً واسعاً في مصر والأقطار التي تتبعهم ؟ ومن أين أتوا ؟ وكيف وصلوا إلى المنصب والسلطان ؟ وما موقفهم من الشعوب التي حكموها ؟ وهذا ما نتناوله في الصفحات التالية . وسنبدأ بتعريف (المماليك) . إذ إنه في مجال دراسة التاريخ الإسلامي يجب توضيح المصطلحات والتعريفات ذات الصلة الوثيقة والمباشرة بموضوع البحث . لذا سنعرّف معنى (المماليك) لغوياً ، ثم نتحدث عنهم من الناحية التاريخية .

---

[٨] (النباهين) : علي سالم (نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر) دار الفكر العربي – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٨١– ص٩٣–٩٥ .

[٩] (ابن هشام) : أبو محمد بن عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (السيرة النبوية) تح. د. محمد نبيل طريفي – دار صادر – بيروت – الطبعة الأولى –٢٠٠٣– مج٢ – ص١٩٧–١٩٩ .

[١٠] النباهين : المرجع السابق – ص٩٦–٩٧ .

[١١] النباهين : المرجع نفسه – ص٩٨ .

[١٢] (ماجد) : عبد المنعم (نظم دولة سلاطين المماليك) مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٨٢ – ج١ – ص١١ .

قال ابن منظور في لسان العرب : (إن المملوك هو العبد والجمع مماليك ، ويقال : هو عبد مملكة ومُملكة إذا مُلِك ولم يُملَك أبواه ، ويقال : هم عبيد مملكة ، وهو أن يُغلب عليهم ويستعبدوا وهم أحرار، والعبد القن الذي مُلك هو وأبواه .

وفي الحديث : [لا يدخل الجنة سيئ المَلَكَة] أي الذي يسيء صحبة المماليك ، ويقال : فلان حَسَنُ المَلَكة إذا كان حسن الصنع إلى مماليكه) [١٣] .

والمملوك جمعه مماليك ، اسم مفعول مشتق من الفعل العربي مُلِكَ ، واتخذ اللفظ معنى اصطلاحاً خاصاً في التاريخ الإسلامي فأصبح يقصد بالمماليك جموع الرقيق البيض الذين كانوا يصبحون رقيقاً إما نتيجة للأسر في الحرب أو الشراء من التجار الذين يجلبونهم إلى البلاد الإسلامية ، حيث يطلبون أثماناً مرتفعة لبضائعهم[١٤]، وذكر المسعودي أن استخدام المماليك في الجيوش العربية الإسلامية قد ظهر منذ أمد بعيد حيث يعود إلى أيام الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤١م) الذي بدأ بجلب الأتراك ، وشكل منهم فرقاً عسكرية ، وكان يرسل من يشتريهم ، ليقوى بهم ساعده في الحروب التي واجهته ، وليكونوا موضع ثقة ، واستكثر منهم حتى اضطربت الروايات في مقدار عددهم ، فقيل إن عددهم بلغ أربعة آلاف [١٥] . وقال ابن تغري بردي : (ثمانية آلاف) [١٦] أما ابن الدقماق فذكر: (ثمانية عشر ألفاً) [١٧] .

وقد جلبهم المعتصم ليكونوا موضع ثقته بعد أن ازداد نفوذ الفرس الذين آزروا العباسيين ، وقاموا بدور كبير في قيام الدولة العباسية . ويبدو أن اعتماد المعتصم على الأتراك واختياره لهم دون غيرهم يرجع إلى أن أمه كانت تركية ولأنهم كانوا متدربين على أعمال الجيش [١٨] . وعندما ازدادت أعدادهم في بغداد وصاروا يؤذون الناس ، بنى لهم المعتصم سامراء وأسكنهم فيها [١٩] .

وهكذا أصبح الأتراك عنصراً مهماً في المجتمع الإسلامي ، ولم يجعل المعتصم الجيش منهم تخلصاً من العرب والفرس فحسب ، ولكن لأنه لمس فيهم المقدرة على أن يكونوا جيش الخلافة الإسلامية العباسية [٢٠] . وكان من الطبيعي أن يزداد نفوذهم بعد أن صار منهم الجيش، فلما ضعف سلطان الخلافة في الأقاليم ، وجنح عمال الولايات إلى الاستقلال بولاياتهم، وبات الجيش وقادته من الأتراك هو الوسيلة للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة "، ازداد الأتراك أهمية على أهميتهم ،

---

[١٣] (ابن منظور) : محمد بن مكرم (لسان العرب) – دار صادر – ط٦ – بيروت – مادة مَلَك ج١٤ – ص٢١٨ .

[١٤] (زيتون) : عادل (تاريخ المماليك) – جامعة دمشق – ١٩٩٢– ص١ .

[١٥] (المسعودي) : علي بن الحسين (مروج الذهب ومعادن الجوهر) تح: قاسم الرفاعي – دار القلم – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨٩ – مج٤ – ص ٥٣

[١٦] (ابن تغري بردي) : يوسف (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) قدم له محمد شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٢ – ج٢ – ص٢٨٥

[١٧] (ابن الدقماق) : إبراهيم بن محمد (الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين) تح: سعيد عاشور – مركز البحث العلمي – جامعة أم القرى – السعودية – ص١١٣ .

[١٨] (عبد المنعم) : صبحي (الشرق الإسلامي زمن المماليك والعثمانيين) دار العربي – القاهرة – د.ر.ت.ط. – ١٧ .

[١٩] (الطبري) : محمد بن جرير (تاريخ الأمم والمماليك) مطبعة الاستقامة – القاهرة – ج٧ – ص٢٣١-٣٢٣/ المسعودي : المصدر السابق: مج٤– ص ٢٣-٥٤ .

[٢٠] النباهين : نظام التربية الإسلامية – ص١٠٠ .

وأصبح منهم الوزراء والولاة وأرباب الدولة ، وبذلك ظلت الدولة قائمة آنذاك تعتمد على هذا العنصر [٢١] .

فالدولة الصفارية (٢٥٤ – ٢٩٨هـ / ٨٦٨ – ٩١٠م) استعانت بهم ، واستخدمهم الصفاريون (٢٦١–٣٨٩ هـ / ٨٧٤–٩٩٨م) في جيوشهم منذ عام (٣٠٠هـ / ٩١٢م) [٢٢].

أما في مصر فقد استخدم الطولونيون المماليك الأتراك بشكل واسع ، واعتمدوا عليهم في قيام دولتهم واستمرارها (٢٥٤ – ٢٩٢هـ / ٨٦٨ – ٩٠٤م) . إذ طمع أحمد بن طولون التركي الأصل بالاستقلال في حكم مصر [٢٣] .

كذلك اعتمدت عليهم الدولة الأخشيدية (٣٢٣ – ٣٥٨هـ / ٩٣٤–٩٦٨م) [٢٤] . واتبع الفاطميون السياسة نفسها التي سار عليها كل من الطولونيين والأخشيديين ، فاستخدموا الأتراك المماليك في جيشهم منذ عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ – ٣٨٦هـ / ٩٧٥–٩٩٥م) . وازداد عددهم في الدولة ، وكانوا سبباً في انهيار الدولة [٢٥] .

وبعد أن انتقلت السلطة إلى الأيوبيين ، وجد صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧–٥٨٩هـ/١١٧٢–١١٩٣م) نفسه مضطراً للاعتماد عليهم ، وذلك بسبب الظروف السياسية التي شهدت الصراع بين الصليبيين والمسلمين، فلجأ إلى تقوية جيشه بهم عدداً وعدة فقد ذكر المقريزي في الخطط أنه :
(أزال جند مصر من العبيد والسود والأمراء المصريين والعربات والأرمن وغيرهم واستجد عسكراً من الأكراد والأتراك خاصة ، وبلغت عدة عساكره بمصر اثني عشر ألف فارس)[٢٦] وقام هو بنفسه بشراء مجموعة وكون منها فرقة يقال لها المماليك الصلاحية نسبة إليه ، أو الناصرية نسبة إلى لقبه (الملك الناصر)[٢٧] .

ولكن الدكتور علي سالم النباهين ذكر : (أنه لم يكن ثمة استمرار تاريخي يربط بين مماليك الأيوبيين ، ومماليك كل من الطولونيين والأخشيديين والفاطميين ، لأن هؤلاء كانوا أخلاطاً من البيض والسود ، في حين كان مماليك الأيوبيين من أتراك القفجاق) [٢٨] .
وبعد وفاة صلاح الدين توزعت الدولة إلى إمارات يحكمها أفراد من البيت الأيوبي في مصر والشام ، واختلفوا فيما بينهم ، وتحاربوا حروباً كثيرة [٢٩] .

---

[٢١] النباهين : المرجع نفسه – ص١٠٠ .

[٢٢] (طقوش) : محمد سهيل (تاريخ المماليك في مصر والشام) دار النفائس – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٧ – ص١٨ .

[٢٣] (المقريزي) : أحمد بن علي (الخطط المقريزية) تح: د.محمد زينهم – مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٩٧ – ج١ – ص٩٤ .

[٢٤] طقوش : المرجع السابق – ص١٩–٢٠ .

[٢٥] (حتي) فيليب (تاريخ العرب) دار الكشاف – بيروت – الطبعة الرابعة – ١٩٧٤ – ص٧٠٧ .

[٢٦] المقريزي : المصدر السابق – ج١– ص٩٤/ عبد الدايم : الرق في مصر –٢٥–٢٦ .

[٢٧] طقوش المرجع السابق ص١٩–٢٠ .

[٢٨] النباهين : نظام التربية الإسلامية – ص١٠٢–١٠٣ .

[٢٩] عبد المنعم : الشرق الإسلامي – ص١٨ .

وكان على الملوك الأيوبيين سواء بمصر أو بالشام الاستعانة بأجناد من المماليك المجلوبين من بلدان مختلفة ، وازداد نفوذ هؤلاء المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبي حتى نجحوا في السيطرة على الحكم، وأقاموا دولة أكثروا فيها من شراء المماليك أمثالهم ليكونوا السند والعون لهم [٣٠] . وكان هؤلاء يشترون من أسواق النخاسة في شبه جزيرة القرم ، وبلاد القوقاز ، وآسيا الصغرى ، وفارس ، وتركستان ، وبلاد ما وراء النهر ، ومنغوليا ، إضافة إلى المماليك الذين الذين جلبوا من البلاد الأوروبية [٣١] .

وعُرَفَ المكلفون بجلب المماليك الشبان كيف يختارون هؤلاء الأطفال من تجار الرقيق الذين كانوا يجوبون مراكز وأسواق النخاسة العالمية ، وكانوا يمضون أياماً وشهوراً في تطبيق قواعد القياس لاختيار المملوك المناسب [٣٢] .

وأتى التجار الأجانب بالمماليك عن طريق البحر ، حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغري دمياط والإسكندرية ، بينما كان التجار المسلمون يأتون غالباً عن طريق البر ، ثم يؤتى بالمماليك للبيع في أسواق القاهرة والإسكندرية وغيرها من الأماكن [٣٣] .

ولا بد من الإشارة إلى أن المماليك ليسوا كلهم من جنس الترك ، فكان منهم من هو من أصل تركي كالظاهر بيبرس ، أو جركسي كبرقوق أو من أصل تتري كالعادل زين الدين كتبغا [٣٤] . وهناك مماليك من أجناس متعددة كالروم والروس والأكراد والأوروبيين الغربيين [٣٥] .

ثانياً : دولة المماليك الأولى (٦٤٨-٧٨٤هـ / ١٢٥٠ – ١٣٨٣م) :

يبدو لنا بجلاء أن الفضل الأكبر في تكوين دولة المماليك الأولى " البحرية " يعود إلى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٨ – ٦٤٧هـ / ١٢٤٠–١٢٤٩ م) الذي استطاع أن يتولى الحكم في مصر بمؤازرة المماليك [٣٦] ، الذين عملوا على خلع العادل الثاني، وأقاموا الصالح نجم الدين في

---

[٣٠] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٢ ص ١٦٢–١٦٣ .

[٣١] ماجد : المرجع السابق – ج١ – ص١٢/ عبد الدايم : المرجع السابق – ص٢٨ .

[٣٢] عبد المنعم : المرجع السابق – ص١٨ .

[٣٣] ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك – ج١ – ص١٢–١٣ .

[٣٤] (ابن إياس) : محمد بن أحمد (بدائع الزهور في وقائع الدهور) تح: محمد مصطفى – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٨٢ – ج١ – ق١ – ص٣٠٨ .

[٣٥] (عاشور) : سعيد (نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك) دار المعارف – سوسة – د.ر.ت.ط – ص٦ / (العريني) : السيد الباز (المماليك) دار النهضة – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٧٩ – ص ٥٧ .

[٣٦] عبد المنعم : الشرق الإسلامي – ص ٢١ .

مكانه في السلطنة ، وقد بقي الصالح نجم الدين أيوب معترفاً بفضل المماليك عليه وأهميتهم بالنسبة له في توطيد سلطانه والحفاظ على ملكه [٣٧] ، فعمل على الإكثار من شرائهم إلى درجة لم يبلغها غيره من البيت الأيوبي ، حتى أضحى معظم جيشه من المماليك [٣٨] .

وأشار ابن إياس إلى أنه " اعتنى بتربيتهم تربية خاصة ، ثم جعلهم بطانته وحرسه الخاص ، ومع مرور الوقت أخذ نفوذهم يتضخم بشكل ملفت " [٣٩] وأشار بعضهم إلى أن الصالح نجم الدين أيوب قد اعتمد عليهم مدفوعاً بعدد من العوامل السياسية تمثلت في :

١ – إن العنصر الكردي ظل عماد الدولة الأيوبية منذ قيامها .

٢ – خوفه من أن تنقلب المماليك الكاملية والأشرفية عليه ، إذا رجحت كفة أعدائه (الذين انقلبوا على أخيه العادل الثاني من قبل) .

٣ – خوفه من الاتفاق بين البيت الأيوبي ، بزعامة عمه إسماعيل ، ضده ومهاجمتهم لمصر [٤٠].

لكن بعد أن كثرت مضايقات هؤلاء المماليك للناس وظهرت سطوتهم وتعنتهم ، والعبث بممتلكات وأرزاق الناس ، وضج الشعب من اعتداءاتهم ، وجد الصالح نجم الدين أيوب أن الحل يكمن في إبعادهم عن العاصمة ، وهنا نتذكر ما فعله المعتصم مع الأتراك . فوقع اختيار الصالح على جزيرة الروضة في النيل ، حيث قام ببناء قصر أحاطه بسور سكن فيه ، كما أنه بنى لهم قلعة خاصة وأسكنهم فيها ، لذلك عُرف هؤلاء المماليك باسم (البحرية الصالحية) حيث كانوا نواة دولة المماليك الأولى [٤١] .

وهنا نتساءل هل كان هؤلاء المماليك أول من أطلق عليهم عبارة (المماليك البحرية) في التاريخ الإسلامي ؟ وهل استخدم هذا المصطلح في التاريخ الإسلامي قبل هذه الحقبة ؟ ومن هم الذين استخدموا هذا المصطلح ؟

أشار الدكتور سعيد عاشور إلى أن عبارة (المماليك البحرية) لم تذكر للمرة الأولى في التاريخ الإسلامي في عهد الصالح أيوب ، فالفاطميون كانوا امتلكوا فرقة من الجند عرفت باسم (الغز البحرية) . وكان للسلطان الأيوبي العادل الأيوبي فرقة من المماليك أسماها (البحرية العادلية) ، كذلك امتلك السلطان نور الدين عمر – سلطان اليمن – مماليكه البحرية [٤٢] .

---

[٣٧] (عاشور) : سعيد عبد الفتاح (العصر المماليكي في مصر والشام) مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة الطبعة الثالثة – ١٩٩٤ – ص٥ .

[٣٨] (أبو الفداء) عماد الدين إسماعيل بن علي (المختصر في أخبار البشر) تعليق محمود ديوب – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٧ – ج٢ ص٢٨٥ .

[٣٩] ابن إياس : بدائع الزهور – ج١ ق١ ص١٦٩–٢٧٠ .

[٤٠] طقوش : تاريخ المماليك – ص٢٢٦ .

[٤١] ابن إياس : المصدر السابق ج١ – ق١ – ص٢٦٩/ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص٣٢٠ .

[٤٢] عاشور : العصر المماليكي – ص٥/ طقوش : تاريخ المماليك – ص٢٧ .

فيما رأى آخرون أنه من الخطأ القول بأن الصالح نجم الدين أيوب (هو أول من رتب المماليك البحرية) [٤٣] مستندين في رأيهم على الأمور الآتية :

١ – أن هذه التسمية أطلقها بعض المؤرخين المتأخرين المعاصرين له كابن واصل وأبي شامة ولم يوضحوا أن بحر النيل هو الأصل لكلمة البحرية .

٢ – كانت لدى الفاطميين طائفة من الجند تعرف (بالغز البحرية) [٤٤] .

٣ – بالإضافة إلى ذلك كان لدى السلطان العادل الأول – جد الصالح أيوب – فرقة من المماليك أسماها " البحرية العادلية " [٤٥] .

٤ – هناك بعض الفرق العسكرية المسيحية التي جاءت من أوروبا إلى الشام في أثناء الحروب الصليبية ، حملت اسم " الفرنج الغرب البحرية " ومن ذلك ما أورده أبو شامة " في حوادث سنة (٥٩٣هـ/١١٩٦ م) " فتح الملك العادل يافا ، ... ومن عجيب ما بلغني أنه كان في قلعتها أربعون من " الفرنج الغرب البحرية " وأيضاً – الفرنج العزب البحرية [٤٦] – أي غير متزوجين .

وهناك رأي لمؤرخ أوروبي جاء مع الحملة الصليبية السابعة – حملة القديس لويس – وهذا المؤرخ هو جوانفيل الذي قال أنهم " يسمون بحرية أو رجال ما وراء البحار " [٤٧] . والسبب في إطلاق التسمية حسب تفسير جوانفيل ، أنهم جلبوا من أسواق النخاسة بالقوقاز وآسيا الصغرى ، وشواطئ البحر الأسود ، والطريق الذي سلكوه من بلادهم إلى مصر هو عبر البحر الأسود ثم بحر القرم إلى خليج القسطنطينية ومنه إلى البحر المتوسط ، حيث يسيرون فيه إلى ميناء الإسكندرية أو دمياط [٤٨] .

ونستنتج من هذه الآراء والتفسيرات أن نجم الدين أيوب لم يكن السبّاق في إطلاق عبارة " المماليك البحرية " [٤٩] ومن أهم فرق المماليك التي وجدت في العصر المملوكي الأول (البحرية) :

١ – المماليك الصلاحية .
٢ – المماليك الأسدية .
٣ – المماليك الكمالية .
٤ – المماليك العادلية .
٥ – المماليك الأشرفية .
٦ – المماليك العزيزية . [٥٠]

---

[٤٣] (زيادة) : محمد مصطفى (بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك) مجلة كلية الآداب – القاهرة – المجلد الرابع – ١٩٣٦ ص١٢–٤٦ / العبادي : قيام دولة المماليك الأولى ص١٢ – ١٥ .

[٤٤] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٤ ص٢٣٤ .

[٤٥] زيادة : المرجع السابق ص ١٣ .

[٤٦] (أبو شامة) : شهاب الدين عبد الرحمن (ذيل الروضتين) تح : إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية – ط١ – بيروت – ٢٠٠٢ . ص١٣–١٤ .

[٤٧] Joinville : History of sT.Louis .tr.Joan Evance . P .84 .

[٤٨] Joinville : Saint Louis King of France .tr.James Hutton , P 74 .

[٤٩] عاشور : المرجع السابق ص٥ .

[٥٠] عاشور : مصر والشام ص٥ .

وفي الوقت الذي كان فيه الصالح نجم الدين أيوب مريضاً طريح الفراش ، وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى دمياط [٥١] ، ولكن المنية وافته قبل أن يتمكن من التصدي لها وذلك سنة ٦٤٨هـ/١٢٠٥م / تاركاً هذه المهمة إلى أرملته شجر الدر التي علمت خطورة الموقف ، فأخفت موت زوجها خشية تضعضع موقف المسلمين ، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى الابن الوحيد الصالح نجم الدين الباقي في قيد الحياة المعظم توران شاه المقيم في حصن كيفا [٥٢] .

ولكن توران شاه الذي استلم الحكم تنكر لصنيع زوجة أبيه شجرة الدر ، وأخذ يهددها ويتوعدها وأساء معاملتها. كذلك الأمر فإنه أساء معاملة مماليك أبيه [٥٣] مما يدل على رعونته وعدم تقديره للموقف الذي تعيشه البلاد .

ورداً على تلك المعاملة السيئة التي فجعت بها شجر الدر من قبل توران شاه ، طلبت النجدة والغوث من زعماء المماليك البحرية الذين اتفقوا معها على قتله . ولم يلبث أن قُتِل توران شاه في معركة فارسكور على يد مماليك والده سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م .

وأشار ابن تغري بردي إلى مقتل توران شاه فقال : (وأرسلت شجر الدر للأمراء المماليك تقول لهم " اقتلوا توران شاه وعلي رضاكم ") [٥٤] .

وبعد مقتل توران شاه بدأ الخلاف بين المماليك على من يبايعون بعده ، وكل منهم يحاول استبقاء الحكم في يده . لكن شجر الدر أخذت الشؤون الإدارية والشؤون العسكرية في يدها ، ونقشت اسمها على النقود :

" المعتصمة الصالحية ملكة المسلمين والدة المنصور خليل خليفة أمير المؤمنين " . [٥٥]

كما اختلف المؤرخون في تسمية " المماليك البحرية " ، كذلك اختلفوا حول أول من تسلطن من المماليك فتعددت الآراء في ذلك . فابن دقماق مثلاً اعتبر المعز أيبك أول سلطان مملوكي ، وقد أيده في ذلك القلقشندي[٥٦] . في حين خالفهم غالبية المؤرخين وعلى رأسهم المقريزي الذي عدّ شجر الدر " أول من ملك مصر من المماليك " [٥٧] .

---

(٥١) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم وبحر الملح والنيل . مخصوصة بالهواء الطيب ، وهي ثغر من ثغور الإسلام . (الحموي) ياقوت بن عبد الله (معجم البلدان) دار صادر – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٩٥ ج٢ ص٤٧٢–٤٧٥ .

(٥٢) المقريزي : الخطط ج٣ ص٣٥٠ / وحصن كيفا : هي بليدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر ، الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٢٦٥ .

(٥٣) (المقريزي) : أحمد بن علي (السلوك لمعرفة دول الملوك) تح: محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٧ – ج٣ ص٣٣٧ / (إبراهيم) : علي حسن (تاريخ المماليك البحرية) مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ط٢ – ١٩٤٨ – ص٣١ .

(٥٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص٣٦٤ .

(٥٥) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور – ج١ – ق١ – ص٩١ .

(٥٦) (القلقشندي) أحمد بن علي (مآثر الإنافة في عالم الخلافة) تح: عبد الستار فراج – مطبعة حكومة الكويت – الطبعة الثانية – ١٩٨٥ – ج٢ ص٩٤/ ابن الدقماق : الجوهر الثمين ٢٤٤ .

(٥٧) المقريزي : السلوك – ج١ ص٤٤ .

ومن الواضح أن قيام شجر الدر في السلطنة كان البداية العملية لدولة المماليك ، لأنها كانت بحكم أصلها الأرميني أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين [٥٨] .

وهكذا يمكن القول بأن دولة المماليك الأولى قامت في شعبان ٦٤٧هـ/مايو١٢٥٠م على يد امرأة ذكية أرمينية أو تركية الأصل .

ما إن فرغ المماليك من حرب الصليبيين الموجودين في داخل بلاد الشام وتثبيت حكمهم في مصر ، حتى تعرضوا لامتحان آخر ألا وهو الهجوم المغولي على بلاد الشام ، فبعد استيلاء المغول على بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، قصد هولاكو الشام، فوصل حلب ، دخلها ، ودمرها سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، وبعد حلب توجه نحو حماة ، ومن ثم تابع نحو دمشق، واستولى عليها وعلى كافة الشام [٥٩] . وتابع هولاكو مسيره نحو مصر ، فقد أرسل إنذاراً سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م إلى المظفر قطز طالباً منه الاستسلام ، فما كان من قطز إلا أن عقد اجتماعاً عاجلاً مع أمراء دولته ، انتهى إلى قرار برفض إنذار هولاكو . ولم يكتفِ قطز بذلك، بل أقدم على قتل رُسُل هولاكو ، الذين حملوا الإنذار [٦٠] .

لكن طرأت بعض التغيرات على الساحة المغولية وذلك بسبب رحيل هولاكو من بلاد الشام .

بعد أن سمع خبراً مفاده قيام صراع على السلطة في عاصمته ، وخوفاً على أملاكه في إيران، فأوكل قيادة الجيش إلى قائده كتبغا [٦١] .

أما المماليك فقد قرروا بعد المداولة الوقوف ضد المغول ، وعلى الفور وضع السلطان قطز خطة عسكرية محكمة وذلك بأن يقوم الظاهر بيبرس على رأس قوة استطلاعية تذهب لدراسة الموقف على أرض الواقع ، ثم تبعه قطز نحو فلسطين إلى عين جالوت .

وهناك التقى الجيشان المغولي والمملوكي يوم الجمعة /٢٥/ رمضان ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م . وأسفر هذا اللقاء عن نصرٍ حاسم للمماليك ، وغُلِب المغول ، وقتل القائد المغولي كتبغا [٦٢] .

وهنا نوضح الموقف الآتي :

إن تخاذل ملوك بني أيوب في الدفاع عن ملكهم وبلادهم ضد المغول ، واستسلامهم لهم ، وفرارهم أمام ذلك الخطر جاء منهم بمثابة تنازل عن الحكم للمماليك [٦٣] .

وأضحى المماليك الذين تصدوا للمغول ، وانتصروا عليهم ، أصحاب المكانة العليا في نفوس الناس فالتفوا حولهم ، وتحاموا بهم .

---

[٥٨] المقريزي : السلوك – ج١ ص٣٩١ / (حتي) فيليب : (تاريخ العرب) ترجمة : جورج حداد، دار الثقافة – بيروت – بدون تاريخ – ص٢٦٦ .

[٥٩] القلقشندي : مآثر الإنافة – ج٢ ص١٠٣-١٠٤ .

[٦٠] (المنصوري) بيبرس (التحفة المملوكية في الدولة التركية) تح: عبد الحميد حمدان – الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولى – ١٩٨٧– ص٤٣ .

[٦١] طقوش : تاريخ المماليك – ص٧٤ .

[٦٢] لمزيد من المعلومات حول هذه المعركة انظر : المنصوري : التحفة المملوكية ص٤٣ وما بعدها / ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج٧ ص٦٧ وما بعدها .

[٦٣] زيتون : تاريخ المماليك ص٢٠ .

ومن أهم نتائج معركة عين جالوت :

١ – لقي المغول لأول مرة في التاريخ هزيمة منكرة ساحقة ، وأنقذت عين جالوت العرب والمسلمين .

٢– جل المغول من بغداد مركزاً لتجميع قواتهم .

٣ – استطاعت مصر أن تحافظ على حضارتها وثقافتها ومدنيتها التي خسرتها بغداد نتيجة الخراب والدمار الذي لحق بها على يد المغول ، وأضحت مصر ملجأ للعلماء والأدباء [٦٤] .

٤ – أظهرت هذه المعركة قوة المماليك كقوة أساسية في الشرق [٦٥] .

٥ – أدت إلى سيطرة المماليك على بلاد الشام كلها حتى نهر الفرات ، وحققوا وحدة بلاد الشام ومصر بعد أن أدى ضعف خلفاء صلاح الدين ، وتنازعهم إلى تمزيق هذه الوحدة [٦٦] .

ونستطيع القول : إن عين جالوت قد هيأت كما قال الدكتور إبراهيم زعرور : (لبناء هيكل الدولة المملوكية [٦٧]) وذلك بسبب إزالة المماليك الأيوبية على يد المغول ، وبعد هزيمة المغول ، استطاع المماليك ضم بلاد الشام إلى سلطنتهم وكانت القوى الصليبية ما تزال موجودة فيها .

وعلى الرغم من التحالف الصليبي المغولي ضد المسلمين ، إلا أن النصر في عين جالوت أدى إلى التعجيل في زوال الإمارات الصليبية في بلاد الشام على يد بيبرس وقلاوون وأولاده، واعترف المماليك بشرعية الخلافة العباسية التي سقطت على يد المغول .

محاولة الاستفادة من منصب الخلافة العباسية :

جاهدت الدولة المملوكية الأولى على صبغ السلطنة بالصبغة الشرعية عن طريق إحياء الخلافة العباسية في مصر ، فقد استند عليها الحكم المملوكي هناك. إذا شعر الظاهر بيبرس عقب انفراده بحكم مصر أنه في حاجة إلى تأييد شرعي لملكه وذلك لكثرة الأعداء المتربصين به ، وكون المغول جعلوا من بغداد مركزاً لهم ، وظلوا يهددون مركز بيبرس في القاهرة . إضافة إلى أنه لم يكن للمماليك قوة شرعية يستندون إليها في حكم البلاد[٦٨].

عندها فكر الظاهر بيبرس في إحياء الخلافة العباسية ، لتكون القوة التي يستند إليها في حكم مصر ، وكذلك يكون حامي حمى الخلافة [٦٩] ، وكذلك الرد على إعلان الدولة الحفصية في تونس عام

---

[٦٤] (وتر) : محمد ضاهر (معركة عين جالوت) بيروت الطبعة الأولى – ١٩٨٩– ص٣٨٥–٣٨٦ .

[٦٥] (رنيسمان) : ستيفن (تاريخ الحروب الصليبية) ترجمة : السيد الباز العريني – دار الثقافة – بيروت الطبعة الثانية – ١٩٨٠ – ج٣ – ص٣٥٨.

[٦٦] طقوش : المرجع السابق : ص٨١ .

[٦٧] (زعرور) : إبراهيم (الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي) تقديم سهيل زكار مطبعة الجمهورية – دمشق – ١٩٩٣ – ص٥٠ .

[٦٨] حسن : دراسات في عصر المماليك البحرية – ص٢٢١ .

[٦٩] (غانم) : حامد زيان (صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك) دار الثقافة – القاهرة – الطبعة الأولى – ١٩٨٧ ص١٨–١٩ .

٦٥٧هـ/١٢٥٩م، والتي لم تعترف بها سلطنة المماليك في مصر [٧٠] . وقد استقبل الظاهر بيبرس عام ٦٥٩هـ/١٢٦١م أبا القاسم أحمد بن الظاهر[٧١] بأمر الله في القاهرة، وكان قبل ذلك محبوساً في بغداد . وعقد مجلساً لإثبات صحة نسب الخليفة حضره كبار رجال الدولة ، وبعد ذلك بويع الخليفة ولقب بالمستنصر ، وخرج بيبرس مع الخليفة الجديد في جيش كبير إلى دمشق ، استعداداً لقتال المغول وطردهم من بغداد وذلك سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م[٧٢] . ومما بلغته متانة السلطان أنه يحق له سجن الخليفة في قلعة الجبل أو أن ينفيه إلى قوص في أقصى الصعيد . ومع كل ذلك لم تبلغ إهانة سلاطين مصر للخلفاء العباسيين ما بلغته في عصر البويهيين والسلاجقة في العراق الذين كانوا يسملون أعين الخلفاء ويقتلونهم ، وكان على رأسهم السلطان[٧٣] . وقد أفادت السلطنة المملوكية من ذلك المركز فائدتين هما :

١ – أن سلاطين المماليك بدءاً بالظاهر بيبرس ظهروا أمام العالم الإسلامي حماة الخلافة والخلفاء ، وأكسبوا السلطنة المملوكية شرعية لحكمها لم تكن لتكسبه من مصدر آخر .

٢ – أن وجود الخلافة العباسية في القاهرة زاد من متانة سلاطين المماليك ، وجعلهم على درجة أعلى من سلاطين باقي البلاد الإسلامية وحكامها[٧٤] .

وكذلك نجح بيبرس في تحويل القاهرة إلى مركز للخلافة العباسية إذ انتقل إليها مجد بغداد وشهرتها الدينية والعلمية وقد أشار السيوطي إلى ذلك بقوله :

" الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت ، حين أصبحت مصر داراً للخلافة ، عظم أمرها ، وكثر أثر الإسلام فيها ، وصارت مقراً للعلماء ، ومحطاً لرحالة فضلاء التجار [٧٥] " .

وبعد ذلك سارع أمراء المسلمين إلى القاهرة لتقديم الطاعة والخضوع للسلطان الظاهر بيبرس.

وقد تناوب على حكم العصر المملوكي الأول خمسة وعشرون سلطاناً . إذا افترضنا أن شجر الدر هي أول هؤلاء السلاطين ، وقد استمر حكمها ثمانين يوماً ، ثم أتى بعدها المعز آيبك الذي يعد المؤسس لهذه الدولة بدأ حكمه ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، وانتهى حكمه بمقتله على يد زوجته شجر الدر في عام ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م ، فتولى الحكم بعده ابنه نور الدين علي المنصور بعد موته بيوم واحد ، وانتهى حكمه بخلعه عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م ، ليتولى الحكم المظفر سيف الدين قطز الذي قتل عام ٦٥٩هـ /١٢٦٠م ، فحكم بعده الظاهر بيبرس حتى وفاته سنة ٦٧٦هـ /١٢٧٧م ، وجاء بعده ابنه السعيد محمد

---

[٧٠] (ابن عبد الظاهر) : عبد الله بن رشيد (الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر) تح : عبد العزيز خويضر – الرياض ١٩٧٦ – ص٩٩.

[٧١] هو أمير أسود اللون مع جماعة من العرب زعموا أنه عم المستعصم العباسي ، وأن اسمه أبو القاسم أحمد بن الظاهر (السيوطي) : جلال الدين (تاريخ الخلفاء) دار الفكر – بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠٠١ – ص٤٣٩ .

[٧٢] ابن عبد الظاهر : المصدر السابق – ص٩٩ / السيوطي : المصدر السابق ص٤٣٩ .

[٧٣] (النهار) : عمار (الحياة الفكرية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية) رسالة دكتوراه – جامعة دمشق – ٢٠٠٥ – ص٣١ .

[٧٤] المنصوري : التحفة المملوكية ص ٤٧ .

[٧٥] المقريزي : السلوك – ج١ ص٤٢٧–٤٢٩ – (السيوطي) : جلال الدين (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) القاهرة – ١٩٨١– ج٢ص١١ .

بركة خان وانتهى حكمه بخلعه عام ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م ، فخلفه العادل سيف الدين سلامش ابن الظاهر بيبرس ولم تطل مدته فقد خلع ونفي في العام نفسه ٦٧٨هـ/١٢٧٩م .

ثم حكم المنصور سيف الدين قلاوون حتى توفي سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م . وجاء بعده ابنه الأشرف خليل وانتهى حكمه بمقتله عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م . وخلفه الناصر محمد بن قلاوون (عمره تسعة أعوام) حتى عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م . ثم خلع وحكم العادل زين الدين كتبغا المنصوري حتى عام ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م . فحكم حسام الدين لاجين المنصوري حتى عام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م . في العام نفسه عاد إلى الحكم ثانية الناصر محمد بن قلاوون حتى عام ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م . وفي العام نفسه تولى الحكم المظفر ركن الدين بيبرس الثاني حتى عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م . ثم عاد للمرة الثالثة الناصر محمد بن قلاوون حتى عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م ، وحكم بعده ابنه المنصور أبو بكر حتى عام ٧٤١هـ /١٣٤١م ، ثم جاء ابنه الأشرف علاء الدين كجك وحكم شهرين فقط . ثم وصل إلى الحكم ابنه الثالث الناصر أحمد ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م . وفي عام ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م تولى الحكم الصالح إسماعيل رابع أولاد الناصر وحكم حتى عام ٧٤٦هـ/١٣٤٠م . وحكم بعده الكامل شعبان الخامس من أولاد الناصر حتى عام ٧٤٧هـ/١٣٤٦م ، وجاء بعده الملك المظفر حاجي السادس من أولاد الناصر حتى عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٧ ، واستمر حكم الناصر حسن السابع من أولاد الناصر بعد مقتل أخيه المظفر حاجي وحكم حتى عام ٧٥٢هـ / ١٣٥١م . إذ وصل إلى الحكم الملك الصالح الولد الثامن والأخير من أولاد الناصر محمد وحكم حتى عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م.

وفي العام نفسه رجع الناصر حسن إلى الحكم والسلطة حتى قتل عام ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م . وحكم بعده محمد بن المظفر حاجي حتى عام ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م .

وجاء خلفه الأشرف شعبان وانتهى حكمه بخلعه وسجنه عام ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م . فحكم بعده علاء الدين علي وقتل في عام ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م . فحكم بعده الصالح حاجي بن شعبان، وانتهى حكمه بخلعه وتولية الظاهر برقوق أو سلاطين دولة المماليك الجراكسة وذلك في عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ، وبذلك انتهى حكم دولة المماليك البحرية التي استمرت تقريباً قرناً ونصف من الزمن .

ومن خلال هذا العرض توصلنا إلى الإحصائية الآتية :

١ – إن خمسة وعشرين سلطاناً – باعتبار شجر الدر هي أول السلاطين – تولوا حكم مصر خلال ست وثلاثين ومئة سنة .

٢ – تكرر اعتلاء اثنين منهم للعرش أكثر من مرة هما :

١– الناصر محمد بن قلاوون تولى الحكم ثلاث مرات .

٢– الناصر حسن تولى الحكم مرتين .

٣ – حوالي خمسة وعشرين سلطان تولوا الحكم خلال هذه المدة القصيرة من عمر الزمن ، أي الوسط الحسابي لمدة كل سلطان خمس سنوات ونصف تقريباً .

٤ – ثلاثة سلاطين منهم لم يخلعوا ، والباقي خلعوا مرة أو مرتين ، عشرة منهم خلعوا أي حوالي ٤٠٪، و٤٢٪ خلعوا وقتلوا .

ونستدل من هذه الإحصائية على كثرة تبدلات السلاطين (عزل – قتل – انتهاء حكم بسبب الوفاة) ما يدل على اضطراب الوضع السياسي وقصر مدة حكم السلاطين .

إذاً هذه هي حال الجو السياسي في عصر سلاطين المماليك البحرية الذي لم يكن مستقراً ولا شبه مستقر. بل كان مضطرباً على الدوام .

ثالثاً ـ لمحـــة عن تاريخ دمشـــق :

دمشق الشام أقدم عاصمة مأهولة في التاريخ .

قال عنها **ياقوت الحموي** : " البلدة المشهورة قصبة الشام ، وهي جنة الأرض بلا خلاف لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة وكثرة مياه ووجود مآرب " [٧٦] .

أما **ابن جبير** فقد وصفها بأنها " جنة المشرق ، ومطلع حسنه المؤنق المشرق ، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها " [٧٧] .

وسميت دمشق بهذا الاسم لأن أهلها دمشقوا في بنائها أي أسرعوا [٧٨] . وذكرت الروايات أن الذي بنى دمشق هو نبي الله نوح عليه السلام وذلك قبل الطوفان [٧٩] .

و في رواية أخرى قيل أن جيرون بن سعد بن عاد بن عَوْص نزل دمشق وبنى مدينتها وسماها جيرون [٨٠].

أما **وهْب بن منبّه** فقد روى : " ودمشق بناها العازر غلام إبراهيم الخليل – وكان حبشياً وهبه له نمرود بن كنعان حين خرج إبراهيم من النار ، وكان اسم الغلام دمشق [٨١] " . وهذا الغلام كان متصرفاً في كل الأموال التي ترجع إلى إبراهيم [٨٢] .

وقد أورد **ابن النديم** صاحب الفهرست عبارة نقلها عن أبي عبيدة بن المثنى في كتابه (فضائل الفرس) أن " بيوراسب الملك الكلراني بنى مدينة بابل ، ومدينة صور ، ومدينة دمشق [٨٣] " ، وقيل إن **ذا القرنين**

---

[٧٦] الحموي : معجم البلدان – ج٢ ص٤٦٣ .

[٧٧] (ابن جبير) : محمد بن أحمد الأندلسي (رحلة ابن جبير) تح: محمد زينهم . دار المعارف – القاهرة الطبعة الأولى ٢٠٠٠– ص٢٠٩–٢١٠ .

[٧٨] الحموي : المصدر السابق – ج٢ ص٤٦٣ .

[٧٩] (ابن عساكر) : أبو القاسم علي بن الحسن (تاريخ مدينة دمشق) تح: صلاح الدين المنجد – دمشق – ١٩٥١ – ج١ ص١١ .

[٨٠] (ابن فضل الله العمري) : أحمد بن يحيى (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار – دولة المماليك الأولى) تح : دوريتا كرافو لسكي – المركز الإسلامي للبحوث – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨٦ ص ١٧١ .

[٨١] (ابن شداد) : محمد بن علي بن إبراهيم (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) تح: سامي الدهان – المعهد الفرنسي للدراسات العربية – دمشق ١٩٦٥– ج٢ – ق١ – ص٢٦ .

[٨٢] ابن عساكر : تاريخ دمشق – ج١ ص١١ .

أمر غلامه دمشقش ببناء هذه المدينة ، كما أمره أن يطلق عليها اسمه – يعني الغلام– فقام دمشقش وبنى المدينة ، وعمل لها حصناً وعمل لها سوراً وأربعة أبواب[٨٤].

وذكر **الحموي** : أن الذي قام ببنائها هو هود عليه السلام . وذكر أيضاً (سميت بدماشق بن نمرود بن كنعان وهو الذي بناها [٨٥]) . وقد ذكر ابن عساكر : " أن باني دمشق بناها على الكواكب السبعة ، وأن المشتري كان طالع بنائها . وجعل لها سبعة أبواب وصَوّرَ على كل باب أحد الكواكب السبعة ، وصور على باب كيسان صورة زحل ، فخربت الصور التي كانت على الأبواب كلها ، إلا باب كيسان [٨٦] " وكانت هذه الصورة باقية حتى عصر ابن عساكر .

وقال بعض المستشرقين في العصر الحديث إن اسم دمشق مركب من كلمتين هما اسم الإشارة ذو والمشق التي تعني التربة الغضارية ، فيكون معنى دمشق : ذات التربة الغضارية[٨٧].

ويعود أقدم ذكر لدمشق في نصوص الاحتقار المصرية ، التي تعود إلى عصر الإمبراطورية الوسطى ٢٠٥٢–١٧٧٨ق.م . حيث كانت مدينة قوية فاستحقت جعلها في عداد الممالك المعادية للفراعنة ، وكذلك كُتب اسم دمشق على الشكل التالي (ق م س ق) على جدران معبد الكرنك ضمن قائمة أسماء المدن التي غزاها الفرعون تحوتمس الثالث ١٤٩٠–١٤٣٦ق.م [٨٨] .

وظلت دمشق محط صراع بين الفراعنة والممالك الكنعانية حتى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد وذلك مع ظهور الآراميين على ساحة الأحداث . ومن غير قتال وعنف أقام الآراميون ممالك متفرقة على أنقاض الممالك الكنعانية المندثرة وكانت دمشق إحدى هذه الممالك [٨٩] ، وما لبثت دمشق أن أضحت عاصمة للملكة الآرامية [٩٠] .

وقد استطاعت الممالك الآرامية التي انتشرت في المشرق القديم ، التصدي على مدى أربعة قرون للتوسعية الآشورية . ولكن جاء العام (٧٣٢) ق.م حاملاً معه سقوط مملكة دمشق الآرامية بيد الآشوريين . ومنذ ذلك الوقت أضحت دمشق جزءاً من كيان أكبر وأضحى مصيرها بيد الفرس الأخمينيين الذين سيطروا عليها في سنة ٥٣٨ق.م . وبقيت دمشق بيدهم إلى حين دخول الإسكندر المقدوني إلى البلاد أواخر القرن الرابع ق.م [٩١] . وبعد معركة إيسوس على خليج الإسكندرونة مع الفرس دان أكثر سكان سورية للاسكندر . وأرسل الإسكندر قائده برمنيون إلى دمشق للاستيلاء على الذهب والفضة والآنية والحلي والحلل الثمينة التي كانت لبعض أعيان الفرس في دمشق .

---

[٨٣] (ابن النديم) : (الفهرست) مطبعة الاستقامة – القاهرة – بدون تاريخ ص ٥٤ .

[٨٤] العمري : المصدر السابق – ص١٧٢–١٧٣ .

[٨٥] الحموي : معجم البلدان – ج٢ ص٤٦٣–٤٦٤ .

[٨٦] ابن عساكر : تاريخ دمشق – ج١ ص١٥ /ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ج٢ ق١ ص٣٠ .

[٨٧] W.T.Pitard , Ancient . Damascus . 1987 . P.7 – 9

[٨٨] W.Helck , Die Bezichungen Agyptenszu . Vordersien-im 3 (1962) P.312

[٨٩] (أبو عساف) : علي (المصادر القديمة في تاريخ دمشق) مجلة دراسات تاريخية – دمشق – العدد ٤١– ص ٧١.

[٩٠] (فرزات) : محمد حرب (موجز في تاريخ سورية القديم) جامعة دمشق – ١٩٨٥ – ص١٥٩ .

[٩١] فرزات : المرجع نفسه ص١٦٨–١٦٩ .

وبموت الإسكندر تقاسم قواده المملكة . فكانت الشام من حصة قائده سلوقس وكانت الدولة السلوقية دولة حرب ونزاع ، فغدت الشام في حالة بؤس وشقاء وضاق سكان الشام من حكم السلوقيين فراسلوا ملك أرمينيا تغران فأتى إلى الشام في سنة ٨٣ ق.م ولبس تاج ملكها . وبقي فيها إلى أن جاء الرومان سنة ٦٥ق.م انتزعوها من يده [٩٢] . وما لبثت أن وقعت بيد القائد الروماني بومبيوس عندما احتل الشام . واستولى على دمشق وما جاورها ، وأبقى لهذه العاصمة –دمشق– بعض استقلالها .

ولعبت دمشق دوراً تجارياً مهماً في العصر الروماني كونها محطة للقوافل التجارية ، وهي الواحة الغنية التي تنمو فيها مختلف أشجار الفاكهة والمزروعات [٩٣] .

واستفادت دمشق بشكل ملحوظ من إعطائها صفة (مقاطعة رومانية) ، وتحت قيادة الإمبراطور ديوقلسيان ، أصبحت دمشق مركزاً عسكرياً مهماً لجيوش الإمبراطورية خلال حروبها مع الفرس . أعطى الرومان عناية خاصة لتقوية المدينة وذلك بتطويقها (بسور) على شكل مستطيل ، ولا تزال بعض بقاياه موجودة حتى الآن . وبقيت بعض قنوات جر المياه الرومانية المقامة في المدينة تستخدم إلى بدايات القرن العشرين [٩٤] .

ومع انقسام الإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الرابع الميلادي ، أصبحت دمشق ثغراً عسكرياً مهماً للإمبراطورية البيزنطية ، وتبنى معظم سكانها الديانة المسيحية ، وتحول معبد جوبيتر الوثني إلى كاتدرائية مكرسة للقديس جون البابوي (النبي يحيى [٩٥]) .

الفتح الإسلامي لدمشق :

عامل الرومان سكان الشام في آخر أيامهم بالظلم آذاقوهم العذاب فمال الناس إلى الخلاص، وكان الرومان قد ضعف أمرهم . وفي هذه الأثناء كانت حركة الفتوح الإسلامية على أشدها وعقد الخليفة أبو بكر الصديق اللواء لأربعة من الأمراء هم :

١ – أبو عبيدة بن الجراح ٢ – عمرو بن العاص

٣ – يزيد بن أبي سفيان ٤ – شرحبيل بن حسنة

وتبعهم جيش خالد بن الوليد بعد أن تمّ نصره على الرومان في اليرموك ١٣هـ /٦٣٥م [٩٦] ووصلت جيوش المسلمين إلى دمشق . فنزل عمرو بن العاص بباب الفراديس ، وشرحبيل بن حسنة بباب توما ، يزيد بن أبي سفيان بباب الفرج ، وأبو عبيدة بن الجراح بباب الجابية ، وخالد بن الوليد بالباب الشرقي . وضرب المسلمون حصاراً على دمشق استمر حوالي سبعين يوماً ، ولم ينفع هذا

---

[٩٢] (كرد علي) : محمد (خطط الشام) مكتبة النوري – دمشق – الطبعة الثالثة – ١٩٨٣–ج١ ص ٥٦–٥٧.

[٩٣] (محفل – الزين) : محمد – محمد (دراسات في تاريخ الرومان) جامعة دمشق – الطبعة الرابعة – ١٩٩٥ ص١٧٦–١٧٧ .

[٩٤] The New.Encyclopadia .Britanica in 30 Voloumes 15 Th Edition . P . 67 – 68 .

[٩٥] كرد علي : خطط الشام ج١ ص٦٥–٦٦

[٩٦] (الطبري) : محمد بن جرير (تاريخ الأمم والملوك) القاهرة – ١٣٤٦هـ – ج٤ ص٢٨ / (ابن الأثير) : علي بن أحمد (الكامل في التاريخ) بولاق –١٢٧٤هـ – ج٢ ص١٩٥ .

الحصار مع دمشق إلا بعد أن نفذت المؤن ، وتم للمسلمين فتح هذه المدينة بعد أن أعطوا أهلها الأمان الذي طلبوه [٩٧] .

دمشق في العصر الأموي :

في عام ٤١هـ/٦٦٣م تحولت دمشق إلى عاصمة دولة مترامية الأطراف وتضخم أمرها ، وعلا شأنها ، وزهت وبلغت أسمى درجات الحضارة بالعلوم والمعارف . وصارت عاصمة دولة أعظم من دولة الرومان ، تمتد من أواسط فرنسا إلى شمالي الهند وقد ذاع صيتها عالمياً. وعرف أهلها الغنى والسؤدد [٩٨] . وبنى فيها الأمويون الكثير من القصور. وبني في هذا العصر مفخرة دمشق ألا وهو الجامع الأموي . فالذين حكموها من الأمويين ١٤ خليفة أولهم معاوية وآخرهم مروان الثاني. ولم تعد إليها خلافة بعد ذلك [٩٩] .

دمشق في العصر العباسي :

في سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م أطاح العباسيون بالخلافة الأموية في الشام ونقلوا عاصمة دولتهم من دمشق إلى بغداد . وبعد مدة من الحكم العربي لهذه الدولة بدأ فيها سيطرة النفوذ الفارسي ثم النفوذ التركي [١٠٠] . وقد كثرت ثورات سكان دمشق ضد الحكم العباسي نتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية والعمرانية إلى جانب سياسة القسوة والشدة التي كان يستعملها الولاة مع الأهالي في دمشق . فمن المعروف أن مدينة دمشق لم تحظَ بأية رعاية أو اهتمام من جانب العباسيين وكانت تسير عمرانياً واقتصادياً نحو الأسوأ . حتى إن دمشق أصبحت جرداء مقفرة . ونتيجة لهذا الوضع قام سكان دمشق بعدة ثورات ضد العباسيين [١٠١] . في الأعوام ١٩٥هـ/٨١٠م [١٠٢] وكذلك سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤-٨٥٥م[١٠٣] وفي العام ٢٦٤هـ/٨٧٨م. سيطر الطولونيون على سورية وبقيت في حكمهم حتى عام ٢٩٢هـ/٩٠٥م[١٠٤] وما لبثت أن وقعت سورية مرة أخرى ولكن هذه المرة بيد الأخشيديين ٣٢٣هـ/٩٦٥م على يد طُغج وبقيت دمشق في أيديهم حتى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م إذ أطاح بهم الفاطميون وضموا دمشق إلى حكمهم [١٠٥] .

---

[٩٧] لمزيد من المعلومات حول فتح دمشق يمكن الرجوع إلى : (البلاذري) أحمد بن يحيى (فتوح البلدان) تح: رضوان محمد رضوان – المكتبة التجارية – مصر – ١٩٩٥ / (ابن أعثم) : الكوفي (الفتوح) دار الندوة – بيروت – د.ت.ر.ط

[٩٨] (سبانو) : أحمد غسان (دمشق في دوائر المعارف العربية) دار الكتاب العربي – دمشق – د.ر.ت.ط ص٦٩

[٩٩] لمزيد من المعلومات حول دمشق في العصر الأموي يمكن الرجوع إلى : (العش) : يوسف (الدولة الأموية) دار الفكر – دمشق – الطبعة الخامسة – ١٩٩٨ / (خماش) : نجدت (خلافة بني أمية في الميزان) درا طلاس – الطبعة الأولى – ٢٠٠١

[١٠٠] (الشهابي) : قتيبة (نقود الشام) منشورات وزارة الثقافة – دمشق – الطبعة الأولى – ٢٠٠٠ ص ١٠١.

[١٠١] (بيطار) أمينة (تاريخ العصر العباسي) منشورات جامعة دمشق – الطبعة الرابعة – ١٩٩٧ص .

[١٠٢] (ابن الأثير) : الكامل ج٥ ص٢٣٤ / (ابن خلدون) : عبد الرحمن بن محمد (تاريخ ابن خلدون) – دار البيان – بيروت – بدون تاريخ ج٣ ص٢٣٤ .

[١٠٣] (كرد علي) الخطط ج٥ ص١٥٤ .

[١٠٤] الأزدي : المصدر السابق ص٢١٩

[١٠٥] الشهابي : نقود الشام ص١٠٩ .

دمشق والفاطميون :

بعدما توطد حكم الفاطميين في مصر وجهوا أنظارهم باتجاه الشام وأوكلوا قيادة الجيش المعد للهجوم على الشام إلى القائد المغربي جعفر بن فلاح الذي توجه بجيشه نحو دمشق لضمها إلى الدولة الفاطمية . وفي هذه الأثناء نظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم بحفر الخنادق ، وإقامة الحواجز داخل المدينة، واشترك في ذلك الرجال والنساء والصبية .

ونظم أمور الدفاع عن دمشق آنذاك جماعة عرفت بالأحداث (منظمة شبه عسكرية) وكاد أهل دمشق أن يتصدوا للفاطميين لولا بعض التجار الذين قاموا بالتوسط لدى جعفر بن فلاح مما أدى إلى إيقاف المقاومة وفتح أبواب دمشق لابن فلاح . وهكذا دخلت دمشق تحت السيطرة الفاطمية وذلك سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م [١٠٦] وبقيت دمشق تحت الحكم الفاطمي حتى سنة ٤٦٩هـ/١٠٧٦م [١٠٧] . وعانت دمشق خلال حكم الفاطميين من كثرة تبديل الولاة ، والفتن ، التي أدت في إحداها إلى إحراق المسجد الأموي سنة ٤٦١هـ/١٠٦٨م [١٠٨] .

قدوم السلاجقة :

ومع قدوم عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م جاء عصر جديد على دمشق بقدوم السلاجقة بقيادة أتسز، وبذلك خسر الفاطميون المدينة إلى الأبد ، ولكن محاولات الفاطميين لاستعادة دمشق باءت كلها بالفشل وقد استعان أتسز بن أوق سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م بالأمير السلجوقي (تتش بن ألب رسلان) لإعانته على صد الفاطميين . وقد عانت دمشق في حكم أتسز محناً لم تَرَ ما يماثلها منذ الفتح الإسلامي . وفي عهد السلاجقة تم بناء قلعة دمشق [١٠٩] . وظهرت في تاريخ دمشق دولة حاكمة جديدة هي الدولة البورية وذلك سنة ٤٩٨هـ/١١٠٢م على يد طغتكين وظلت هذه الدولة تحكم دمشق على مدى نصف قرن تقريباً [١١٠] . وخلال حكم هذه الدولة كانت الحروب الصليبية قد انطلقت باتجاه الشرق قبل قيامها بست سنوات .

دمشق والحملة الصليبية الثانية :

كان لتحرير الرها على يد عماد الدين الزنكي سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م أثر سلبي في أوروبا فتداعت أوروبا إلى حملة صليبية ثانية وتوجهت هذه الحملة نحو دمشق وضربت حصارها عليها . وقام معين الدين أنر بتنظيم الدفاع عنها وطلب النجدة من نور الدين زنكي صاحب حلب الذي لبى النداء [١١١] . ولقد أظهر حصار دمشق ضعف الدولة البورية ، وأن نور الدين هو القائد المؤهل للجهاد ضد الصليبيين

---

[١٠٦] (ابن كثير) : أبو الفداء اسماعيل (البداية والنهاية) دار المنار – القاهرة – ١٩٩٨ – ج١ ص٢٥٦–٢٥٧ / (بيطار ، زكار) أمينة ، سهيل (تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد) مطبعة جامعة دمشق – الطبعة الثالثة ١٩٩٩ ص٧٣–٧٦

[١٠٧] ابن كثير : المصدر نفسه – ج١٢ ص١١١ .

[١٠٨] ابن كثير : المصدر نفسه – ج١٢ ص٩٦ .

[١٠٩] عن السلاجقة راجع : (الأصفهاني) عماد الدين محمد بن محمد (تاريخ دولة آل سلجوق) تح : يحيى مراد – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠٠٤ .

[١١٠] (جوني) : وفاء (دمشق بين أتابكيتين – البورية والنووية) بحث مقدم لندوة دمشق في التاريخ – دمشق– ٢٠٠٦– ص ٣ .

[١١١] (زكار) : سهيل (الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية) دار الفكر – ١٩٩٥ – ج٣ ص٢٧٤ .

، وذلك من خلال رفع الحصار عن دمشق بعد عدة أيام ورحيل الحملة الصليبية تجر ذيل الهزيمة وراءها [١١٢] . وهكذا زالت الدولة البورية على يد نور الدين زنكي ، الذي نظم أمور دمشق ، ونقل إليها مركز حكومته ، وتحولت دمشق إلى وضع إيجابي ضد الصليبيين ، تقود من خلاله حرب التحرير والاسترداد ، ومع دخول نور الدين دمشق قامت فيها حركة علمية نشطة [١١٣].

فنور الدين قام ببناء البيمارستان النوري ، وأقام دار العدل ، ودار الحديث النورية . وهي أول جامعة لعلوم الحديث في التاريخ الإسلامي ، وهو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ مدينة دمشق في ثمانين مجلدة [١١٤] . وظلت دمشق تحت حكم نور الدين حتى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م إذ دخلها صلاح الدين .

الأيوبيون في دمشق :

بعد وفاة نور الدين زنكي تمكن صلاح الدين من دخول دمشق والسيطرة عليها وكانت سيطرته على دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م [١١٥]. فاستطاع توحيد مصر والشام في دولة واحدة.

وامتلكت دولة صلاح الدين التي كانت عاصمتها دمشق طاقات بشرية واقتصادية للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين ، ومن دمشق انطلقت الجيوش لقتال الصليبيين في حطين [١١٦] . وقد شهدت دمشق يقظة في جميع الميادين الحضارية والاقتصادية وازدهرت الزراعة ،ونشطت التجارة الخارجية وبخاصة مع جنوا والبندقية . وشيدت المدارس الكثيرة والحصون . وتم في العصر الأيوبي إعادة بناء قلعة دمشق على يد العادل – شقيق صلاح الدين – واستمر الحكم الأيوبي حتى سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م إذ أطاح بهم المماليك بعد نزاعات مريرة بينهم وبين خلفاء صلاح الدين ، وبين خلفاء صلاح الدين بعضهم مع بعض . وكان آخرها قتل الملك المعظم الأيوبي (تورانشاه) [١١٧] .

وهكذا جاء عصر جديد في دمشق ولكن حكامه أغراب عن المنطقة وليسوا من أبناء المنطقة ، لكنهم تمكنوا من الدفاع عن الدولة وحموها من الصليبيين والمغول .

انضمام بلاد الشام إلى الدولة المملوكية :

---

[١١٢] (عاشور) : سعيد عبد الفتاح (الحركة الصليبية) – مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة – الطبعة الثالثة – ١٩٧٦ – ج٢ ص٦١٤ .

[١١٣] (الشهابي) : قتيبة (صمود دمشق أمام الحملات الصليبية) منشورات وزارة الثقافة دمشق – الطبعة الأولى – ص٦٠ .

[١١٤] لمراجعة الحركة العلمية في دمشق زمن الأيوبيين : (شمسياني) : حسن (مدارس دمشق في العصر الأيوبي) دار الأفاق الجديدة – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨٣ .

[١١٥] (ابن شداد) : بهاء الدين (سيرة صلاح الدين) تح : بكر إبراهيم – دار صلاح الدين – القاهرة – الطبعة الأولى – ٢٠٠٠ – ص٢٥٤ .

[١١٦] (زكار) : سهيل (حطين مسيرة التحرير) دار حسان – دمشق – الطبعة الأولى – ١٩٨٤ –ص١٠٥ وما بعد .

[١١٧] الشهابي : نقود الشام ص١٢١ .

سبق وأشرنا إلى قيام دولة المماليك الأولى وكيف وصل المماليك إلى السلطة . ومن أجل عدم التكرار ، سنقتصر على دراسة سريعة لدمشق خلال العصر المملوكي الأول ، وأهم الثورات التي قامت في دمشق ضد السلاطين المماليك ، ولكن بداية نتساءل كيف دخلت بلاد الشام تحت سيطرة المماليك ؟

في الواقع أنه عندما قرر الأمراء المماليك في القاهرة تنصيب شجر الدر والمعز أيبك ، أرسلوا إلى دمشق لأخذ موافقة الأمراء فيها على هذا الإجراء [١١٨] . لكن أمراء دمشق في ذاك الوقت وكانوا يعرفون بالأمراء القيمرية ، رفضوا هذا الإجراء ، ولم يكتفوا بالرفض بل بادروا للاتصال بالناصر يوسف الأيوبي الذي دخل دمشق يوم السبت ٩ ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ / "يوليو ١٢٥٠م ، بعد أن هُزم عسكره في مصر تصالحوا على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن ، وللناصر ما وراء ذلك . ثم تم تغيير الحدود ، حيث عُدت العريش آخر حدود بلاد الشام مع مصر [١١٩] .

وأصبح الأمر على النحو الآتي :

١ – المعز أيبك وأنصاره في مصر .

٢ – الناصر يوسف الأيوبي والمماليك البحرية والقيمرية معه في دمشق .

ولكن بعد وصول السلطان سيف الدين قطز إلى السلطة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م وانتصاره على المغول في عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م دخل دمشق دخول الظافرين وبذلك دخلت دمشق تحت الحكم المملوكي المباشر لأول مرة ، وعهد الملك المظفر للأمير علم الدين سنجر الحلبي بنيابة السلطة فيها ، ليكون أول نائب للمماليك في دمشق [١٢٠] .

وعلى الرغم من ضم بلاد الشام إلى حكم المماليك فإن بلاد الشام ظلت معقلاً للصليبيين إلى أن تمكن الملك الأشرف خليل بن قلاوون من القضاء عليهم وتحرير عكا سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م .

أما الممالك الأيوبية في الكرك وحمص وحماة ، فقد أخضعت أيضاً للحكم المملوكي المباشر ، فاعتقل المغيث صاحب الكرك في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م بتهمة التعاون مع التتار ، وضمت الكرك للدولة المملوكية [١٢١] ، ثم ضمت حمص في العام نفسه بعد وفاة ملكها الأشرف موسى ، أما حماة فقد بقيت في يد البيت الأيوبي حتى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤١م [١٢٢]. حيث عزل الملك الأفضل بن أبي الفداء، وعين طقز دمر الحموي نائباً للسلطة بها.

موقف بلاد الشام من الانضمام للحكم المملوكي في مصر :

---

[١١٨] (النويري) : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) تح:محمد ضياء الدين الريس الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٦٣ – ج٢٩ ص٤٧٦–٤٧٧ .

[١١٩] (العلبي) : أكرم (دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين) الشركة المتحدة للطبع – دمشق الطبعة الأولى– ١٩٨٢ – ص١٨ .

[١٢٠] (أبو الفداء) : عماد الدين إسماعيل بن علي (المختصر في أخبار البشر) تح: محمود ديوب – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٧ –ج٢ ص٣١٦ /ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة –ج٧ ص ٨٢ .

[١٢١] أبو الفداء : المصدر السابق ج٢ ص٣٢٧–٣٢٨ / (المقريزي) : أحمد بن علي (السلوك لمعرفة دول الملوك) تح: محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٧ – ج١ ص٥٥٠ .

[١٢٢] (حمادة) : محمد ماهر (الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي) مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الأولى – ١٩٨٠ ص٣٥ / زعرور: الحياة الاجتماعية – ص٨٠ .

قال المستشرق " وليم موير" في كتابه "تاريخ دولة المماليك " : " إننا نعجب أشد العجب من أن نرى أجنبياً يثقل كاهل الناس ويخوفهم طويلاً ، ثم لا يحاولون القضاء عليهم " . ثم يتابع حديثه قائلاً : " وكان حكام المماليك يحكمون البلاد ، ولم يفكر أحد أبداً في جعل الحكم في أيدي وطنيين [١٢٣] ." .

والرد على ما قاله وليم وغيره من المستشرقين الذين لا يفهمون طبيعة المنطقة وطبيعة الشعب:

أن سكان بلاد الشام قد رحبوا بالحكام الجدد لسبب بسيط هو :

أن العالم الإسلامي كان يتعرض في تلك الحقبة لخطرين جسيمين إن استطعنا قول ذلك هما :

١ – الصليبيون الموجودون في مناطق كثيرة من بلاد الشام .

٢ – التتار الذين دمروا بغداد واجتاحوا بلاد الشام .

وكان المماليك هم المدافعون عن بلاد الشام وكان لزاماً على الناس أن يقدموا الطاعة والولاء لهذه القوة الإسلامية التي كتب الله لهما أن يدحرا هذين الخطرين . فطهروا بلاد الشام من الصليبيين عام ٦٩٢هـ/١٢٩١م [١٢٤] ، وتصدوا للمغول الذين هاجموا بلاد الشام بعد عين جالوت عدة مرات .

وكان هناك دافع قوي لترحيب السكان بالمماليك هو ظاهرة اتحاد المسلمين طوعاً لمواجهة خطر يتهددهم جميعاً ، والسبب في ذلك هو أنهم مسلمون .

خلاصة القول : إن الوضع الذي كان قائماً في بلاد الشام في ظل حكم المماليك نستطيع القول عنه : إنه كان وضعاً طبيعياً ولا غرابة فيه ، لأن الشعب قد تمسك بهذا الوضع بملء إرادته . وذلك رغم الانحراف والظلم الذي كان يقع عليه بين الحين والآخر . وهذا الظلم لم يكن من السلاطين المماليك بل كان من جنودهم ، وتذمر الناس لم يكن بغرض تبديل الحكم المملوكي بحكم آخر ، وسنورد أهم حركات التمرد والعصيان التي قامت في دمشق خلال العصر المملوكي الأول :

حركات التمرد والثورات ضد سلاطين المماليك في دمشق :

لقد وضع سلاطين المماليك لبلاد الشام تقسيماً إدارياً يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، وفي الوقت نفسه نلاحظ أن نواب دمشق وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهمية موقع البلاد ، وبعدها عن مركز السلطنة فاستغلوا ذلك لمحاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين ، فقاموا بإعلان الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل سعى بعضهم للحصول على السلطنة [١٢٥] ، وأول هذه الثورات كانت :

<u>آ – ثورة علم الدين سنجر (٦٥٨–٦٩٢هـ / ١٢٦٠–١٢٩٢م) :</u>

---

[١٢٣] (موير) : وليم (تاريخ دولة المماليك) القاهرة – ١٩٢٤ ص١٨٩–١٩٠ .

[١٢٤] (دراج) : أحمد (المماليك والفرنج) القاهرة – ١٩٦١ – ص٢٥ وما بعد .

[١٢٥] (عاشور) سعيد عبد الفتاح (العصر المماليكي في مصر والشام) القاهرة – الطبعة الثانية – ١٩٦٥ ص٢٢١.

وهو من أكابر أمراء المماليك الصالحية النجمية [١٢٦] وأول نائب للمماليك في دمشق عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م وشارك في معركة عين جالوت [١٢٧] . وبعد مقتل قطز واستلام الظاهر بيبرس وجد علم الدين الفرصة سانحة لتغيير الحكم في القاهرة ، وقام بانتفاضة مسلحة ضد الحكم الجديد بداعي :

١ – مقتل قطز الذي ولاه حاكماً على دمشق .

٢ – تولي بيبرس السلطة دون استشارة للأمراء .

فأعلن نفسه سلطاناً حاكماً على دمشق سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م [١٢٨] ، وحاول الظاهر بيبرس التعامل مع هذه القضية التي هددت حكمه بالوسائل السلمية لكن الأمر فشل . وقام علم الدين بتحصين قلعة دمشق [١٢٩] . عندئذ قرر بيبرس القضاء عليه من خلال إرسال حملة عسكرية نجحت بإخماد فتنته والقضاء عليه ، وسيق أسيراً إلى القاهرة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م . حيث عفا عنه الظاهر بيبرس [١٣٠] ونال مكانة جيدة بعد ذلك . وقد ترتب على ثورته غلاء الأسعار بدمشق فوصل إلى بيع الخبز الرطل بدرهمين ، واللحوم بثمانية عشر درهماً [١٣١] . واستمر علم الدين سنجر يحظى بالاحترام في عهد خلفاء بيبرس كابنه بركه خان والمنصور قلاوون . الذي سرعان ما قبض عليه بعد أن كلفه بالقضاء على ثورة الأمير سنقر الأشقر خوفاً من ازدياد نفوذه وبقي كذلك إلى أن أفرج عنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٩٠–٦٩٣هـ/١٢٩١–١٢٩٣م) وبقي معززاً مكرماً إلى أن مات سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م [١٣٢] .

ب – تمرد وعصيان الملك الناصر يوسف صاحب حلب والشام (٦٦٠هـ / ١٢٦١ م) :

أرسل الملك الناصر يوسف أحد الأمراء إلى صاحب الكرك ، يأمره بالقبض على الظاهر بيبرس والسبب في ذلك أن بيبرس اتهم بقتل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك العادل صاحب الكرك [١٣٣] ، لكن الظاهر بيبرس استطاع القضاء على هذه الحركة ، واستبدال حكام الكرك الأيوبيين بحكام من مصر (بدر الدين البيسري الشمسي [١٣٤]) وهكذا تمكن الظاهر من إعادة الكرك إلى سيادته وترتيب أمورها من جديد .

---

[١٢٦] نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب ، وقام نجم الدين بتربيتهم تربية مدنية وحربية في جزيرة الروضة .
(ابن عبد الظاهر) : محي الدين (تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور) تح : مراد كامل – القاهرة – ١٩٦١ – ص٣٦ .

[١٢٧] (اليونيني) : قطب الدين أبو الفتح بن محمد (ذيل مرآة الزمان) حيدر أباد – ١٩٥٤ ج١ ص٣٧٠

[١٢٨] (خطاب) : حنفي محمود (الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى) رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب – جامعة القاهرة – ١٩٤٩ – ص٥٤–٥٥ .

[١٢٩] (المنصوري) : بيبرس (التحفة المملوكية في الدولة التركية) تح: عبد الحميد حمدان – الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولى ١٩٨٧ – ص٤٥ .

[١٣٠] (النويري) : نهاية الأرب – ج٣٠ ص٣١–٣٩ .

[١٣١] (ابن طولون) : محمد بن علي (إعلام الورى بمن وليّ نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى) تح: عبد العظيم خطاب – القاهرة – ١٩٧٣ – ص٥ .

[١٣٢] المقريزي : السلوك – ج٢ ص٢٤٦/ ابن تغري بردي : النجوم ج٨ ص٣٩ / ابن تغري بردي : المنهل الصافي – ج٦ ص٧٦ وما بعدها.

[١٣٣] (ابن شداد) عز الدين محمد بن علي (تاريخ الملك الظاهر) تح : أحمد حطيط فيسبادن – ١٩٨٣ – ص٢٧٠ .

[١٣٤] أبو الفداء : المختصر – ج٢ – ص٣٢٨–٣٢٩ .

جـ – مؤامرة سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م :

تزعمها جماعة من كبار الأمراء هم علم الدين سنجر الحلبي ، وجمال الدين آقوش المحمدي وجمال الدين أيدغدي الحاجبي ، وعز الدين إيفان سم الموت [١٣٥] وشمس الدين سنقر وسيف الدين بيدغان وعلم الدين طرطبح الأسدي واستهدفت قتل السلطان .

وقد علم السلطان بيبرس بهذه المؤامرة وأسرّها في نفسه وتكتم الأمر واحترز على نفسه حتى وصل إلى قلعة الجبل بالقاهرة ، ثم أصدر أوامره بالقبض عليهم وحبسهم [١٣٦] .

د – تمرد الكرك سنة (٦٧٤هـ / ١٢٧٥م) :

قامت مجموعة من أمراء قلعة الكرك بنسج مؤامرة سرية بهدف إثارة الفتنة والخروج على طاعة الدولة . ولكن ما إن استفحل أمر هذه الحركة بعد قتل المتمردين لنائب الكرك ، حتى قام بيبرس بالتوجه إلى الكرك بنفسه لإخماد تلك الفتنة في مهدها [١٣٧] .

هـ – حركة سنقر الأشقر : (٦٧٨هـ / ١٢٨٠م) :

هذه الحركة قامت ضد السلطان قلاوون ، والسبب في قيامها خروج بعض الأكابر والأمراء على حكمه لأنهم يأنفون الخضوع له ، ولاعتقادهم أنهم أجدر منه بالسلطنة .

وقاد هذه الحركة سنقر الأشقر نائب دمشق الذي لم يرضَ عن التغيير الذي حصل وأوصل قلاوون إلى السلطة ، ويبدو أنه كان يطمع بتولي السلطة . والدليل على ذلك أنه دعا أهل دمشق إلى الخروج على طاعة السلطان قلاوون وأعلن نفسه سلطاناً في (شهر ذي القعدة عام ٦٧٨هـ/شهر نيسان١٢٨٠م) وتلقب (بالملك الكامل) ، وطلب من نواب الولايات في بلاد الشام الاعتراف به [١٣٨] لكن السلطان قلاوون لم يقف موقف المتفرج من هذه الحركة خاصة وأنه يخشى انتفاضة الأمراء الظاهرية وأسرة بيبرس [١٣٩] ، فأرسل قلاوون جيشاً بقيادة علم الدين سنجر لمحاربة سنقر الذي لم يصمد أمام الجيش وحلت به الهزيمة [١٤٠] ، لكنه حصل على نجدات سريعة من حلب وحماة وبعلبك ، والتقى مع جيش السلطان مرة أخرى (٦٧٩هـ/١٢٨٠م) وكاد أن ينتصر لولا الخيانة في صفوف قواته فهرب إلى الرحبة [١٤١]

---

[١٣٥] أطلق هذا اللقب على الأمير عز الدين لجسارته وفتوته وسرعة انقضاضه على العدو .
(سعداوي) : نظير حسان (صور ومظالم من عصر المماليك) – القاهرة – ١٩٦٦ ، ص١٢٣ .

[١٣٦] (ابن أبي الفضائل) : المفضل (تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد) نشره وترجمه إلى الفرنسية : Eblouchet , Potrologia OrientalisXII , XIV , XXII , Paris 1919 P 201.

[١٣٧] النويري : المصدر السابق – ج٣ – ص ٢٢٧ وما بعدها .

[١٣٨] المقريزي : السلوك – ج٣ – ص ٢١٢.

[١٣٩] المنصوري : التحفة المنصورية – ص٩٢ .

[١٤٠] (العيني) : محمود بن أحمد (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان) تح: عبد الرزاق الطنطاوي – الزهراء للإعلام العربي – ط – بيروت – ١٩٨٩ – ج٢ – ص ٢٤٢ .

[١٤١] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص٢٩٦ .

ثم عقد صلحاً مع السلطان : على أن يمنحه لقب ملك ، ويحصل على أفاميا وكفر طاب وأنطاكية وصهيون ، ويعين أميراً على ستمائة فارس باستثناء أتباعه ، وهكذا انتهت حركته بشكل سلمي[١٤٢].

دور دمشق في الدفاع عن الدولة المملوكية :

بعد أن تحدثنا عن حركات التمرد التي قامت في دمشق ضد السلاطين ، نجد أنفسنا أمام سؤال مهم : ما هو الدور الذي لعبته دمشق في الدفاع عن الدولة المملوكية ؟ لقد قامت دمشق بدورها في الدفاع عن الدولة المملوكية وذلك من خلال دورين لقاطنيها :

آ – دور الجيش المملوكي في دمشق :

لعبت القوات المملوكية الموجودة في دمشق دوراً مهماً في الدفاع عن دمشق ، لكن هذا الدور كان محدوداً بشكل ملحوظ والسبب في ذلك أن سلاطين المماليك في القاهرة لم يحتفظوا بقوات عسكرية كافية في بلاد الشام لاستخدامها في صد الطامعين الكثر في دولتهم . ومن أهم الأسباب التي دفعت السلاطين القيام بهذا العمل هو خوف السلاطين من أن تتحالف هذه القوات مع أحد الطامعين وتتوجه للإطاحة به بدل من القضاء على الخارجين . لكن خوف السلطان من اجتماع القوات المملوكية كان يدفعه دوماً إلى بعثرتها وتشتيتها [١٤٣] . وعلى هذا نستطيع الخروج بعبارة : إن القوات المملوكية قد أسهمت في الدفاع عن الدولة ، بقدر ما كان يسمح لها ، ولو أطلق لها العنان لكان شأنها غير ذلك .

ب – دور السكان في الدفاع عن الدولة المملوكية :

نستطيع القول إن السكان دافعوا عن الدولة المملوكية من خلال :

١ – الأموال التي كانوا يدفعونها – سواء كراهية أم طواعية – لتصرف على الحملات المتوجهة لقتال المغول أو الصليبيين ، وكان للعلماء في المدينة دور في جمع هذه الأموال .

٢ – اشتراك قوات كثيرة من السكان البدو في الحملات العسكرية .

٣ – انضمام قوات الزعران إلى جيش المماليك أو اشتراكها في حماية البلد من البدو في أثناء غياب القوات المملوكية يعتبر دفاعاً عن البلد ونوعاً من المشاركة في حمايتها [١٤٤] .

ويمكننا القول أن الشعب لم يقف مكتوف الأيدي – مما كان يدور حوله ، بل كان يساهم بإمكانياته المحدودة في تأييد حكامه ضد الأخطار .وكانوا يساهمون في دعم دولتهم – بشكل أو بآخر – بالرغم من كل المساوئ التي كانوا يعانون منها .

---

[١٤٢] المنصوري : المصدر السابق ص٩٤ / النويري : نهاية الأرب – ج٣١ ص٢١–٢٢ .

[١٤٣] ابن إياس : بدائع الزهور – ج٣ – ص١٧٠–١٧٣ .

[١٤٤] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٣٦١–٣٦٢ .

النتائـــج والملاحظـــــات :

١ – إنـه بمـا لا يـدع مجـالاً للشـك أن النيابـات الشـامية كانـت قـوة يخشـاها كـل – سـلطان يلـي السـلطة المملوكية – وخاصة دمشق – فعلى السلطان قبل أن يصل إلى السلطنة أن يفكر ويعمل على أن يكون نواب الشام من أتباعه وأنصاره ، وهذا ما يفسر لنا كثرة العزل والتولية لنواب الشام في أوائل عهد كل سلطان بل وفي أثناء حكمه أيضاً .

٢– لم تكن بلاد الشام في عصر دولة المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة المملوكية ، وإنما كانت أهم مـن ذلـك بكثيـر ، إذ كانـت الجنـاح الأيمـن الـذي بدونـه يتعـذر علـى دولـة المماليـك الاحتفـاظ بكيانهـا وتوازنها، والثبات في وجه الأخطار الضخمة التي هددتها حيناً من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين، وأحياناً أخرى من جانب الأرمن والتركمان ثم العثمانيين فيما بعد .

٣ – إذا كان سلاطين المماليك قد نظروا إلى بلاد الشام نظرة خاصة ، فوضعوا لها تقسيماً إدارياً يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد ، فإننا نلاحظ في نفس الوقت أن نواب دمشق وأمراء المماليك في تلك البلاد أدركوا أهميتها . واستغلوا موقع البلاد من ناحية ، وبعدها عن مركز السلطنة من ناحية أخرى ، في محاولة فرض إرادتهم وإملاء كلمتهم على السلاطين .

٤ – كثيراً ما أحس نواب المماليك في الشام بنفوذهم وقوتهم فأعلنوا الثورات في وجه السلاطين في مصر ، بل سعى بعض الأمراء في الشام للحصول على السلطنة لأنفسهم معتمدين على ما عرف عن المماليك من بغض النظام الوراثي ، فالأمراء جميعاً سواء ، والملك للأقوى والأكثر أتباعاً والأوفر ذكاء وهذا كله يسوقنا للتعرف على التقسيم الإداري لبلاد الشام.

رابعاً - التقسيم الإداري لبلاد الشام في العصر المملوكي :

قسمت بلاد الشام زمن المماليك إلى مناطق إدارية كثيرة ، والجدير بالذكر أن المماليك احتفظوا بالتقسيمات السياسية التي ورثوها في بلاد الشام من الأيوبيين ، وصارت بلاد الشام تضم عدة نيابات أو ممالك ارتبطت بالسلطان المقيم في القاهرة [١٤٥] . ومن خلال مراجعة سريعة لنيابات بلاد الشام في عصر الأيوبيين ، نجد أن المماليك لم يبتكروا جديداً في مجال التقسيم الإداري ، فقد قسمت بلاد الشام في العصر الأيوبي بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي إلى:

١ – مملكة دمشق ، وكان يحكمها الأفضل علي .
٢ – مملكة حلب ، وكان يحكمها غياث الدين غازي .
٣ – مملكة الكرك والشوبك والبلاد الشرقية ، وكان يحكمها الملك العادل أبو بكر .
٤ – حماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم ، كانت بيد المنصور ناصر الدين .
٥ – بعلبك ، وكان فيها الملك مجد الدين .
٦ – أما حمص وتدمر والرحبة ، فكان يحكمها شيركوه بن محمد [١٤٦] .

---

[١٤٥] زعرور : الحياة الاجتماعية – ص٥٦ .

[١٤٦] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٢٤ .

وقد أورد كل من القلقشندي والعمري ، التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في العصر المملوكي ، والقلقشندي اقتبسها من العمري مشيراً إلى ذلك في مواضع متعددة في كتابه (صبح الأعشى) ولكن امتاز عن العمري بأنه استفاض في شرح وتحديد مناطق أو مدن التقسيمات الإدارية أكثر من العمري بالإضافة إلى أنه قام بترتيبها جيداً ، فقمنا بالاعتماد على كلا المصدرين في التقسيم الإداري لبلاد الشام . بالإضافة إلى بعض المراجع الحديثة .

وقد قسمت بلاد الشام تحت حكم المماليك إلى ست قواعد أو نيابات هي (دمشق ، وحلب ، وطرابلس وحماة ، وصفد ، والكرك) [١٤٧] .

لكن الدكتور إبراهيم زعرور يرى أن بلاد الشام قد قسمت إلى ثماني نيابات خلال العصر المملوكي ، مضيفاً إلى النيابات السابقة نيابتي (غزة ، والقدس) مشيراً إلى أن هذا التقسيم " لم يتم دفعة واحدة وإنما جاء بشكل تدريجي " الأمر الذي جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل [١٤٨] . ومن ذلك على سبيل المثال أن تاريخ إنشاء نيابتي دمشق وحلب كان سنة (٦٥٨هـ/١٢٦٠م) عقب هزيمة التتار في عين جالوت مباشرة [١٤٩] . أما حماة فقد رأى المماليك عقب عين جالوت أن يبقوا الأيوبيين فيها [١٥٠] . وهكذا أصبحت عبارة بلاد الشام في عصر المماليك تشمل ما يسمى اليوم سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، بالإضافة إلى المناطق التي تقع بين خط الحدود الحالي مع تركيا وبين سفوح جبال طوروس والتي اغتصبتها تركيا من سورية إبان الاحتلال الفرنسي [١٥١] .

وكان يطلق على النيابات في العصر المملوكي أسماء مختلفة مثل : كفالة ، وبلاد ، وممالك . فيقال " الممالك الشامية " ويقصد بها دمشق ، و" الممالك الحلبية " ويقصد بها حلب [١٥٢] . وتم تقسيم كل نيابة إلى أقسام إدارية صغيرة سماها القلقشندي " النيابات الصغار " [١٥٣] ولإعطاء صورة متكاملة عن هذه النيابات في عصر المماليك لا بد من تناول كل نيابة بشرح موجز .

أولاً : نيابة حلب :

تمتعت نيابة حلب في العصر المملوكي بأهمية خاصة ، نظراً لخطورة موقعها على الأطراف الشمالية للدولة ، مما جعلها محوراً لكثير من الحوادث التي رافقت العلاقات المضطربة بين المماليك من

---

[١٤٧] (حسن) : علي إبراهيم (دراسات في تاريخ المماليك البحرية) – القاهرة – الطبعة الثانية ١٩٤٩ – ص٢١٨ .

[١٤٨] زعرور : المرجع السابق – ص٦١ .

[١٤٩] عاشور : مصر والشام – ص٣٢٣ .

[١٥٠] المقريزي : السلوك – ج١ – ص٤٣٣ .

[١٥١] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٢٥ .

[١٥٢] (الشلي) : فيصل (الأوضاع الإدارية في بلاد الشام خلال الفترة المملوكية الثانية) رسالة دكتوراه غير منشورة – جامعة دمشق – ٢٠٠٦ – ص٧٦ .

[١٥٣] (القلشندي) : أحمد بن علي (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) تح : محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨٧ – ج٤ – ص١٠٨-١٨٤ .

ناحية، وجيرانهم من تتار وتركمان وعثمانيين من ناحية أخرى . لذلك ضمت حلب عدداً كبيراً من النيابات الصغيرة، ليس لها مثيل في بقية نيابات الشام [١٥٤] .

ويمكننا تقسيم أعمال مملكة حلب في العصر المملوكي إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي :

آ- الأعمال التي تقع ضمن حدود بلاد الشام :

واشتملت على عشر نيابات واثنتي عشرة ولاية ، أما نياباتها فهي عبارة عن قلاع ومدن حصينة لها عساكرها [١٥٥] وهي :

١ – قلعة المسلمين (وهي قلعة من جند قنسرين البر الغربي الجنوبي من قلعة شمالي حلب).
٢ – إلكختا (وهي قلعة شرقي حلب) .
٣ – كركر (قلعة شمالي حلب) .
٤ – بهنسا (قلعة شمالي حلب) .
٥ – عنتاب (مدينة شمالي حلب) .
٦ – الراوندان (قلعة في الغرب والشمال عن حلب) .
٧ – عنتاب (مدينة شمال حلب) .
٩ – القصير (قلعة غربي حلب) .

١٠ – الشغر وبكاس (وهما اسمان لقلعتين من جند قنسرين) .
١١ – شيزر (مدينة من جند حمص) [١٥٦] .

أما الولايات التابعة لمدينة حلب فهي :

كفر طاب ، وسرمين ، والجبول ، وجبل سمعان ، وإعزاز ، وتل باشر ، ومنبج، وتيزين ، والباب، وبزاعة ، ودركوش ، وأنطاكية [١٥٧] .

وتعد هذه الولايات المراكز الإدارية المهمة في مدينة حلب .

ب- أعمال حلب الواقعة في بلاد الأرمن :

وقد اشتملت على الأعمال التالية :

ملطية ، ودرندة ، ديركي ، إياس ، طرسوس ، باياس ، سرفندكار ، سيس ، قلعة كولان شمال طرسوس ، قلعة كرزال ، قلعة كومي ، قلعة تل حمدون ، الهارونية ، حميميص ، قلعة لؤلؤة شمال كولاك ، قلعة

---

[١٥٤] (عاشور) سعيد عبد الفتاح (نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك) دار المعارف – سوسة – د.ر ت .ط – ص٤٥ .
[١٥٥] العمري : التعريف بالمصطلح – ص١٧٩ .
[١٥٦] العمري: المصدر السابق – ص١٨٠ / العمري: مسالك الأبصار ص٢٠٠-٢٠١ / (القلقشندي): صبح الأعشى – ج٤ – ص١١٩-١٢٤.
[١٥٧] العمري : التعريف ص١٨٠ / القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١٢٤-١٢٨ .

تامرون شمال طرسوس ، قلعة سنباط شمالي طرسوس ، بلسوس، تل جبير ، حصن أولاس ، رعبان ، دلوك ، مرعش، الحدث، سميساط ،حصن منصور [١٥٨].

جـ – أعمال حلب الواقعة شرقي الفرات :

وهذه الأعمال هي :

قلعة البيرة ، قلعة جعبر بين بالس والرقة ، الرها ، وتعدّ هذه الأعمال الثلاثة من الناحية الإدارية نيابات حلبية[١٥٩] .

ثانياً : نيابة حماة :

وكما أشرنا سابقاً فإن النظام الإداري للدولة المملوكية كان معقداً كل التعقيد ، وذلك بسبب طبيعة الدولة وتكوينها الشعبي والإداري والعسكري . ولقد حوت دولة المماليك في بلاد الشام مملكة صغيرة من بقايا الأيوبيين هي : مملكة حماة . ظلوا يحكموها حكماً وراثياً ، ويعترفون بسلطة المماليك الفعلية . وكان المماليك بالمقابل يعترفون لهم بحقهم الوراثي في حماة مدة طويلة من الزمن ، وظل ذلك حتى منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وذلك عندما ألغيت ملكية آل أيوب لحماة ، وأصبح حاكمها أميراً مملوكياً يعينه السلطان [١٦٠] . ومركز هذه النيابة مدينة حماة ، وفيها جملتان : الأولى : حاضرتها ، والثانية نواحيها وأعمالها ، ولها ثلاثة أعمال هي :

١ – عمل برها وهو ظاهرها وما حولها . ٢ – بارين (بلدة غرب حماة) . ٣ – المعرة – معرة صيد نايا– (مدينة من جند حمص) [١٦١] .

ثالثاً : نيابة طرابلس :

كانت طرابلس تحتل مرتبة الصدارة بين مدن الساحل الشامي ، وقد ركز الصليبيون جهودهم سنوات لاحتلال طرابلس والسيطرة على المناطق المحيطة بها حتى تمكنوا من احتلالها سنة (٥٠٣هـ/١١١٠م) وجعلوا فيها الإمارة الرابعة لهم في بلاد الشام ، وقد بذل الظاهر بيبرس جهوداً كبيرة لتحريرها لكنه لم يستطع ذلك ، إلى أن تم تحريرها على يد رفيقه في السلاح قلاوون الألفي سنة (٦٨٠هـ/١٢٨٩م) وبعد تحريرها أصبحت مقراً لنيابة شامية مستقلة [١٦٢] ، وفيها جملتان : الأولى في حاضرتها والثانية في نواحيها وأعمالها ، وقال القلقشندي عن أعمالها إنها قسمان :

---

[١٥٨] (ابن الشحنة) : محمد أبو الفضل (الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب) تح: عبد الله درويش . دار الكتاب العربي – حلب – الطبعة الأولى ١٩٨٤ ص١٨٧–١٩١ / القلقشندي : المصدر السابق – ج٢ – ص١٣٥–١٣٧ .

[١٥٩] ابن الشحنة : المصدر السابق ص٢٤٠ / القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١٣١–١٣٨ .

[١٦٠] حمادة : الوثائق السياسية ص٣٥ / زعرور : الحياة الاجتماعية – ص٨٠ .

[١٦١] القلقشندي : صبح الأعشى – ج٤ – ص١٢١ .

[١٦٢] (سالم) : السيد عبد العزيز (طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي) الإسكندرية د.ر.ط. –١٩٦٧ – ص٨٨–٢٦٤ / زعرور : الحياة الاجتماعية – ص٧٢–٧٣ .

القسم الأول : الأعمال الكبار : وهي حصن الأكراد (قلعة الحصن حالياً) ، وبلاطنس ، وصهيون ، واللاذقية ، والمرقب ، وقلاع الدعود التي بيد الإسماعيلية وهي " الرصافة ، والخوابي ، والقدموس ، والكهف ، والمنيقة ، والعليقة " .

القسم الثاني : الأعمال الصغار : فهي أنطرسوس (طرطوس حالياً) ثم عمل جبة المنيطرة، وعمل الظنين (الضنية حالياً) وعمل بشرية (بشري حالياً) وعمل جبلة ، وعمل أنفة (جنوب طرابلس) [١٦٣] .

رابعاً : نيابة الكرك :

كلمة أعجمية ، اسم قلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس ، وهي على سن جبل عال ، تحيط بها أودية إلا من جهة الربض [١٦٤] .

ويلحق بالكرك اسم الشوبك ، والشوبك أقدم منها فيقال " كرك الشوبك " والشوبك المنسوب إليه الكرك، مدينة صغيرة أكثر في البر دخولاً منها وانحرافاً إلى التغريب في القبلة عنها [١٦٥] والكرك فيها جملتان :

الأولى في حاضرتها **والثانية** في نواحيها وأعمالها ، ولها أربعة أعمال هي :

برها (أي ضواحيها) والشوبك (وهي من جبل الشراة) وزغر (مدينة قديمة متصلة بالبادية) ومعان (مدينة بالقرب من الشوبك [١٦٦]) وأضاف العمري مؤتة ، وجرت فيها موقعة مؤتة سنة (٨هـ/٦٢٩م) وفيها قبر جعفر بن أبي طالب [١٦٧] .

خامساً : نيابة صفد [١٦٨] :

مدينة في سفح جبل ، صحيحة الهواء ، خفيفة الماء ، ولها قلعة قل أن يوجد لها شبيه كأنما عليها من ذهب الأصيل تمويه ، وقد استطاع الظاهر بيبرس استرداد هذه القلعة من أيدي الصليبيين ، وقام بتعظيم هذه القلعة ، وهي تستحق التعظيم[١٦٩] .

وصفد فيها جملتان : الأولى في حاضرتها ، والثانية في نواحيها وأعمالها ، وهي أحد عشر عملاً هي: برها (أي ضواحيها) ، والناصرة (بليدة صغيرة بالقرب من طبرية) وهي منبع الديانة النصرانية، وهي منشأ السيد المسيح ، وتبنين وهونين (وهما حصنان بين صور وبانياس) ، والشاغور (كورة بين عكا وصفد والناصرة)، وعكا (مدينة من سواحل الشام) وعثليث (وهي كورة بين قاقون وعكا) ، والإقليم (

---

[١٦٣] العمري : مسالك الأبصار – ص٢٠١–٢٠٥ / القلقشندي : المصدر السابق –ج٤–ص١٥٣ وما بعدها / زعرور : المرجع السابق – ص٥٧.

[١٦٤] (الحموي) معجم البلدان ج٤ – ص٤٥٣ .

[١٦٥] العمري : المصدر السابق – ص٢١٤

[١٦٦] العمري : المصدر نفسه – ص٢١٥ / القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ ص١٥٦/ زعرور : المرجع السابق – ٧٨.

[١٦٧] العمري : المصدر السابق – ص ٢١٥.

[١٦٨] لمزيد من المعلومات حول صفد يمكن الرجوع إلى : (الطراونة) : طه (مملكة صفد في عهد المماليك) دار الآفاق – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٨٢

[١٦٩] العمري : مسالك الأبصار – ص٢٠٥–٢٠٦ .

وهي كورة بين دمشق والشغر والخربة)، والشقيف (حصن بين دمشق والساحل)، وجنين (بلدة قديمة شمال قاقون) وطبرية (مدينة من جند الأردن) ، صور (مدينة قديمة بساحل الشام [١٧٠]) . ويرى الدكتور عادل زيتون أن هذا التقسيم ضروريٌ لأنه يتفق مع طبيعة بلاد الشام الجغرافية . حتى إن معظم هذه النيابات إنما كانت أقساماً إدارية واضحة في العصور السابقة ، بل إن بعضها أصبح دولاً مستقلة قبل عصر المماليك مثل دمشق ، وحلب ، وطرابلس [١٧١] .

سادساً : نيابة دمشق :

تعد نيابة دمشق من أهم النيابات في العصر المملوكي ، فقد عاش فيها أبرز النواب ، وأكثرهم شهرة ، وشهدت نيابة دمشق أكثر المحاولات الانقلابية والاستقلالية وأعمال العصيان والتمرد ضد السلطنة المركزية في القاهرة . وفيها حيكت أكثر حوادث الحياة الاجتماعية والاقتصادية والصناعية إلى جانب حلب ، وفيها خلف المماليك الترب والمساجد والقصور ومختلف المنشآت .

وتسمى بنيابة الشام والممالك الشامية ، وحدّها من العريش جنوباً إلى السلمية شمالاً ومن الرحبة شرقاً إلى المتوسط غرباً ، يخرج من ذلك نيابات صفد والكرك وطرابلس . وكانت نيابة دمشق تشتمل على ضواحيها ، وعلى أربع مناطق إدارية هي :

الأولى : هي المنطقة الساحلية وتشتمل على أربعة أعمال هي :

غزة [١٧٢] ، والرملة [١٧٣] ، واللد [١٧٤] ، وقاقون [١٧٥] .

وتشمل المنطقة الجبلية على ثلاثة أعمال هي :

القدس [١٧٦] ، الخليل [١٧٧] ، نابلس [١٧٨] .

الثانية : هي المنطقة القبلية الواقعة قبلي دمشق ، وتشمل على عشرة أعمال هي :

بيسان[١٧٩] ، وبانياس[١٨٠] ، والشعراء[١٨١] (القنيطرة) ، ونوى[١٨٢] (بحوران) ، وأذرعات[١٨٣] ، وعجلون[١٨٤] (شرقي الأردن) والبلقاء [١٨٥] ، وصرخد [١٨٦] ، وبصرى [١٨٧]، وعمل زرع [١٨٨].

---

[١٧٠] العمري : المصدر نفسه – ص٢٠٧–٢٠٨ / القلقشندي : المصدر السابق – ج١ – ص١٦٠ .

[١٧١] زيتون : تاريخ المماليك – ص٢٢٥ .

[١٧٢] العمري : التعريف بالمصطلح ص ٢٦ . وغزة تقع في الإقليم الثالث من الشام ، وهي أقصى الشام من ناحية مصر وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان . الحموي : معجم البلدان م٤ ص٢٠٢ .

[١٧٣] العمري : مسالك الأبصار ص١٧٨ . والرملة : مدينة قرب غزة ، من فلسطين / العمري : المصدر نفسه – ص٢٢١ وما بعد

[١٧٤] اللد : هي بليدة من جند فلسطين . تقع شرق الرملة . وكانت قصبة فلسطين قديماً . الحموي : المصدر السابق – ج٦ – ص٨٥ .

[١٧٥] قاقون : مدينة تبعد عن اللد مسيرة يوم ، مناخها لطيف . الحموي : المصدر نفسه – ج٥ – ص١١٢ .

[١٧٦] القلقشندي : صبح الأعشى – ج٤ – ص١٠٣ .

[١٧٧] الخليل : واسمها بيت حبرون وهي بلدة من جبل فلسطين ، وفيها قبر إبراهيم الخليل .

(النابلسي) : عبد الغني (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) مطبعة الإخلاص – مصر – ١٩٥٢ – ص٧٠ .

[١٧٨] هي مدينة من جند الأردن ، وقال القلقشندي :(إنها المدينة الوحيدة في فلسطين في عهده)

العمري : مسالك الأبصار – ص١١٨ / القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١٠٣ .

[١٧٩] بيسان : من جند الأردن ولها قلعة من بناء الفرنج ، وهي مدينة الغور .

الثالثة : تقع شمالي دمشق وتشمل على خمسة أعمال هي :

بعلبك [١٨٩] ، والبقاع البعلبكي ، والبقاع العزيزي [١٩٠] (نسبة إلى العزيز صلاح الدين الأيوبي) ،

وبيروت [١٩١] وصيدا [١٩٢] .

الرابعة : موقعها شرقي دمشق وتشمل خمسة أعمال هي : حمص [١٩٣] ، ومصياف [١٩٤] ، وقارة [١٩٥] ،

وسلمية [١٩٦] ، وتدمر [١٩٧] . ويضاف إليها بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودجلة [١٩٨] .

القلقشندي : المصدر نفسه – ج٤ – ص١٠٣ / العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين– ص٣٨ .

[١٨٠] هي مدينة من جند دمشق ، وهي في نهاية جبل الشيخ ، وفيها قلعة الصبيبة / القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١٠٣ .

[١٨١] هي شرق جنوب بانياس ، مقر الولاية تارة بقرية حان وتارة أخرى بقرية القنيطرة / القلقشندي : المصدر نفسه – ج٤ – ص١٠٤ .

[١٨٢] مدينة قديمة وبها قبر أيوب عليه السلام . العمري : مسالك الأبصار – ص١١٩ / القلقشندي : المصدر نفسه – ج٤ – ص١٠٥ .

[١٨٣] هي مدينة من أعمال دمشق من الإقليم الثالث . الحموي : معجم البلدان م ١ ، مادة أذرعات ص٨٨ .

[١٨٤] فيها قلعة عجلون بين الأردن وبلاد السراة ، وهي محدثة ، صغيرة المقدار .

(ابن شداد) : عز الدين محمد علي (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) تح : يحيى عبارة وزارة الثقافة – دمشق ١٩٧٨ – ج٣ – ص٨٦ .

[١٨٥] هي شرق أريحا، بلدة صغيرة ولها واد وأشجار وأرضية وبساتين . الحموي : المصدر السابق – ج١– ص٧٥ .

[١٨٦] صرخد : مدينة قديمة وقلعتها مبنية قبل وفاة نور الدين . الحموي : المصدر نفسه – ج٣ – ص٣٨.

[١٨٧] بصرى : هي مدينة حوران السفلى ، دخلها الرسول (ص) قبل بعثته / القلقشندي : المصدر السابق– ج٤ –ص١٠٧ .

[١٨٨] هي مدينة من أعمال دمشق في الإقليم الثالث ، وبها ولاية الحاكم .

العمري : مسالك الأبصار ص١٢١ / القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١٠٨ .

[١٨٩] مدينة قديمة البناء شمالي دمشق ، يقال إنها من بناء سليمان بن داود عليهما السلام ، لها قلعة عظيمة مثل قلعة دمشق . ابن شداد : الأعلاق ج٣ ص٤٢–٥٤ / القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ –ص١٠٩–١١٠.

[١٩٠] العمري : مسالك الأبصار ص١٩٠ / القلقشندي : المصدر السابق – ج١ – ص١١٠.

[١٩١] بيروت : تطل على البحر وعليها سور من حجارة ، وبها جبل فيه معدن حديد . تتصل بلبنان .

العمري : المصدر السابق ص١٩٠–١٩١ . / الحموي : معجم البلدان ج١ ص٢٨٥ .

[١٩٢] صيدا : عليها سور حجر ، وتنسب لرجل من ولد كنعان بن حام ، وهي ولاية جليلة واسعة .

ابن شداد : المصدر السابق – ج٣ – ص٩٨–١٠٠ / القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١١١ .

[١٩٣] مدينة فسيحة ولها سور ، وهي بين حلب ودمشق . الحموي : المصدر السابق – ج٤ – ص٣٠٢–٣٠٤ .

[١٩٤] بلدة جليلة ، ولها قلعة حصينة في لحف جبل اللكام الشرقي عن حماة وطرابلس . وهي قاعدة قلاع الدعوة. / الحموي : المصدر نفسه – ج٤ – ص١١٣–١١٤.

[١٩٥] قرية كبيرة قبلي حمص ، بينها وبين دمشق على منتصف الطريق . الحموي : المصدر نفسه – ج٣ – ص٦٩–٧٠ .

[١٩٦] بلدة من عمل حمص . بناها عبد الله بن صالح بن عبد المطلب ، وهي على طرف البادية ، بينها وبين حمص مرحلة .

الحموي : معجم البلدان – ج٢ ص٧٦–٧٧.

[١٩٧] مدينة بين القريتين والرحبة وهي مدينة شامية عراقية لاتصالها ببر العراق وبر الشام .

العمري : التعريف ص١٨٠ . القلقشندي : صبح الأعشى – ج٤ – ص١١٤.

[١٩٨] لمزيد من المعلومات حول نيابة دمشق وتقسيماتها راجع : العمري : مسالك الأبصار / العمري : التعريف بالمصطلح / القلقشندي : صبح الأعشى / العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين.

وتعد دمشق عاصمة هذه الأعمال كلها ، وفيها يقيم نائب السلطان ، ويرسل نواباً عنه وأمراء إلى هذه الأعمال عدا القدس ، فإن السلطان هو الذي يرسل إليها نائباً من قبله . وتعد نيابة دمشق أكبر وظيفة في الدولة المملوكية بعد الأتابيكية الكبرى بمصر .

أما عن النائب وكيفية تعيينه ودخوله دمشق فقد كان يعبر عنه في المكاتبات الرسمية بـ " كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس [١٩٩] " وهو يقوم فيها مقام السلطان وتكتب عنه التواقيع الكريمة[٢٠٠] والمراسم الشريفة ومعه يكون [٢٠١] نظر الجامع الأموي والبيمارستان النوري[٢٠٢] ، وهو سلطان مختصر ، وهو المتصرف المطلق في كل أمر ، ويستخدم الجند ويرتب الوظائف ، ويسمى ملك الأمراء ، وربما سمي أكابر الأمراء بملك الأمراء ، وإن حصلت المناقشة لا يستحقها إلا من هو بدمشق لأنه ليس بالشام قاعدة ملك سواها[٢٠٣] وقد شغل منصب نائب دمشق في العصر المملوكي الأول واحد وثلاثون نائباً [٢٠٤] .

بعضهم تولى النيابة مرتين مثل قبجق [٢٠٥] ، والأفرم [٢٠٦] ، وبعضهم ناب في دمشق لمدة طويلة من الزمن

مثل تنكز [٢٠٧] ، وبعضهم قام بحركة عصيان ضد السلطان في القاهرة [٢٠٨] وانتهت نيابة بعضهم بالعزل وبعضهم بالسجن مثل تنكز [٢٠٩] . وقد جرت العادة أن يسبق النائب إلى دمشق " متسلمه " الذي

---

[١٩٩] الكافل : من الألقاب المختصة بنائب السلطنة / (دهمان) : محمد أحمد (معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي) دار الفكر – دمشق – الطبعة الأولى – ١٩٩٠ – ص١٢٨ .

[٢٠٠] التوقيع = الإمضاء : حيث كان للسلاطين تواقيع خاصة بخواتيم يختمون بها الرسائل وكانت تسمى (الطغراء) . دهمان : المرجع نفسه – ص٤٩ .

[٢٠١] الناظر : من ينظر في الأموال ويتفقد تصرفاتها ويدفع إليه حسابها لينظر فيه ويدققه ، فيمضي ما يمضي ويرد الباقي . دهمان : المرجع نفسه – ص٩٢ .

[٢٠٢] هذا البيمارستان بناه نور الدين محمود زنكي في دمشق . ولم يُبنَ قبله ولا بعده مثله . ووصف ابن جبير هذا البناء عندما زار دمشق قائلاً: " القومة وبأيديهم السجلات المحتوية على أسماء المرضى والنفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية " / ابن جبير : رحلة ابن جبير – ص٢٢٢ / (ابن قاضي شهبة) بدر الدين (الكواكب الدرية في السيرة النبوية) تح : محمود زايد – دار الكتاب الجديد بيروت – ١٩٧١ – ص١٧ .

(خليل) : عماد الدين (نور الدين محمود وتجربته الإسلامية) دار القلم–دمشق–الطبعة الثانية ١٩٨٧ ص١١٢–١١٣ .

[٢٠٣] العمري : مسالك الأبصار ص١١١ / القلقشندي : المصدر السابق – ج١ – ص١٨٤ .

[٢٠٤] (ابن أيبك الصفدي) : خليل (أمراء دمشق في الإسلام) تح : صلاح الدين المنجد – دار الكتاب الجديد – بيروت – الطبعة الثانية – ١٩٨٣ – ص١٩٨–٢٠٠ .

[٢٠٥] الأمير قبجق سيف الدين المنصوري . تولى النيابة في أيام السلطان حسام الدين لاجين سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م ، ثم تولى نيابة حلب سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م . وبقي فيها إلى أن مات سنة ٧١٠هـ١٣١٠م / (ابن حجر العسقلاني) : أحمد بن علي بن محمد (الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة) تح: عبد الوارث محمد علي دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى – ١٩٩٧ ج٣ ص١٤٥–١٤٦ / دهمان : ولاة دمشق – ص٨٤ .

[٢٠٦] آقوش جمال الدين الأفرم ، تولى نيابة دمشق سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م . وكان فارساً بطلاً عاقلاً جواداً ، وكان خليقاً بالملك لما فيه من المهابة توفي ٧٢٠هـ/١٣٢٠م . (ابن آيبك الصفدي) خليل (الوافي بالوفيات) باعتناء س.ديدرينغ – دار فرانز شتانير بفيسبادن – ألمانيا – الطبعة الثانية بدون تاريخ – ج٩ – ص٣٢٦ / ابن حجر : المصدر السابق – ج١ – ص٢٣٢ .

[٢٠٧] تنكز بن عبد الله ، الأمير سيف الدين أبو سعيد الساقي الناصر . ولي نيابة دمشق في عهد الناصر محمد قلاوون من سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م حتى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م وكانت مدة حكمه ٢٨ ثمانية وعشرين عاماً ، كانت مليئة بالتطور الثقافي والصناعي والتجاري والمعماري / ابن كثير : البداية والنهاية ج١٤ ص١٦٧ / ابن آيبك : الوافي ج١٠ ص٤٢٠ / ابن حجر : الدر – ج١ –

كان يمهد له الأمور ، وكان أرباب الوظائف في مقدمة الذين يستقبلونه ثم يخلع عليه كل من القاضي الحنفي والشافعي ونائب القلعة والحاجب ثم يباشر الحكم بانتظار وصول النائب وعند اقتراب وصول النائب كان أهل دمشق يتهيئون لتلقيه " بالفواكه والحلاوات ، والمعمول وغير ذلك [٢١٠] " .

خامساً - الوظائف في نيابة دمشق المملوكية :

١ – الأمراء المماليك :

وهم من طبقة المماليك وكانت الوظائف التابعة لهذه الطبقة وهي ما تعرف باسم (الوظائف العسكرية أو وظائف أرباب السيوف) محتكرة من قبل المماليك ، وخاصة بهم ، ولا يجوز لأهل البلاد الدخول في السلك العسكري أو أن يكون من أرباب السيوف ، ولهؤلاء الأمراء وظائف عديدة هي :

١ – النائب : وقد سبق الحديث عنه .

٢ – الحاجب الكبير : وهؤلاء الحجاب في دمشق متعددون ، ويقال لرئيسهم (حاجب الحجاب) ويعبر عنه رسمياً بـ (أمير حجاب) ، ويعد رجل السلطان في دمشق ، ويقيم في دار العدل، وعند خروج النائب من دمشق كان حاجب الحجاب يحل محله ، وعند ورود مرسوم من السلطان بالقبض على النائب فإنه كان من ينفذ هذه العملية ويفعل ما يؤمر به من سجن وغيره. ويقوم بأمر البلد إلى أن يقوم نائب آخر . وقد يصل عدد الحجاب إلى ستة .

٣ – نائب القلعة : وهي نيابة مستقلة عن السلطنة ، ليس لنائب دمشق عليها كلام ، وكان متوليها – بمرسوم من الأبواب السلطانية – يكتب من ديوان الإنشاء الشريف . ويعد صاحب هذه الوظيفة من أخطر الموظفين على النائب ، فالقلعة هي بمثابة يد السلطان في دمشق ، ولم يحدث أن جمعت نيابة القلعة مع نيابة دمشق لرجل واحد في العصر المملوكي الأول . ووظيفة نائبها حفظ القلعة وصونها ، ولا يقوم بتسليم مفاتيحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه ، أو لمن يأمره السلطان بتسليمها ولنائبها . ومن مهمات نائب القلعة قراءة مراسيم السلطان ، وكان ينفذ فيها ما يصدر من عزل ، أو تولية أو اعتقال .

٤ – شد المهمات : وهي رتبة جليلة ، تتحدث في أمور الاحتياجات السلطانية ، وكانت هذه الوظيفة تسند إلى نائب السلطنة بدمشق ، وتارة إلى حاجب الحجاب وتارة إلى أمير آخر حسب رأي السلطان [٢١١] .

ص٣٠٨ . ولمزيد من الدراسات الحديثة : راجع (بهنسي) : عفيف (تاريخ الأمير تنكز في دمشق) – مجلة المعرفة – وزارة الثقافة – دمشق – العدد ٥٢٤ – أيار ٢٠٠٧ .

[٢٠٨] مثل الأمير علم الدين سنجر الحلبي . وقد سبقت الإشارة إليه في فقرة حركات التمرد والعصيان .

[٢٠٩] لمزيد من المعلومات حول النواب في دمشق المملوكية راجع : ابن آيبك : أمراء دمشق في الإسلام / دهمان : ولاة دمشق .

[٢١٠] (ابن طولون) محمد بن علي (مفاكهة الخلان في حوادث الزمان) تح : محمد مصطفى المؤسسة المصرية للتأليف – الطبعة الأولى –١٩٦٤ – ج٣ ص٢٩٣ / ابن طولون : إعلام الورى – ص١٠٠ / العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٣٠٥ .

[٢١١] القلقشندي : صبح الأعشى – ج٤ – ص١٩٠–١٩٥ / دهمان : معجم الألفاظ التاريخية – ص٢٣–٢٦ .

٥ – **نقابة القلعة** : وهي إمرة عشرة بمرسوم سلطاني .

٦ – **نقابة النقباء** : وهما نقيبان : أحدهما يكون لميمنة النائب والآخر للميسرة .

٧ – **الخزندارية** : ومهمتها الخلع والتشاريف السلطانية بالقلعة . وهم أربعة طواشية (خصيان) وبعضهم أعلى مرتبة من بعض ، وكل منهم له توقيع كريم من نائب السلطنة بدمشق على قدر رتبته .

٨ – **نقابة الجيش** : وفيها ثلاثة نفر ، وكان كبيرهم يطلق عليه نقيب النقباء ، ويكون أمير طبلخاناه . ويكتب لكل منهم توقيع كريم من نائب السلطنة بدمشق على قدر رتبته [٢١٢] .

٩ – **الشد** : لفظ اصطلح عليه في العصر المملوكي ، وصاحب هذه الوظيفة يقال له : شاد ، مضافاً إلى وظيفة، فيقال : شاد الدواوين ، شاد العُشر ، ومنها في ذلك العصر في بلاد الشام:

آ – شد الدواوين : وموضوعها التحدث في استخراج الأموال السلطانية ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم من النائب [٢١٣] .

ب – شد الأوقاف : ومهمتها التحدث عن أوقاف المسلمين ، وعادتها إمرة عشرة ، أو طبلخاناه ، ويكتب لمتوليها توقيع من النائب .

جـ – شد الزكاة : وموضوعاتها تجارة البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن ، وكان لهذه التجارة شأن عظيم ، وعادتها إمرة عشرة ، أو طبلخاناه ، ويكتب لمتوليها توقيع من النائب .

د – شد العُشر : ومهمتها أخذ العشر من التجارة التي يُأتى بها من بضائع الإفرنج ويسمى عُشرها مكسا (جمركاً) .

١٠ – **ولاية المدينة** : ومهمتها التحدث في أمر الشرطة ،وصاحبها أمير عشرة .

١١ – **المهمندارية** : ومهمتها تلقي الرسائل والرسل الواردين إلى النيابة من حكومة أخرى[٢١٤].

١٢ – **أمير آخورية البريد** : وموضوعها التحدث عن خيول البريد في دمشق ونواحيها ، وكان البريد خاصاً بالدولة ، ليس لأحد من الرعية سبيل إلى استعماله [٢١٥] .

١٣ – **تقدمة البريد** : ومهمتها التحدث عن جماعة البريد بدمشق .

٢ً – الوظائف الديوانية :

العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٣١٣–٣١٥.

[٢١٢] دهمان : المرجع السابق – ص١٥٢ .

[٢١٣] دهمان : المرجع نفسه – ص٩٥ .

[٢١٤] دهمان : المرجع نفسه – ص١٤٧ .

[٢١٥] القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١٩٢–١٩٣ .

١ – **كتابة السر** : ويسمى صاحبها " صاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس " وهي تضاهي كتابة السر بالديار المصرية في الرياسة ورفعة القدر وصاحبها مسؤول عن المراسلات ظاهراً، لكنه يطالع السلطان بكل ما خفي من أمور المملكة وما يحدث فيها ، (لعل النائب يخفيه عنه) [٢١٦] . وصاحبها يجتمع بالنائب في أوقات معينة ، ويحضر اجتماعات دار العدل ، ومن مهماته كتابة الغلات والمحاسبات والخرج والدخل . ويكون تعيين صاحبها من قبل السلطان .

٢ – **كتّاب الدست** : وهم الذين يجلسون معه كاتب السر في دار العدل ، ويقرؤون القصص على نائب دمشق ويوقعون عليها بأمره [٢١٧] .

٣ – **كتّاب الدرج** : ووظيفتهم مكاتبة الولايات والمكاتبات ونحوها ، ويشاركهم كتاب الدست في بعض الأحيان. وكتاب الدست والدرج فيكون تعيينهم من قبل النائب .

٤ – **نظر الجيش** : مهمتها التحدث في الإقطاعات ، فيكتب ناظر الجيش ما يعينه النائب للمستحقين لها مما توافر منها عن أصحابها بالموت نحوه . مثل أن يمنع أحد الأمراء من إقطاعه لسبب من الأسباب أو ينقص قسماً من إقطاعه وما يعينه النائب يكتب بديوان الجيش[٢١٨]. وناظر الجيش يتم تعيينه من قبل السلطان ، ومعاونوه يتم تعيينهم من قبل النائب .

٥ – **نظر المهمات الشريفة** : وهي وظيفة جليلة ، يكون متوليها من أرباب القلم ، رفيقاً لشاد المهمات، ومن أرباب السيوف ، الذي يكون تارة نائب دمشق ، وتارة يكون الحاجب بها وغيره .

٦ – **نظر الخاص** : موضوعه التحدث فيما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وغيرها من الأغوار، وقد يضاف نظرها إلى الوزير [٢١٩] .

٧ – **نظر الخزانة** : ويعبر عنها بالخزانة العالية ،وصاحبها يتحدث في أمر التشاريف والخلع، وما معها ، وهي وظيفة يوليها النائب بتوقيع كريم [٢٢٠] .

٨ – **نظر البيمارستان** : وهي وظيفة مضافة إلى نائب دمشق ، ولكن النائب يفوض التحدث فيها لمن يختاره من أرباب الأقلام .

٩ – **نظر الجامع الأموي** : وهو للنائب أيضاً ، ولكن يعطى في الغالب لقاضي القضاة الشافعي .

١٠ – **نظر خزائن السلاح** : وموضوعه التحدث عن كل ما يستعمل من السلاح السلطاني ، ويولى صاحب هذه الوظيفة بتوقيع كريم عن النائب .

١١ – **نظر البيوت** : وهو نظر جليل يشارك صاحبه الاستدار فيما يتحدث به ، وهذه الوظيفة اسم لغير مسمى، لعدم وجود البيوت السلطانية بدمشق . ولكنها ترمز إلى دمشق بوصفها العاصمة الثانية للدولة المملوكية .

---

[٢١٦] دهمان : معجم الألفاظ – ص١٢٧ .

[٢١٧] دهمان المرجع نفسه – ص١٢٧ .

[٢١٨] دهمان : المرجع نفسه – ص١٥٠ .

[٢١٩] القلقشندي : صبح الأعشى – ج٤ – ص١٩٩–٢٠٠ . / العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٣٢٠–٣٢١ .

[٢٢٠] دهمان : المرجع السابق – ص١٥٠ .

١٢ – **نظر بيت المال** : ومهمته حمل حمول المملكة إلى بيت المال ، والتصرف فيه تارة قبضاً وصرفاً ، وتارة بالتسويغ محضراً وصرفاً ، ولا يلي هذه الوظيفة إلا ذوو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة .

١٣ – **نظر ديوان الأسرى** : وهو التحدث في الأوقاف التي تفدى بها الأسرى .

١٤ – **نظر الأسواق** : وهو التحدث عن سوق الرقيق والخيل ونحوها .

١٥ – **نظر مراكز البريد** : ومتوليها يكون رفيقاً لأمير أمور البريد .

كما أن هناك وظائف أخرى تسمى وظائف أهل الصناعات كرئاسة الطب ورئاسة الكحالين ، ورئاسة الجراحين (الجرائحية) [٢٢١] .

٣ً – الوظائف الدينية :

آ – الوظائف الإسلامية وهي :

١ – **قضاة القضاة** : وهي أرفع الوظائف الدينية قدراً وأجلها رتبة .

وموضوعها : التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها ، والقيام بالأوامر الشرعية والفصل بين الخصوم . وفي دمشق أربع قضاة من المذاهب الأربعة أعلاهم الشافعي ، وهو المتحدث عن الموازع الحكمية وأكثر الوظائف ، ويختص بتولية النواب في جميع نواحي دمشق وأعمالها حتى في غزة ، ويليه في الرتبة الحنفي ، ثم المالكي ، ثم الحنبلي .

٢ – **قضاة العسكر** : وموضوعه أن يحضر قاضي العسكر بدار العدل مع القضاة الأربعة ، ويسافر مع النائب إذا سافر ، وقضاة العسكر بدمشق : شافعي ، وحنفي ، وليس فيها مالكي ولا حنبلي . وجلوسهم في دار العدل دون القضاة الأربعة متقدمي الذكر .

٣ – **إفتاء دار العدل** : وبها مفتيان : شافعي وحنفي لا غير.

٤ – **وكالة بيت المال** : مهمتها مبيعات بيت المال ومشترياته ، من أراضٍ ودور وغير ذلك ، والمعاقدة على ذلك وما يجري هذا المجرى ، وولايتها من قبل النائب .

٥ – **نقابة الأشراف** : موضوعها التحدث على ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله (ص) ، وهم المراد بالأشراف في الفحص عن أنسابهم ، والتحدث عن أقاربهم ، والأخذ على يدي المعتدي عليهم ، ونحو ذلك . وولايتها من قبل النائب .

٦ – **مشيخة الشيوخ** : موضوعها التحدث عن جميع الخوانق والفقراء الصوفية في دمشق وأعمالها ، والعادة أن يكون متوليها شيخ الخانقاه السمسياطية بدمشق ، وولايتها من النائب .

٧ – **الحسبة** : ومهمتها التحدث عن الأمر والنهي ، والتحدث عن أهل المعايش والصنائع ، والأخذ على يد الغاش في معيشته وصناعته ، وإليه ولاية نواب الحسبة بجميع أعمال دمشق ، وهي كدوائر البلديات في عصرنا .

---

[٢٢١] القلقشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١٩٧–١٩٨ ./ العلبي : المرجع السابق – ص٣٢١ .

٨ – **الخطابات المضافة إلى نظر النائب :** فيولى فيها بتواقيعه ، أما خطابة الجامع الأموي فتكون من السلطان لما لها من شأن عظيم .

٩ – **التداريس :** على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والقراءات والطب ، وتختلف باختلاف من يتولاها في الرفقة ، وولايتها عن النائب [٢٢٢] .

ب – وظائف رؤساء أهل الذمة :

كان في دمشق (بطريرك) للمسيحيين الملكانية ورئيس لليهود القرائين والربانيين ، ورئيس ليهود السامرة مقيم بنابلس (المدينة المعظمة عندهم) وله نائب عنه مقيم بدمشق . وهؤلاء الرؤساء تنتخبهم طائفتهم أولاً ، ثم يوليهم السلطان بنفسه أو بواسطة نائب دمشق[٢٢٣] .

٤ً – وظائف أرباب الصناعات :

ومن هذه الوظائف التي وجدت في العصر المملوكي كانت هناك :

رئاسة الطب ورئاسة الكحالين ، ورئاسة الجراحين ، ويكلف رؤساؤها بتوقيع كريم عن النائب. وأما مهتارية البيوت ، فتخص نائب السلطنة لكونه يقوم مقام السلطة [٢٢٤] .

٥"– نظام البريد :

نظراً لاتساع الدولة المملوكية وترامي أطرافها يتبادر إلى الذهن هذا السؤال :

كيف استطاعت الدولة المملوكية تهيئة وصول الأخبار والبريد بين النيابات والمركز في القاهرة ؟ .

الحقيقة أن الدولة المملوكية تمكنت من تهيئة وسيلتين لإرسال الرسائل وكانت هذه العملية تعرف باسم المراسلات بين بلاد الشام وقاعدة السلطنة . وكان البريد ينقل على طريقتين : براً وجواً ، وذلك بواسطة الخيل وحمام البطائق (الزاجل) . والمسؤول عن هذا النظام هو ديوان البريد الذي يشرف على نظام المراسلات في النيابة وديوان البريد في قاعدة السلطنة . وسنبدأ الحديث عن الطرق البرية :

الطرق البرية :

تحدثت المصادر المملوكية عن الطرق التي كان يسلكها البريد من بلاد الشام إلى مصر وأوضحت أن هذا الطريق كان على النحو الآتي :

آ – من القاهرة إلى بلاد الشام :

خط القاهرة – دمياط – الفرات – وهو أطول الخطوط وأكثرها مراحل ، لأنه يمر بثلاث عشرة محطة قبل أن يصل إلى غزة ، ويتفرع من غزة خطان الأول إلى الكرك والآخر إلى صفد ومنها إلى حطين، ومن غزة إلى دمشق حيث توجد هناك خمس عشرة محطة أولها جنين وآخرها الكسوة ، وبعد أن

---

[٢٢٢] القلشندي : المصدر السابق – ج٤ – ص١٩٩–٢٠٠ .

[٢٢٣] القلقشندي : المصدر نفسه – ج٤ – ص٢٠١ .

[٢٢٤] القلقشندي : المصدر نفسه – ج٤ – ص٢٠٠

يصل البريد إلى دمشق ينطلق أحد عشر خطاً إلى النيابات الأخرى، أولها حمص وآخرها حلب ومنها تتفرع ستة خطوط إلى الولايات التابعة لها .

وكان على الدولة تهيئة حماية الطرق البرية عن طريق العربات المنتشرة بين الولايات والنيابات التابعة ، خوفاً من تعرض رجال البريد للسرقة والقتل من قبل اللصوص وقطاع الطرق. وعلى طول خطوط البريد كان هناك كثير من المحطات على مسافات لا تزيد إحداها على ثمانية وعشرين ميلاً . وزودت هذه المحطات بما يحتاج إليه الموظفون والخيل من ماء وطعام وعلف ومبانٍ لسكن الموظفين .

ومن هذه المحطات يستطيع البريديون أن يبدلوا جيادهم بجياد أخرى ، ولكل محطة من محطات البريد عدد من الخيل تعرف باسم "خيل البريد" ويهتم بها موظف "البريدي" [٢٢٥] .

– لم يقتصر المماليك على استخدام الخيول في نقل البريد بل استخدموا " الحمام الزاجل " وكان له براجون يعنون به ويدربونه [٢٢٦] ، فيأخذونه بعيداً عن برجه ويتركونه حتى يعود وكانت له محطات مشابهة لمحطات البريد البري ، ولكن المسافات بين محطات الحمام الزاجل تكون أطول من المسافات بين البريد البري إلى ثلاثة أمثال ، وخصص لكل محطة عدد من الحمام يعنى بشؤونه عدد من الموظفين المختصين ، وقد نظم نقل البريد في نيابة دمشق المملوكية بواسطة الحمام الزاجل حسب الخطوط الآتية :

١ – بين القاهرة ودمشق عن طريق غزة والقدس .

٢ – بين دمشق وبَرْثة [٢٢٧] على نهر الفرات .

٣ – بين دمشق وصيدا وبيروت وطرابلس .

٤ – بين غزة والكرك على البحر الميت .

٥ – بين دمشق وبعلبك .

وكان الحمام يقطع المسافة بين المحطة والتي تليها – وهي ستة أميال تقريباً – في ثلث الوقت الذي يقطعها فيه الخيل .

وقد أدى البريد بنوعيه : البري والجوي خدمات جليلة لسلطنة المماليك ، واستطاع كل سلطان أن يتصل بولاته ونوابه بفضل هذا الحمام الذي كان يرافقهم أينما ساروا [٢٢٨].

---

[٢٢٥] حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية ص٢٨٤–٢٨٥ .

[٢٢٦] القلقشندي : صبح الأعشى – ج٤ ص٤٣٢–٤٣٩ / ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك –ص١١٦–١١٧ .

[٢٢٧] بَرْثة : موضع بنواحي الكوفة . / الحموي : معجم البلدان م١ مادة برثة – ص٣٧٢ .

[٢٢٨] حسن : المرجع السابق – ص٢٨٧ .

النتـــــائج :

سارت الدولة المملوكية على النظام الإداري الذي ورثته عن الأيوبيين، وقام سلاطينهم ببعض الإضافات عليه ، تمكنوا من خلاله السيطرة على الوضع الإداري في دمشق مما مكننا القول :

١ – إن السلاطين المماليك ، قد اهتموا بإدارة بلاد الشام اهتمامهم بإدارة مصر ، وولاياتها ، لأهمية بلاد الشام طبيعياً واقتصادياً وبشرياً .

٢ – كانت حكومة دمشق المملوكية صورة مصغرة عن حكومة القاهرة لا تختلف عنها إلا بعدم وجود بعض الوظائف الخاصة بالسلطان فيها ، وفيما عدا ذلك لا نكاد نلمح اختلافات ذات شأن .

٣ – كان النائب في دمشق يقف على رأس الحكومة ، يعاونه نائب القلعة ، وعدد من الموظفين الدينيين ، والديوانيين ، والعسكريين .

٤ – تم للنائب تعيين أصحاب الوظائف قليلة الأهمية ، أما الوظائف الأكثر أهمية ، فأمرها يعود إلى السلطان .

٥ – كثيراً ما ترقى نواب دمشق واستلموا السلطنة في القاهرة .

٦ – خشي السلاطين كثيراً من نواب بلاد الشام لذلك عملوا باستمرار على نقلهم أو عزلهم وأحياناً حبسهم .

٧ – طوّر المماليك نظام البريد بنوعيه (البري والجوي) لإيصال الأوامر السلطانية من قاعدة السلطنة إلى بقية النيابات ، ومن النيابات إلى السلطنة .

٨ – إن المماليك لم يأتوا بشيء جديد في التقسيم الإداري لبلاد الشام بل حافظوا على التقسيم الذي كان في العصر الأيوبي . وكانت تعديلاتهم على الحدود بين النيابات لا غير.

٩ – النيابات في العصر المملوكي لم تنشأ في وقت واحد أو سنة واحدة ، وذلك بسبب طبيعة انتشار النفوذ المملوكي على بلاد الشام الذي اتصف بالتدرج مما جعل ظهور التقسيم الإداري لبلاد الشام في عصر المماليك يأتي على مراحل .

١٠ – لقد تبع النيابات المملوكية في بلاد الشام عدد من النيابات الصغرى والولايات .

١١ – كان لكل نائب من نواب الشام بيوت خدمة مثل بيوت السلطان كالشراب خانانة ، والفراش خانانة ، والطبلخانانة .

١٢ – وجد في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، وكان أرفعهم رتبة الشافعي يليه الحنفي فالمالكي فالحنبلي .

وهكذا ظل سلطان المماليك هو القوة الكبرى التي تسيطر على مصر والشام ، ويشرف إشرافاً تاماً على سير الأمور في مختلف أرجاء الدولة المملوكية الواسعة . وظلت النيابات الشامية قوة يخشاها كل سلطان يلي السلطنة المملوكية . فالسلطان المملوكي قبل أن يفكر في الوصول إلى السلطنة عليه أولاً العمل على أن يكون نواب الشام من أتباعه وأنصاره .

سادساً ـ الحياة الاجتماعية في دمشق المملوكية :

لم يتحرر المؤرخون الذين عاشوا في مصر وبلاد الشام ، في عصر المماليك في كتاباتهم من تقاليد المدرسة التأريخية العربية الإسلامية ، سواء من حيث المنهج أم من حيث الأهداف ، ذلك أن هؤلاء المؤرخين يعنون في كتاباتهم بأخبار السلاطين والملوك والأمراء والأعيان ، وسجلوا كل ما يتعلق بهذه القوى المسيطرة على شؤون المجتمع والمتحكمة في مقدرات البلاد، في حين أغفلوا كل ما يتعلق بحياة الطبقات الأخرى وشؤونها ، ويتضح ذلك من أسماء الكتب التاريخية في عصر المماليك مثل " الروض الزاهر في سيرة السلطان الملك الظاهر " لابن شداد " و" تشريف الأيام والعصور في سيرة السلطان الملك المنصور " لا بن عبد الظاهر ، و" الجوهر الثمين في سيرة الملوك و السلاطين " لابن دقماق ، و" النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " لا بن تغري بردي ، و" السلوك لمعرفة دول الملوك " للمقريزي . وهنا نتساءل : ما هو شأن الأمة العربية والعالم الإسلامي ؟ ولاسيما أن المنطقة التي تحرّك عليها المماليك هي أرض عربية وأمصار عربية .

فمن كان يقوم بالإنتاج الزراعي والحرفي والمهني والعمراني والخدمات ؟ ومن الذي قام بالنتاجات العلمية والفلسفية والمعرفية ؟ أليس سكان البلاد هم الذين من شكّلوا مادة حضارية وإشعاعية سطعت لبضعة قرون في الأرض العربية وفي البلاد المفتوحة .

ومن هنا يجب إعطاء الدراسات الاجتماعية والفكرية الماضية أهمية خاصة . لإعادة تركيب الماضي بكل أبعاده ، بما في ذلك التداخل بين السياسة والاجتماع والاقتصاد . " لأن الزمان يكتسب فعاليته ويمر بتحولات طويلة أو متقطعة ، أو يستمر تراتيباً ، ومن خلال الفعاليات البشرية ، ومما يعانيه الإنسان في مجتمعه وبيئته[٢٢٩] " .

ولابد في دراسة التاريخ الاجتماعي من تحديد الفئات الاجتماعية من حيث مستوياتها وتحديد الظواهر الاجتماعية التي تخضع لها ، ولابد من إلقاء نظرة على بنية العلاقة بين الحكام وفئات الشعب لما لذلك من أثر مهم في الدينامية الاجتماعية .

كان المجتمع المملوكي طبقياً . وكانت هذه الفئات (الطبقات) متفاوتة من حيث الدخل والطمأنينة، والاستقرار واشتغال المناصب الحكومية والدينية والاقتصادية والاجتماعية .

وعلى هذا قسّم المقريزي المجتمع المملوكي ، بوجه عام ، إلى سبع فئات :

* – أرباب الدولة .
* – مياسير الناس من التجار والفقهاء والمحدثين .
* – متوسطو الحال من التجار والباعة وأصحاب المعاش والسوقة .
* – سكان الأرياف والقرى .

---

[٢٢٩] (شرف) : جان (الإيديولوجية) منشورات الجامعة اللبنانية ، بيروت – ١٩٦٦ – ص ١٠٠ .

* – أرباب الصناعات والحرف البسيطة .
* – المعدمون [٢٣٠] .

هذا التوزيع العام الذي أورده المقريزي يشمل المجتمع المملوكي كله ، أما في المدن ولاسيما دمشق ، فيمكن اعتماد تفريع آخر ينبثق من توزيع المقريزي يأخذ بالاعتبار خصوصية المدينة والتجانس الاجتماعي الأكثر شمولاً .

كان سكان دمشق يتألفون من غالبية عربية كبرى ، إضافة إلى عدد من أجناس مختلفة وفدت إليها عبر تاريخها مثل المغاربة والأندلسيين من شمال أفريقيا خلال العصر الفاطمي ، والتركمان في العصر السلجوقي ، والأكراد في العصر الأيوبي ، واستمروا يشكلون أقلية [٢٣١] .

هذا إضافة إلى الشعوب المغلوبة من المناطق المجاورة خاصة تلك التي تعرضت للغزو المغولي ولاسيما العراق ، كما لجأ إلى دمشق طائفة كبيرة العدد من المغاربة لأسباب علمية[٢٣٢].

ويمكننا تقسيم سكان دمشق في العصر المملوكي إلى أربعة أقسام هي :

١ – الطبقة العسكرية الحاكمة . ٢ – الأعيان .

٣ – العامة . ٤ – الزعر .

١ – الطبقة العسكرية الحاكمة :

شكل السلطان وأمراؤه وأجناده طبقة عسكرية حاكمة منغلقة عن الشعب . وحدد الانتماء إليها بشروط لم تتوافر في السكان الأصليين : كالعرق ، أي أن يكون مولوداً خارج الأراضي المملوكية في الشرق العربي والإسلامي ، وبالتحديد في السهوب الآسيوية الأوروبية بين آسيا الوسطى والبلقان[٢٣٣] والبحر الأدرياتيكي ، والرق [٢٣٤] ، وإجادة اللغة التركية لأن المماليك كانوا يتحدثون بالتركية في اجتماعاتهم ومجتمعاتهم . ومن مميزات الطبقة العسكرية الحاكمة اقتناء الرقيق وركوب الخيل التي لم يجز ركوبها لغيرهم [٢٣٥] .

---

[٢٣٠] (المقريزي) : تقي الدين أحمد (إعانة الأمة بكشف الغمة) تح : محمد مصطفى زيارة ، جمال الدين الشيال – القاهرة – ١٩٤٠– ص ٧٢– ٧٣ .

[٢٣١] (زيادة) : نقولا (دمشق في عصر المماليك) مؤسسة فرانكلين للطباعة – بيروت ونيويورك – الطبعة الأولى – ١٩٦٦ – ص١٣١ .

[٢٣٢] ابن جبير : الرحلة – ص٢٢٧ .

[٢٣٣] القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٤٧٢ .

[٢٣٤] لم يكن الرق شرطاً لدخول الفرد إلى الطبقة العسكرية الحاكمة إلا في أحيان نادرة مثل إنعام السلاطين على أولادهم أحياناً ، أو على أولاد الأمراء الكبار أحياناً أخرى . / ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٤ ص٩٩–١٠٠ / ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ص٢٢٧ . وج٢ ص٥.

[٢٣٥] (ضومط) : أنطوان (الدولة المملوكية التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري) – دار الحداثة – الطبعة الثانية – بيروت – ١٩٨١ ص٨٨ .

وعاش في دمشق عدد كبير من أرباب السيوف (الطبقة العسكرية) كالنائب ونائب القلعة والموظفين العسكريين – وقد سبق الحديث عنهم . وهكذا نشأ نظام عسكري بيروقراطي لتلبية متطلبات السلطان من جهة ولتلبية حاجات النائب الذي كان مستقلاً إلى حد بعيد من جهة ثانية .

وتقاسم هؤلاء جميعهم – إلى جانب وظائفهم الأساسية – الأراضي الزراعية بنيابة دمشق إقطاعاتٍ كلٌّ على قدر الوظيفة التي يشغلها ، فضلاً عن المعاصر المتنوعة والطواحين وما إلى ذلك من المرافق الاقتصادية. وقد ارتبطت بهم فئات المجتمع بطريقة مباشرة ولاسيما من استُخدم من المتعممين في الإدارة ، وأحياناً أخرى غير مباشرة .

وكانت تلك العلاقات فوقية لصالح الطبقة العسكرية الحاكمة . وقد أثر الصراع بين أفراد هذه الطبقة في تطور الحياة الاجتماعية الدمشقية ، ناهيك بنهمها منقطع النظير إلى المال وهو ما اقتضى من الفئات الشعبية على مختلف مستوياتها تلبيته [٢٣٦] .

وعلى الرغم من انتماء أفراد الطبقة العسكرية الحاكمة بدمشق إلى رجال السيف ، فإنهم لم يكونوا متجانسين من حيث وظائفهم وانتماءاتهم ، فبعضهم ارتبط بالسلطان مباشرة ، وبعضهم الآخر بنائب المدينة ، مما أدى إلى تمايز وظيفي ، حتى إن بعضهم استغل ارتباطه بالسلطان وتجاوز كل الحدود .

إن ذلك كله جعل الفئة العسكرية الحاكمة بدمشق وحدات شبه مستقلة ، ومرتبطة في آن بغيرها من حيث الوظيفة ونمط الحياة العام مع الأخذ بالاعتبار التمايز الإداري والوظيفي الذي سبق الكلام عليه .

وتحدثنا المصادر المملوكية عن الثراء الفاحش الذي حققته هذه الطبقة ، إذ بلغت قيمة أموال نائب الشام التي صادرها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، حوالي مليون ونصف المليون من الدنانير الذهبية [٢٣٧] . وقد أحصي ما تركه (تنكز) الذي حكم الشام ثماني وعشرين سنة فبلغ مليونين وسبع مائة ألف دينار وسبع مائة وثلاثين ألف درهم فضي فضلاً عن المجوهرات [٢٣٨] . وأربعة آلاف ومائتي رأس ماشية [٢٣٩] .

وهكذا انفصل رجال السيف اجتماعياً عن أبناء البلاد بنظمهم وعاداتهم وأخلاقهم وممارساتهم التي جاءت غالباً مجحفةً بحق الرعية ، وأصبحوا فئة اجتماعية سياسية عسكرية مغلقة عن الدمشقيين ، وهذه الظاهرة كانت تخول بما أجازه القانون تباعاً لأفرادها بالاختلاط بالدمشقيين ضمن حدود ضيقة ، دفعت بعض السكان إلى أن يحذوا حذوهم ، وإن جاء ذلك مخالفاً للقانون ، كما تأثر السكان ببعض العادات المملوكية [٢٤٠] .

٢ – الأعيـان :

---

[٢٣٦] (ضومط) : أنطوان (دمشق الشام – على عهد الدولة المملوكية الثانية) المؤتمر الدولي السادس لبلاد الشام – دمشق ٢٠٠١ ص٣٩٨ .

[٢٣٧] ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة – ج٩ – ص١٥٣ .

[٢٣٨] ابن حجر : الدرر ج١ ص٣١١ / (المدني) : سليمان (هؤلاء حكموا دمشق) دار المنارة – دمشق – الطبعة الأولى –٢٠٠٦ – ص١٠٤–١٠٥ .

[٢٣٩] بهنسي : تاريخ الأمير تنكز – ص٤٢ .

[٢٤٠] ضومط : دمشق الشام – ص٤٠١ .

أولاً : رجال الدين المسلمون :

كان رجال الدين المسلمون صمام أمان في المجتمع الإسلامي ، لأنهم احتلوا المنزلة الأرفع فيه ، وظل الناس ينظرون إليهم بإكبار حتى وقتنا الحاضر . وقد تسرب إلى رجال الدين الفساد ، وجروا وراء مصالحهم الذاتية ، بخضوعهم لرغبات الطبقة العسكرية وتنفيذهم مآربها على حساب الشعب ، أما أبرز الوظائف الدينية فكانت :

آ – **قضاة القضاة :** عرفت دمشق – كما أشرنا سابقاً – أربعة قضاة تبعاً للمذاهب الإسلامية الأربعة . وكان أرفعهم الشافعي [٢٤١] وكانت مهمته الإشراف على دور الأيتام والأوقاف التابعة لها ، والمدارس إما للتدريس فيها أو الإشراف عليها ، وهو الذي يثبت النائب في الشام . وكانت له رئاسة الإدارة القضائية ، والفصل بين الخصوم ، وتنفيذ الأوامر الشرعية [٢٤٢] . كما توجب عليه إفهام نائب دمشق الصحيح من الأحكام وأصول الشريعة لئلا يقع في الخطأ ، كون النائب صاحب ولاية المظالم ، ويجهل أحياناً كثيرة اللغة العربية قراءة وكتابة ، وبالتالي القواعد الشرعية وأحكامها [٢٤٣] . وكان من المفترض أن يختار أهل كل مذهب قاضي قضاتهم بعد موافقة السلطان [٢٤٤] ، ولاسيما بعد أن صارت المناصب القضائية تشرى بالرشوة [٢٤٥] ، وغدت الأحكام تصدر بالرشوة . وتمكن بعض القضاة من جمع أموال طائلة بطرق مشبوهة . من دون أن يخجلوا بل إن بعضهم راح يتباهى بسطوته غير آبه بتهكم الناس ، وغير مكترث بأحكام الشريعة ، فاحتقره زملاؤه والناس كلهم [٢٤٦] .

غير أن هذا الحال لم يكن ينطبق على كل القضاة ، بل إن بعض القضاة كان عندهم صلاح وأعمال الخير والاجتهاد بتلاوة كتاب الله والإكثار من الصلاة والتفقه بالأحاديث النبوية الشريفة ، كما مارس بعضهم ضغوطاً على الطبقة العسكرية الحاكمة بدمشق لإطلاق من اعتقل ظلماً وعدواناً، أو لمن اعتقل في أثناء الصراع بين الأجناد المماليك والسكان[٢٤٧].

---

[٢٤١] (ابن كنان) : محمد بن عيسى (المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية) تح : حكمت إسماعيل – وزارة الثقافة – دمشق –١٩٩٣ – ج٢ – ص١٦–١٧

[٢٤٢] (الخالدي) : مجهول الاسم الأول (المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء) تح : خليل شحادة – رسالة دكتوراه – جامعة القديس يوسف – بيروت – ١٩٨٨ – ص٢٧٣ .

[٢٤٣] (السبكي) : تاج الدين (معيد النعم ومبيد النقم) دار الحداثة – بيروت – ١٩٨٣ – ص٥٦ .

[٢٤٤] (البصروي) : علي بن يوسف (تاريخ البصروي صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك) تح : أكرم العلبي – دار المأمون – دمشق – ١٩٨٨ – ص١٣٦ .

[٢٤٥] (ابن طولون) : شمس الدين محمد (الثغر البسام في ذكر من تولى قضاء الشام) تح : صلاح الدين المنجد – دمشق – ١٩٥٦ ص١٣٠–١٦٥–٢١٩–٢٥٥ .

[٢٤٦] (ابن طولون) : شمس الدين محمد (نقد الطالب لزغل المناصب) تح : محمد دهمان – خالد دهمان – دار الفكر المعاصر – بيروت – ١٩٩٢ ص٤٥ – البصروي : المصدر السابق – ص١٧٤ .

[٢٤٧] لمزيد من المعلومات راجع (نصار) : أندريه (العامة بدمشق المملوكية) رسالة دبلوم دراسات عليا – الجامعة اللبنانية – كلية الآداب – الفرع الثاني – ١٩٧٧ .

ولم يكن هذا المنصب حكراً على أبناء دمشق ، بل شغله عدد من المغاربة وكانوا على سيرة حسنة [٢٤٨] .

ب – مفتو دار العدل : ومن مهامهم حسن تطبيق الشريعة الإسلامية ، وكان عددهم بوجه عام: اثنين شافعي وحنفي ، ويتم تعيينهما من قبل السلطان [٢٤٩] .

وقد قام رجال الدين ، إضافة إلى وظائفهم الشرعية ، بدور مهم جداً على صعيد الحياة اليومية والدينية، إذ كان لبعضهم أنصار في توجههم الديني خصوصاً من سلك طريق الصوفية، بحيث كثر هؤلاء الأنصار وانقادوا إلى تدابير رجال الدين ، الذين مارسوا ضغوطاً كبيرة على أهل السلطة لإحقاق الحق ، الذي كان يتنافى أحياناً مع مصالح السلطة ، وبالتالي شكلوا إزعاجاً حقيقياً لها [٢٥٠] .

وقد كان لرجال الدين دوراً هاماً في المجال العلمي. سنركز الدراسة عليه في الفصول اللاحقة.

ثانياً : رجال الدين المسيحيون :

إن الكنيسة المسيحية هرمية ، تتدرج الرتب فيها من أعلى إلى أسفل على النحو الآتي :

١ – البطريرك : وهو صاحب أعلى سلطة ، يأتمر بأمره أصحاب الرتب الأخرى وعامة المسيحيين ، وهو المسؤول عن رعاياه بدمشق أمام النائب [٢٥١] .

٢ – الأسقف : ويأتي بعد البطريرك .

٣ – المطران : وهو المسؤول عن المسيحيين في ناحية جغرافية معينة ومحدودة ، ويمارس فيها سلطة قضائية .

٤ – الكهنة : الذين رتبهم القلقشندي كالآتي : القسيس ، والجاثليق ، والشماس [٢٥٢] . إن هذا الترتيب الكنسي ينطبق على طائفتي اليعاقبة [٢٥٣] والملكيين [٢٥٤] معاً .

ويبقى السؤال : هل كان هؤلاء فئة متميزة عن السكان ؟

تصعب الإجابة على ذلك نظراً لقلة المعلومات التي وفرتها لنا المصادر التي اطلعنا عليها ، والمرجح – بما أن المسيحيين كانوا يعيشون في أحيائهم الخاصة ، ويتمتعون بنظمهم الخاصة أيضاً – أنهم فئة اجتماعية متميزة ببعض وجوهها عن الفئات الاجتماعية الإسلامية ، وقد شاركوا المسلمين الدمشقيين

---

[٢٤٨] (زعرور) : إبراهيم (القضاة الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام في عصر المماليك)– مجلة دراسات تاريخية – دمشق – العدد ٥٣–٥٤ – ١٩٩٥ – ص٧٣–٧٤ .

[٢٤٩] الخالدي : المصدر السابق ص٢٧٣ / ابن كنان : المصدر السابق – ج٢ – ص١٧ .

[٢٥٠] نصار : العامة – ص٣٦٥–٣٦٤ .

[٢٥١] الخالدي : المقصد الرفيع – ص٢٧٥ / القلقشندي : صبح الأعشى – ج٢ ص٤٧٣ .

[٢٥٢] القلقشندي : المصدر نفسه – ج٥ – ص٤٧٣–٤٧٤ .

[٢٥٣] اليعاقبة : أصحاب يعقوب ، قالوا بالأقانيم الثلاثة –. ومنهم من قال : إن المسيح هو الله ومنهم من قال : انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح . (الشهرستاني) : محمد عبد الكريم (الملل والنحل) تح : جميل صدقي العطار – دار الفكر – بيروت – الطبعة الأولى – ٢٠٠٥ ص١٨٢–١٨٣ .

[٢٥٤] الملكيين : هم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم ، ومعظم الروم ملكانيين . وقالوا : إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الماء الخمر أو اللبن . الشهرستاني : المصدر نفسه – ص١٧٩–١٨١ .

احتفالاتهم وأعيادهم، كما شاركهم المسلمون احتفالاتهم[٢٥٥]. وقد عبر أحد المؤرخين المعاصرين عن ذلك بقوله : (قلما مضى شهر من شهور السنة طوال عصر المماليك دون أن تشهد البلاد عيداً دينياً .... إلا واشترك في إحيائها المسلمون والمسيحيون من أهل البلد [٢٥٦]) . وطلب منهم ارتداء اللون الأزرق للظهور بهيئة مميزة عن باقي فئات الشعب بشكل ملزم ، ومارسوا حريتهم الدينية والاحتفال بأعيادهم ، وبناء دور معابدهم ، وترميمها ، ومشاركتهم بالحياة الاقتصادية والعلمية ، وكان واجبهم تجاه الدولة هو الطاعة ودفع الجزية مقابل المحافظة عليهم وعلى أولادهم وأعمالهم من قبل الدولة [٢٥٧].

ثالثاً – رئيس اليهود :

وهو المسؤول بوجه عام عن طائفتي اليهود القرائين والربانيين [٢٥٨] أما السامرة [٢٥٩] ، فكان لهم نائب رئيس بدمشق وهو المتحدث باسمهم [٢٦٠] ، وكان وضعهم الاجتماعي مشابهاً إلى حد بعيد وضع المسيحيين .

رابعاً – الأعيان الآخرون :

لتحديد التفرع الاجتماعي ضمن فئة الأعيان لا بد من اعتماد المبدأ المنظم وهو مبني في هذه الحالة على المستويين : الاقتصادي ، والمنزلة الوظيفية .

إن خلو مصادرنا العربية من الأرقام تدفع بالباحث لاعتماد الصفة فقط بالنسبة للحالة الاقتصادية التي تعتمدها هذه المصادر ، كأن تقول فلان من مياسير التجار أو من كبار التجار، كتجار الخانات والقيساريات ، وأرباب القوافل ، وتجار الجملة ، والسماسرة أو الوسطاء التجاريين . لقد ضاهى هؤلاء كبار الأمراء من حيث الأهمية وشاركوا بحضور الاحتفالات الرسمية ، ونالوا احتراماً مميزاً من السلطات ومن الشعب على حد سواء[٢٦١] .

ولا نستطيع تحديد نسبتهم إلى مجموع التجار وغيرهم من المياسير ، وهناك صعوبة أخرى تتمثل بتحديد نسبتهم إلى مجموع تجار دمشق من جهة ، وإلى مجموع سكان دمشق من جهة ثانية . والسبب في ذلك أن المصادر الدمشقية تحجم ، غالباً ، على خلاف المصادر المصرية التي تعطي أرقاماً عن

---

[٢٥٥] ضومط : دمشق الشام – ص٤٠٧ .

[٢٥٦] زيتون : تاريخ المماليك – ص١٤٥ .

[٢٥٧] الشلي : المرجع السابق – ص١٣٤ .

[٢٥٨] عدد الشهرستاني في الملل والنحل ص ١٧٤ طوائف اليهود ، ولم يرد ذكر هاتين الطائفتين وقال " نحن نعدد أشهرها وأظهرها عندهم ، ونترك الباقي هملاً " .

[٢٥٩] السامرة قوم يسكنون جبال بيت المقدس ، وقرايا من أعمال مصر ، ويتقشفون في الطهارة أكثر من تقشف سائر اليهود ، وقبلة السامرة جبل غريزيم بين القدس ونابلس . وأثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام ، وأنكروا نبوة من بعدهم . إلا نبي واحد ولم يذكروه . الشهرستاني : المصدر نفسه ص١٧٦–١٧٧ .

[٢٦٠] الخالدي : المصدر السابق ص٢٧٥ / القلقشندي : المصدر السابق ج٤ ص١٩٤ .

[٢٦١] (لابيدوس) : إيرامارفين (مدن الشام في العصر المملوكي) ترجمة : سهيل زكار – دار حسان دمشق – الطبعة الأولى ١٩٨٥ ص١٣٦.

غنى بعض التجار وغيرهم من المياسير[٢٦٢] . أما المبدأ الآخر المنظم للتفريع الطبقي للأعيان فهو السلّم الوظيفي ، فإلى جانب الجهاز القضائي كان هناك العلماء ، والمحتسب ، وشيوخ الأسواق (النقباء [٢٦٣])، والأطباء والمهندسون وجباة الضرائب.

إن بياض العامة ممن ذكرنا شكلوا الطبقة البورجوازية بالاصطلاح الحاضر ، لأن الأبناء توارثوا عمل الآباء ، وجنى بعضهم ثروات كبيرة جعلتهم عرضة للمصادرة [٢٦٤]. مما دفع بعضهم إلى إخفائها ، وقد أدى ذلك إلى تقهقر نسبي في الحركة الاقتصادية عامة .

٣ – العامة [٢٦٥] :

من الواضح جداً أن الإسلام دعا إلى المساواة بين المؤمنين بهدف إلغاء التفاوت في المجتمعات الإسلامية وتحقيق العدالة على المستويات كافة . ولم يحاول القيمون على دول الخلافة رأب صدع الخلاف الذي أورثه التفريق الطبقي الذي نشأ في الدولة الإسلامية ، فازدادت الهوة بين الحكام والمحكومين ، ونشأ فراغ في الولاء، حتى باتت شرائح كبيرة تعيش على هامش الحياة ، ولاسيما في المدن . ونشاهد هذه الظاهرة بكثرة في العصر المملوكي ، إذ تقاسم السلطان وأمراؤه الخيرات الاقتصادية في الدولة، وهي وفيرة جداً ، ونشأ نوع من العداء بين الحكام والرعية ، على الرغم من محاولات الحكام التقرب من الشعب عن طريق بناء المؤسسات الدينية والاجتماعية كالمساجد والبيمارستانات والمدارس ، وعبر الدينوري عن العامة بقوله : " أصحاب الإهانات ، وأبناء الأنذال ومنهم الرعاع والهمج والغوغاء ، وأهل السفه والخفة ..... والدهماء [٢٦٦] " .

وعلى هذا يمكن تعريف العامة في العصر المملوكي بأنها الفئات الشعبية التي لم تتلق تعليماً ، ولا حققت ثروة ، ولم تشغل منصباً حكومياً ، بل هي جماعات دفعت الضرائب من دون أن تفيد منها إجمالاً ، وسميت العامة أو عامة الناس لتضفي عليها صبغة من الاحترام وتمييزاً لها من الزعر والأرذال [٢٦٧] . وتألفت العامة في العصر المملوكي من أصحاب الحوانيت ، والباعة المتجولين ، وباعة المفرق والعمال كالنجارين والبنائين والحرفيين [٢٦٨] ، وضمت أيضاً المخادعين والسماسرة ، والصيارفة [٢٦٩] ،

---

[٢٦٢] الظاهري : زبدة كشف الممالك ص٤١ ، ذكر : (أن أحد تجار الكارم استطاع بناء مدرسة من مدخول يوم واحد) . وقال القلقشندي : (إن بعض التجار ديّن السلطان مائة ألف درهم فضة) ، صبح الأعشى – ج٤– ص٣٢.

[٢٦٣] ابن طولون : مفاكهة الخلان – ص٤١–٤٤–٤٥–٧٨–٨٩–٩١ .

[٢٦٤] ابن طولون : المصدر نفسه – ص ٢٢٢ .

[٢٦٥] لن نتحدث عن بياض العامة أي مياسير التجار وأصحاب الحرف الكبرى بالتفصيل لأن ذلك يتطلب بحثاً كاملاً وقائماً برأسه .

[٢٦٦] (فهمي) : سعد (العامة في بغداد) بغداد – دون رقم وتاريخ – ص٦٦ . وقد نقلها سعد فهمي من مخطوط الدينوري بعنوان (التعبير في الرؤيا ، أو القادر في التعبير) .

[٢٦٧] لا بيدوس : مدن الشام – ص١٣٧ .

[٢٦٨] لابيدوس : المرجع نفسه – ص١٣٧–١٣٨ .

[٢٦٩] السبكي : معيد النعم – ص٩–١٠ .

وتجار النخاسة ، وبائعي الخمور ، والمغنين والنادبين [٢٧٠] . وأضاف إليهم المقريزي : " القصابين وأصحاب بيوت الدعارة ، وضامني الأفراح والمآتم ، ومنظفي الأقنية والبيوت " [٢٧١] . ويضاف إلى هؤلاء عمال الدباغة، وضاربو الرمل لكشف الغيب ، وسائقو البغال و الحمير وغيرهم [٢٧٢] . وشمل هذا التصنيف مختلف الطوائف الإسلامية من سنة وشيعة ، والمسيحية من نساطرة ويعاقبة ، ويهود قرائيين وربانيين وسامرة .

لقد تجانس جميع العامة من حيث طبيعة العمل ، فمثلاً لم يكن ممنوعاً على الذميين ممارسة أي مهنة يمارسها المسلمون ، فامتلك المسيحيون محلات كثيرة غصت بمختلف أنواع الملابس ، والأواني النحاسية [٢٧٣] . واشتهروا بأعمال الصيرفة وبالربا عن طريق إقراض الناس الأموال [٢٧٤] ، كما تولوا وظائف كتابة السر ، ودار الضرب [٢٧٥] .

واختلفت أوضاع اليهود والمسيحيين عن المسلمين بدفع ضريبة الخمر ، ولكن اليهود لم يكونوا محبوبين من السكان ، وتعرضوا مرات عدة للإهانات والضرب حتى في المواكب الرسمية أو احتفالات النائب [٢٧٦] . كما اختلفت أوضاع أهل الذمة عن المسلمين من حيث السكن ، فقد كان للمسيحيين حيهم الخاص في الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة بالقرب من باب توما . وسكن اليهود في المحلة التي عرفت باسمهم [٢٧٧] . وكانت للطائفتين مقابر خاصة معروفة باسمهما على مقربة من أسوار المدينة [٢٧٨] .

– أما بالنسبة **للزعر** : وهم الأحداث أو الشطار أو العيارين الموجودين في العصر العباسي سابقاً فهذه الفئة لم تكن موجودة خلال العصر المملوكي الأول وأشار الدكتور زعرور إلى أن " أول إشارة إليها كانت في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[٢٧٩] ".

العادات والتقاليد الدمشقية :

سجل لنا أن بطوطة من خلال رحلته التي زار فيها دمشق انطباعات قيّمة حول عادات وتقاليد الدمشقيين، ومنها :

١ – عادة الكرم والضيافة :

---

[٢٧٠] لابيدوس : المرجع السابق – ص١٣٨ .

[٢٧١] (المقريزي) : تقي الدين أحمد (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) مطبعة بولاق – ١٢٧٠هـ– ج١ – ص٨٩ .

[٢٧٢] لابيدوس : المرجع السابق – ص١٣٨ .

[٢٧٣] نصار : المرجع السابق – ص٨٨ .

[٢٧٤] ابن طولون : مفاكهة – ج٢ – ص١٠ .

[٢٧٥] ابن طولون : المصدر نفسه – ج١ – ص١١٥ .

[٢٧٦] ابن طولون : مفاكهة الخلان – ج١ – ص٨٧ .

[٢٧٧] (النعيمي) : عبد القادر بن محمد (الدارس في تاريخ المدارس) علق عليه : إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الولى – ١٩٩٠ – ج٢ – ص٢٤٤ .

[٢٧٨] زيادة : دمشق في عصر المماليك – ص١٣١–١٣٣ .

[٢٧٩] زعرور : الحياة الاجتماعية – ص١١٨ .

التي امتاز بها الدمشقيون . وعدد ابن بطوطة أسماء بعض من الأشخاص الذين صادفهم في رحلته [٢٨٠] وسجل بكل أمانة مواقفهم التي تدل على كرمهم ، وكذلك عندما وصف جماعة مقيمين في الجامع منقطعين للعبادة والذكر : " وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسألوهم شيئاً من ذلك [٢٨١] " .

٢ – عادات الأطعمة والألبسة :

وقد عدد المأكولات وطرق تحضيرها . وعن استهلاك الدمشقيين الكبير للفواكه الرطبة والجافة [٢٨٢] . وعدد الأطعمة التي كانت تقدمها الزوايا المنتشرة في بلاد الشام لإطعام أبناء السبيل وكل الزوار الذين يقصدونها [٢٨٣] .

٣ – عادات الزواج :

يطالعنا ابن بطوطة بعادات اجتماعية تتعلق بتجهيز العروس حيث قال " من عوائدهم في تلك البلاد أن البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس ويتفاخرون به ويتبايعون " [٢٨٤].

ومن خلال تحليل هذا النص نصل إلى النتائج الآتية :

١ – أن تجهيز العروس كان يقع على عاتق ولي المرأة .

٢ – تجهيز البيت الزوجي بالنحاس كان عادة خاصة بهذه المنطقة ، والدليل على ذلك نص ابن بطوطة على أن ذلك "من عوائدهم" .

٣ – كان للنحاس قيمة كبيرة لدى أهالي هذه المنطقة إذ كانوا يتفاخرون بها ، ولكن الرحالة المغربي لم يعطِ تفسيراً لهذه الظاهرة .

٤ – لبس العمائم :

يعد العصر المملوكي العصر الذهبي للعمامة إذ حرص جميع أفراد العصر المملوكي – بدءاً بالسلطان وانتهاء بالفقراء – على ارتداء العمائم ، مع أنها لم تكن موجودة قبل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي . حيث كانت القلنسوة تستخدم قبل ذلك [٢٨٥] . وكانت أضخم العمائم حجماً من يلبسها رجال الدين وهي أهم جزء في ملابسهم ، ولبس الأشراف – طبقة الأشراف– عمائم خاصة تميزهم عن غيرهم [٢٨٦] . واستخدمت العمائم أيضاً من قبل بعض فئات الشعب كمكان لحفظ النقود [٢٨٧] . وارتدت النساء العمائم ، واستمر ذلك حتى عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣ م إذ صدر مرسوم يحرم على النساء ارتداء العمائم[٢٨٨] ، لأن لبس النساء للعمائم كان مثار جدل بين الفقهاء ورجال الدين . وارتدى اليهود

---

[٢٨٠] (ابن بطوطة) : محمد بن محمد (تحفة النظار في غرائب الأمصار المعروف برحلة ابن بطوطة) تح: طلال حرب – دار الكتب العلمية– بيروت – ص١١٢ .

[٢٨١] ابن بطوطة : المصدر نفسه – ص١٠٠–١٢٣–٦٥٧ .

[٢٨٢] ابن بطوطة : المصدر نفسه – ص٨٦–٨٧–١٠٢ .

[٢٨٣] ابن بطوطة : المصدر نفسه – ص٨١–٨٣ .

[٢٨٤] ابن بطوطة : المصدر نفسه ص٨٤ .

[٢٨٥] (ماير) : ل.ا. (الملابس المملوكية) ترجمة صالح الشيتي – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – ١٩٧٢ – ص٨٩ .

[٢٨٦] (الغيطاني) : جمال (العمامة المملوكية) – مجلة العربي – الكويت – العدد ٢٧٢ – ١٩٨١ – ص١١٢ .

[٢٨٧] الغيطاني : المرجع السابق – ص١١٣ .

[٢٨٨] المقريزي : السلوك – ج١ – ص٣ .

والنصارى العمائم إلى أن صدر مرسوم ألبس أهل الذمة بالشام : النصارى اللون الأزرق ، واليهود الأصفر ، والسامرة الأحمر وهناك اللباس الأخضر للأشراف الذين ينتسبون للرسول الكريم (ص) [٢٨٩] .

ولما كان الزَّي الشعبي (الموضة) يميل إلى تضخيم العمائم على نحو أكبر فأكبر ، اتخذ المسيحيون واليهود الزَّي نفسه وزادوا من ضخامة عمائمهم على قدر استطاعتهم واستمر ذلك إلى سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م حيث حرم عليهم لف أكثر من عشرة أذرع من القماش في عمائمهم[٢٩٠] . وظلت العمامة جزءاً مهماً من اللباس. حتى عصرها مع ذهاب العصر المملوكي سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٧م .

المظالم التي كانت تقع على السكان :

لقد وقع على سكان دمشق في العصر المملوكي الكثير من المظالم ، وقام بارتكابها النائب وقد حذا الجهاز العسكري الدمشقي حذوه ، فاعتبروا السكان مصدراً مالياً لا ينضب ، وخدمة لرفاهيتهم، واعتمدوا أساليب لا يقرها الشرع الإسلامي ولا شرع آخر ، وأبرز تلك الأساليب :

١ – **الرمي** : وهو أن تفرض على حي بأكمله مبالغ من المال دية لقتيل وجد فيها ، لا يعرف قاتله ، عملاً بالمذهب الحنفي [٢٩١] ، بل صار النائب أو من ينوب عنه يستوفي مبالغ طائلة يدفع – إن أراد الدفع– قسماً ضئيلاً منها دية ويحتفظ بباقي المال [٢٩٢] .

٢ – **الطرح** : وهو بيع قسري يفرضه نائب دمشق على التجار وبأسعار يرتئيها ، كأن يملك سلعاً يريد التخلص منها أو أن يشتري سلعاً من الأسواق بالسعر الذي يرتئيه ، ثم يعيد بيعه قسراً بثمن أغلى ، أو نهب سلع يمكن أن تكون فاسدة ويلزم التجار بشرائها [٢٩٣] .

٣ – **المصادر** : وهي مصادرة أموال الناس دون حجة شرعية ، وقد سوغها نواب دمشق لأنفسهم . والمصادر المملوكية والدمشقية مليئة بأسباب المصادرات وأنواعها فصارت عادة يلجأ إليها الحاكم للحصول على المال دون مشقة [٢٩٤] .

٤ – **المشاهرة والمجامعة** : وهي كناية عن مال شهري يفرض على الأسواق لصالح السلطان أو نائب دمشق، فيعمد التجار إلى رفع أسعار سلعهم من أجل تسديد المتوجب عليهم ، وكانوا يستغلون هذا الأمر لزيادة الأسعار أكثر مما تقتضيه المشاهرة ، وهكذا وقع سكان دمشق ضحية للتجار والحكام معاً [٢٩٥].

٥ – **النهب** : الذي تعرضت له دمشق في مناسبات عديدة من دون أن يلقى المنكوبون إنصافاً في أكثر الأحيان[٢٩٦] .

---

[٢٨٩] المقريزي : المصدر نفسه – ج٢ – ص٣٣٨ .

[٢٩٠] ماير : المرجع السابق ص١١٨ .

[٢٩١] البصروي : تاريخ البصروي – ص١٩٨ / نصار : العامة ص٣٢٠ .

[٢٩٢] البصروي : المصدر السابق – ص ١٧٩ .

[٢٩٣] البصروي : تاريخ البصروي – ص١١٠ .

[٢٩٤] ابن طولون : مفاكهة الخلان ج١ ص٢١٣ .

[٢٩٥] ابن طولون : إعلام الورى ص١٨٧ / نصار : العامة – ص٣٢٦ .

[٢٩٦] البصروي : المصدر السابق ص١٢٥–١٧٦ / ابن طولون : إعلام الورى ص٧٩–١١٩–١٨٧–٢٠٩ .

٦ – **تجاوزات الأجناد** : تعرضت دمشق لأنواع رهيبة من التعديات الناتجة عن ممارسة الجند الذين أقاموا فيها أو الذين قدموا إليها ، وفي الحالتين سئم أهل دمشق من أنواع الاعتداءات على أملاكهم وأرزاقهم ونسائهم إضافة إلى زهق الأنفس [٢٩٧] .

ولم يقبل سكان دمشق هذه التعديات فحاولوا جاهدين اللجوء إلى الوسائل الدينية في معظم الأحوال ، أو الاحتجاج السلمي وهو المعروف (بالتكبير) وهو تدليل على أن الله ينصر المظلومين [٢٩٨] .

الهجرة وتزايد عدد سكان نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول :

إن إحدى نتائج النظام المستقر والقوة العسكرية لسلاطين المماليك الأوائل ، هي النمو السكاني الجديد ، الذي أصبح ملحوظاً في كل من سورية ومصر ، رغم أن التزايد السكاني في الأولى كان بطيئاً . فقد تعرضت بلاد الشام لعدة غزوات على يد المغول ، الذين ذبحوا غالبية السكان في كثير من المدن ، في حين نجح المماليك في صدهم قبل الوصول إلى مصر. وهكذا جلبت الحكومة القوية المقتدرة للمماليك الأوائل لكل من بلاد الشام ومصر قرناً كاملاً من الازدهار الواسع . مما أدى إلى تزايد سكاني كبير بسبب زوال العوائق . ولكنَّ هناك ظاهرتين تعللان الميل المتصاعد في التطور السكاني :

إحداهما : هجرة كثير من سكان العراق والمغرب والأندلس إلى بلاد الشام ومصر . فعند تقدم الغزو المغولي في العراق وبعدها بلاد الشام ، كانت بلدان الشام الجنوبية والغربية ومصر هي الملجأ . فغادروا المدن وهربوا إلى الأماكن السابقة الذكر . وهي كانت مركزاً للمسلمين الأتقياء الراغبين في العيش في ظل المماليك البحرية.

ثانيتهما : الازدهار الذي نعمت به بلاد الشام في ظل المماليك البحرية قد جذب الناس للعيش فيها [٢٩٩] .

ومن أخبار المؤلفين العرب نعلم أن الناس الذين هاجروا كانوا من كل الطبقات . فمنهم التجار الذين أصبحوا وكلاء ، أو حتى وزراء لحكام المماليك ، والأطباء والفقهاء الذين أصبحوا قضاة وأساتذة في المدارس، ومن هؤلاء الفقيه المشهور ابن تيمية الذي هرب والده من حران إلى دمشق سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م[٣٠٠] .

ومن جهة أخرى فإن حوليات العصر المملوكي تحتوي على الكثير من بيانات الهجرة من المغول والأقوام الأخرى التي تنتمي إلى الطبقات العليا في مجتمع الإيلخانات ، ومجموعة الجند البيروقراطية.

---

[٢٩٧] نصار : المرجع السابق ص٣٢٧-٣٣١ .

[٢٩٨] ابن طولون : المصدر السابق ص٩٦-٩٧ .

[٢٩٩] (آشتور) آ.(التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى) ترجمة : عبد الهادي عبلة – دار قتيبة – الطبعة الأولى – دمشق – ١٩٨٥ ص٣٧٦ .

[٣٠٠] (ابن خطيب الناصرية) : علي بن محمد (الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب) تح : حسام الدين الحزوري . رسالة ماجستير غير منشورة . إشراف د. إبراهيم زعرور – جامعة دمشق -٢٠٠٥ -ص١٦٩ وما بعدها .

ففي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م عبرت الحدود السورية طائفة من الأكراد مؤلفة من ثلاثة آلاف فارس ، واستقرت في الكرك[٣٠١].

وأهم مجموعة من هؤلاء المهاجرين من ناحية العدد هي العيارات (القلامقة) التي أتت في عام ٦٩٥هـ/١٢٩٦م وبلغ عددها عشرة آلاف أو ثمان عشرة عائلة حسب تقديرات بعضهم ، وكان زعيم هذه المجموعة هو طرغاي – صهر أو زوج حفيدة هولاكو [٣٠٢] .

ونضيف سبباً آخر للازدياد في عدد سكان بلاد الشام في هذه الحقبة ، ألا وهو التحسن الكبير في الصحة العامة ، وافتراضنا هذا يؤيده تسجيل عدد قليل من الجائحات في تاريخ المماليك البحرية . فقد تعرضت دمشق لجائحتين فقط خلال العصر المملوكي الأول في سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م [٣٠٣] . قال أبو شامة عن الوباء الأول وكان شاهد عيان عليه : " ووقع وباء كثير في زمن الربيع وهو أعجب ما يؤرخ ، فعم الناس المرض وكثر الموت " [٣٠٤].

أما الوباء الثاني فكان سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٤م [٣٠٥].

والدليل الآخر على الزيادة في عدد السكان هو ظهور ضواحٍ سكنية جديدة ، مثل السويقة في الجنوب الشرقي[٣٠٦] ، وسويقة صاروجة في شمال المدينة [٣٠٧] .

وقدّر عدد سكان بلاد الشام في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بحوالي ٩٠٠ ألف نسمة [٣٠٨]، بينما بلغ عدد سكان دمشق وحدها في أواخر العصر المملوكي بما لا يقل عن مائة ألف [٣٠٩] .

المرأة في نيابة دمشق :

أما عن وضع المرأة الدمشقية خلال هذا العصر ، فقد كان جيداً بوجه عام لأنها كانت تتمتع بقسط وافر من حريتها ، وكانت تمارس هذه الحرية بالطريقة التي تعتقد أنها أفضل بالنسبة لها .

وخرجت المرأة الدمشقية من منزلها إلى الحمام حاملة معها الحناء ، والسدر والأشنان ، ودقيق الترمس، والأطعمة والفواكه ، ولبست أجمل الثياب وكان للنساء حمام خاص أما إذا كان الحمام مشتركاً

---

[٣٠١] (ابن الفرات): محمد بن عبد الرحيم (تاريخ الدول والملوك) تح : قسطنطين زريق – بيروت ١٩٣٩ – ج٧ ص٢٠٣ وما بعد / المقريزي: السلوك ج١ ص٥٠٠ .

[٣٠٢] (اليونيني) : قطب الدين موسى (ذيل مرآة الزمان) بعناية وزارة التحقيقات والأمور الثقافية الهند – دار الكتاب الإسلامي – القاهرة – ١٩٩٢ ج٣ ص٣٠ . / المقريزي : المصدر السابق ج٢ ص٢٦٥ .

[٣٠٣] المقريزي : السلوك ج١ ص٤٩٩–٥٠٠ / ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧ ص٥٦ .

[٣٠٤] أبو شامة : الذيل على الروضتين– ص٣٠٥ .

[٣٠٥] المقريزي : السلوك – ج٢ ص٨٧ .

[٣٠٦] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٤٦ .

[٣٠٧] مؤسس هذا الحي هو صارم الدين صاروجا المظفري – المتوفى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م / ابن حجر : الدرر – ج٢ – ص١١٧ .

[٣٠٨] آشتور : المرجع السابق ص٣٧٩ .

[٣٠٩] هكذا قدر عددهم أحد الرحالة الأجانب الذين زاروا دمشق ، انظر زيادة : دمشق في عصر المماليك – ص١٥٣ .

بين الرجال والنساء فيخصص من الظهر إلى بعيد الغروب للنساء . حيث كان من الطبيعي عدم وجود حمامات خاصة في المنازل لارتفاع أسعار الحطب .

وكان لها الكثير من الحقوق : المهر – الطلاق – التعلم [٣١٠] .

وقد أسهم بعضهن في هداية النساء ، ومساعدة الأيتام ، وقمن بإنشاء المساجد ، والربط الخاصة للنساء . حتى إننا نسمع عن ستيتة بنت الأمير الكبير كوكباي ، وهي زوجة نائب دمشق (تنكز) تقوم بهذه الأعمال بالإضافة إلى بناء مكتب للأيتام ، وتربة تسمى التربة الكوكبائية [٣١١] .

وإن من يرجع إلى الدرر الكامنة وغيره من كتب التراجم ، يجدها مليئة بأسماء الدمشقيات العالمات والمتعلمات . اللواتي سمعن صحيح البخاري ، ومسند الشافعي ، وقمن بالتحديث في مصر والشام والحجاز[٣١٢]. وبعضهن الأخريات حدثن بالإجازة ، وسمعن عن علماء مثل البرزالي وابن خليل وابن عبد الدائم والذهبي وغيرهم الكثير [٣١٣] . أما بالنسبة إلى لباس النسوة فقد كانت السراويل بكافة الألوان والطول والقصر وشكل التكة ونوعية الجواهر والحلي المستخدمة وقد كان ذلك يتم بعناية كبيرة . وأسرفن في الأقمشة وتوسيع أكمام الثياب[٣١٤] . كما كانت النساء يلبسن طواقي مرتفعة فوق رؤوسهن .

أما في أقدامهن فقد كان القبقاب مفضلاً أكثر من الحذاء ، وكانت الأحذية من الجلود وبالألوان المختلفة ، ووضعت بعض النسوة أقنعة ذات ألوان وأحجام مختلفة حول الوجه . [٣١٥] ويضيف مولر : " لكن هذا لم يمنع أن النساء كن يظهرن سافرات الوجه في الشوارع والأماكن الهامة أثناء الاحتفالات والأعياد والمناسبات المختلفة [٣١٦] " .

كما وجدت المرأة الجارية التي كانت تباع تحت القلعة إذا كانت جميلة ، وإذا كانت غير ذلك كانت تباع في (التكة) قرب سوق جقمق يومي الاثنين والخميس . أما الجواري فائقات الجمال ، فقد كن يبعن في (سوق الشيخي) ولهن دلال خاص بهن يسمى (دلال الجواري) [٣١٧] .

هذا عرض سريع لوضع المرأة . ولكن يبقى سؤال مهم ، هل عانى مجتمع دمشق في هذا العصر من مشكلات اجتماعية ، وما هي أسبابها ؟ وما الطرق التي اتخذت لعلاجها ؟ .

الفساد والمشكلات الاجتماعية :

لقد امتاز أهل دمشق دوماً بلباقتهم في سلوكهم ، سواء أكان ذلك فيما بينهم أم مع الغرباء. وقد تأثر كثير ممن أقاموا بينهم بما فيهم من اللطف والاهتمام بالآخرين . ويتضح هذا الكلام من خلال

---

[٣١٠] العلبي : المرجع السابق ص١١٣-١٢٣-١٢٤ .

[٣١١] بهنسي : تاريخ الأمير تنكز – ص٤٥ .

[٣١٢] ابن حجر : الدرر ج٢ ص٧٥-٧٩ .

[٣١٣] ابن حجر : المصدر نفسه – ج٣ ص١٣١- ١٣٥ ، ج٤ ص٢٤٨،٢٣٧ ، ٢٥٠ .

[٣١٤] ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج٩ ص٢٦٧-٢٦٨ .

[٣١٥] زعرور : الحياة الاجتماعية – ص١٩٤-١٩٥ .

[٣١٦] ماير : الملابس المملوكية – ص١٣٢ .

[٣١٧] (ابن المبرد) : يوسف بن عبد الهادي (أسواق دمشق) مخطوط نشره حبيب الزيات في مجلة المشرق العدد ٣٧-١٩٣٩ ص٢٧ وما بعد.

وصف ابن جبير لسكان دمشق بقوله : " ومخاطبة أهل هذه الجهات قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد ، وبامتثال الخدمة ، وتنظيم الحضرة ..... كناية عن السلام [٣١٨] " .

ورغم أن ابن جبير قد أطنب في ذكر أخلاق أهل دمشق إلا أن ذلك لم يمنع من وجود بعض الحالات التي ينبغي الإشارة إليها.

فقد عرف المجتمع الشامي بعض الأمراض الاجتماعية المتفاوتة الخطورة ، فمن ذلك اللواطة ، والزنا ، وإتيان البهائم ، وتناول المخدرات ، والقذف ، وهدر الوقت بلعب النرد أو ألعاب مشابهة ، واستخدام الحشيش واللواطة في بعض التجمعات الصوفية [٣١٩] . وقد ذكر ابن الأخوة بأن الحشيش كان يزرع في صفد ويعصر ويخزن ليباع مشروباً أو يمضغه الناس فيحصل بذلك التخدير [٣٢٠] . وذكر ابن صصرى " أن البلاء عمَّ في دمشق وأن أحوالها قد اضطربت ، وكثر الحريق والنهب ، وأخذت الفتنة بالاشتداد ، وقام الوعاظ بمعالجة الأمور فخطب أحدهم قائلاً : " يا معاشر المسلمين إنما وقعت بنا هذه النازلة لكثرة ذنوبنا ، وارتكابنا المعاصي، وكثرة الكذب والفجور وقلة الأمانة واتباع الباطل وأكل الحرام وشرب الخمور ومنع الزكاة وترك الصلاة وقلة الحياء " [٣٢١] . زنلاحظ أن انتشار الحشيش والمخدرات قد ظهر سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م .

كما أصيبت دمشق سنة ٧٧٩هـ/١٣٩٧م بشح المياه وقلة الأمطار وتلفت غلال الناس ، وقد قارب الناس الموت . وحاول العلماء وغيرهم معالجة الأمر فطلبوا من الناس أن يصوموا ثلاثة أيام وأن يمتنعوا عن اقتراب الموبقات ، فما كان من سكان دمشق إلا الخروج جميعاً إلى المزة من أجل صلاة الاستسقاء ، فقاموا بنصب منبر لقاضي القضاة وقام يعظ الناس ويذكرهم وتوجه بالدعاء إلى الله ليغيثهم ولكن دون جدوى [٣٢٢] .

كما كثرت جرائم القتل ، وكان سببها انتشار السلاح على نطاق واسع بين الأهلين وطبعاً كان النظر في جرائم القتل منوطاً بالنائب وأعوانه ، وكثيراً ما استشرت الرشوة بين هؤلاء . كما أوضحنا سابقاً [٣٢٣] . ولكون سوق الخيل – تحت قلعة دمشق من جهة الشمال – أعظم أماكن النشاط المملوكي في دمشق ، ولكثرة الأعمال فيه وكثرة الناس الذين يترددون عليه فقد تحول إلى ساحة لتنفيذ العقوبات [٣٢٤] .

وتذكر المصادر التاريخية أنه ورد مرسوم سلطاني في سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م باعتقال جميع أهل الذمة العاملين في الدواوين والكتابة وصلبهم على أن يعفى من الصلب من أعلن دخوله بالإسلام ،

---

[٣١٨] ابن جبير : الرحلة ص٢٣٥ .

[٣١٩] زعرور : الحياة الاجتماعية – ص١٥٤ .

[٣٢٠] (ابن الأخوة) : محمد بن محمد القرشي (معالم القربة في أحكام الحسبة) القاهرة – ١٩٧٦ ص٢٧٨-٢٧٩ .

[٣٢١] (ابن صصرى) : محمد بن محمد (الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية) ولوس أنجلوس – ١٩٦٣ –ص٨٧.

[٣٢٢] ابن صصرى : المصدر نفسه – ص٢٠٦-٢١٠ .

[٣٢٣] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص١٣٤ .

[٣٢٤] زعرور : الحياة الاجتماعية – ص١٨٧ .

فالإسلام يجب ما قبله ، وقد جُلب هؤلاء وجعلت الحبال في أعناقهم وشرع الجند في شدهم ، وهنا أعلنوا الإسلام فكتب محضر بذلك وأطلق سراحهم [٣٢٥] .

وذكر أبو شامة في حوادث سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م أنه اغتيل رجل في قرية تل منين وهو من كبار التجار في دمشق ولكن ألقي القبض على القاتل وتم إعدامه بين الميدانين [٣٢٦] والأمثلة على هذه الحوادث كثيرة لا مجال لذكرها . وتحدثنا المصادر عن أمر لافت للنظر قام به أهل دمشق خلال هذا العصر ألا وهو زيارة المنجمين ، ويمارس المنجم الكهانة ورقاع السحر ورسائل الروحانيات ، لإثارة محبة أو تهييج أو كراهية ، أو للكشف عن سرقة ، وزار المنجم الرجال والنساء ، وفي كثير من الأحيان كان بيته مقراً لنشاط اجتماعي له لونه الخاص[٣٢٧] ونلاحظ أن هذه الأمور ما زال بعضها قائماً في عصرنا الحالي .

ظاهرة الرشوة في نيابة دمشق :

تعد الرشوة – البذل والبرطلة – ظاهرة واسعة الانتشار في العصر المملوكي . وقد شملت هذه الظاهرة مختلف الفئات بدءاً من السلطان والنواب وأصبحت الرشوة وسيلة للحصول على الوظائف العسكرية والديوانية والدينية . ولكن سوف نشير إلى هذه الظاهرة بين صفوف نواب دمشق لأن دراستها بحاجة إلى بحث قائم بذاته [٣٢٨].

ونظراً للأهمية الكبيرة التي تمتعت بها نيابة دمشق بسبب السلطة والنفوذ التي كان يتمتع بها النائب في دمشق على باقي نيابات المملكة الشامية ، فقد كانت هذه النيابة مجالاً للتنافس بين أمراء المماليك للحصول عليها . فذكر لنا المقريزي في حوادث سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م أنه توجهت أم الأفضل صاحب حماة إليه في دمشق ، وقدمت له الهدايا والجواهر من أجل إقامة ولدها مكان أبيه الملك المؤيد [٣٢٩] بعد وفاته . وقد استجاب الأمير تنكز لطلبها [٣٣٠] ، وإن كتب التراجم التي تحدثت بكثرة عن الأموال التي صودرت منه بعد القبض عليه، تبقى مثار جدل حول أمانة ونزاهة هذا النائب على الرغم من المصادر التي أطنبت في مدحه [٣٣١] . وفي سنة ٧٧٧هـ/١٣٧٦م . حمل الأمير سيف الدين بيدمر هدية " لم يعهد مثلها " للسلطان ، فخلع عليه السلطان وعاد بعدها إلى مقر نيابته ، ويهدف بيدمر إلى البقاء في

---

[٣٢٥] ابن كثير : البداية والنهاية – ج١٣– ص٢٧٤ .

[٣٢٦] أبو شامة : المصدر السابق –ص٣٣٧ .

[٣٢٧] ابن الأخوة : المصدر السابق –ص٢٧٦

[٣٢٨] لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع : (أحمد) : عبد الرزاق أحمد (البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك) الهيئة المصرية العامة للكتاب– ١٩٧٩ .

[٣٢٩] هو الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين / ملك حماة . صاحب المختصر في أخبار البشر ، كانت له فضائل كثيرة في علوم متعددة من الفقه ، والهيئة والطب ، توفي سنة (٧٣٢هـ/١٣٣٢م) / ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص١٤٩ . / ابن حجر : الدرر ج١ ص٢١٦–٢١٨ / ابن تغري بردي : النجوم – ج٩ – ص٢١٤–٢١٦ .

[٣٣٠] المقريزي : السلوك ج٣ ص١٥٣

[٣٣١] ابن كثير : البداية والنهاية – ج١٤ ص١٧٧ . / ابن حجر: الدرر ج١ ص٣٠٨–٣١٢ . / بهنسي : تاريخ الأمير تنكز– ص٣٢–٤٧ .

مكانه أطول مدة ممكنة [٣٣٢] . وقد عزل في سلطنة الأشرف. ولكنه عقد العزم على العودة إلى نيابته مهما كلفه الأمر وإن المتتبع لسيرة الأمير بيدمر يجد أنه تولى منصب النيابة ست مرات كان آخرها سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م [٣٣٣] ، وذلك عن طريق الرشوة والبذل . وقد أشار المقريزي إلى ذلك بقوله : " وفي سادس عشر صفر ٧٨٤هـ/١٣٨٢م ركب الأمير بهادر المنجكي ..... على البريد ، ليحضر من دمشق المال الذي وعد به الأمير بيدمر [٣٣٤] " . وكذلك ذكرت المصادر العديد من النواب الذين ساروا على نهج بيدمر . ونكتفي بهذين المثالين منعاً للاستطالة .

الأعياد والاحتفالات في دمشق :

لقد شهد العصر المملوكي الكثير من المناسبات الدينية والقومية والسلطانية والموسمية ، فقلما يمضي شهر من شهور السنة دون أن تشهد الشام ومصر هذه المناسبات ، وقد اشترك في إحيائها المسلمون والمسيحيون من أهل البلاد ، وهذا الأمر لم يكن جديداً على المجتمع المصري والشامي لأن المماليك ساروا على نهج الأيوبيين في العناية بالأعياد والمواسم ، وأضافوا عليها بعض الأعياد وقد شجعهم على ذلك وفرة المال والثروة [٣٣٥] .

وقد قسمت هذه الأعياد إلى قسمين : آ – الأعياد الدينية ب – الأعياد الوطنية

آ – الأعياد الدينية :

١ – عيد رأس السنة الهجرية : وكان هذا العيد على رأس الأعياد الدينية . ويمنح فيه السلطان المنح والأرزاق على أرباب الرواتب ، وجرت العادة أنه في مستهل كل شهر قمري يهنئ القضاة والمشايخ السلطان بالمناسبة ، وكذلك العوام والتجار والعلماء فيما بينهم .

٢ – عيد المولد النبوي الشريف : ويعد هذا العيد هو الأول بين الأعياد المهمة في جميع البلاد الإسلامية ، وقد حرص سلاطين المماليك وعامة الشعب على الاحتفال بهذا العيد احتفالاً يفوق الوصف من حيث العظمة والفخامة تسمى – الليلة الكبرى – وهي ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول . وكانت تقام في القلعة – خيمة المولد – وفي صبيحة اليوم التالي يوزع السلطان كميات من القمح على الزوايا والربط في جميع النيابات .

٣ – يوم عاشوراء : وهو اليوم العاشر من المحرم ، وقد جعله علماء عصر المماليك من المواسم الشرعية الرئيسية ، واعتاد الناس في ذلك اليوم على التوسعة على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين ، لما اعتاد الناس في هذا اليوم طبخ الحبوب ، وزيارة القبور، وشراء البخور .

---

[٣٣٢] المقريزي : المصدر السابق– ج٤ – ص٣٩٠ . وذكر منها " مائتان وخمسون فرساً ، وأهدى لجميع الأمراء والأعيان عدة هدايا " .

[٣٣٣] ابن حجر : المصدر السابق – ج١ – ص٣٠٣ .

[٣٣٤] المقريزي : المصدر السابق – ج٥ – ص١٣٦ .

[٣٣٥] (الزيدي) : مفيد (موسوعة التاريخ الإسلامي – العصر المملوكي) دار أسامة – الأردن – الطبعة الأولى – ٢٠٠٢ – ص٢٢٣ .

٤ – **ليالي الوقود** : وهي أول ليلة في شهر رجب ، وليلة السابع والعشرين منه (وهي ليلة الإسراء والمعراج) وليلة النصف من شعبان ، وحرص الكثير من الناس على إحياء هذه الليالي بالصوم ، وبزيادة وقود القناديل والشموع في الجوامع ، والاجتماع بها للمذاكرة والقراءة ، واعتاد الناس شراء الحلوى في هذه الليالي.

٥ – **عيد الفطر** : وكان من الأعياد التي اهتم بها سلاطين المماليك ، ويحتفل به ثلاثة أيام من أول شهر شوال، ويصنع الناس في هذا اليوم الكعك ، وفي صباح أول أيام العيد يجتمع أهالي الحي أمام منزل الإمام الذي سيصلي بهم العيد في المسجد ، فإذا خرج زفوه حتى المسجد وبأيديهم القناديل وهم يكبرون طول الطريق[٣٣٦] .

٦ – **عيد الأضحى** : وهو في شهر ذي الحجة – اليوم العاشر منه – وكان السلطان في هذا العيد يوزع الأضاحي على العامة والمماليك . وذكر المقريزي في حوادث سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م (أخذ كل مملوك رأسين من الضأن) [٣٣٧] . وإذا حل العيد والسلطان خارج القاهرة ، في الحرب أو في الصيد استاء الناس وحزنوا لفقدهم ما كانوا يألفونه من تفرقة الأضاحي ، لغيبة السلطان والأمراء [٣٣٨] .

ب – مناسبات عامة :

اشترك المسلمون والمسيحيون في إحياء الأعياد الوطنية ، وهي إما مرتبطة بالسلطان (كالاحتفال بتولية سلطان جديد ، أو شفاء السلطان من مرض ، أو عودته من سفر أو حرب).

وهناك أعياد خاصة بالذميين شاركهم فيها المسلمون فتحولت من أعياد دينية خاصة بالذميين إلى أعياد وطنية يشارك في إحيائها جميع سكان السلطنة (كعيد النيروز) [٣٣٩] .

وقد اعتاد الدمشقيون في الأعياد الدينية – الفطر والأضحى – التوجه بعد الفراغ من صلاة العيد إلى المقابر لزيارة أمواتهم ، ومن ثم يعودون إلى بيوتهم لتناول طعام الإفطار والشروع بزيارات المعايدة المتبادلة بين الأهل والجيران والأصدقاء . وفي أيام العيد كان ينشط بعض من اختص بأعمال الغناء أو بأعمال تستهدف جميعها إدخال السرور على النفوس.

لقد كان الدمشقيون ينتظرون الأعياد الإسلامية كالفطر ، والأضحى ، ويوم عاشوراء ، والمولد النبوي بفارغ الصبر ، لأن اللهو والمتعة عندهم من الأمور المحببة إلى نفوسهم وكانت الحركة تدب في الأسواق من شروق الشمس ، وتستمر إلى العصر ، ثم يأتي وقت السرور والانشراح فيخرج الدمشقيون إلى المنتزهات لقضاء قسط من الراحة والترفيه عن الأنفس في أيام الأعياد ، فيخرجون إلى المزة ، والربوة ، ومنطقة الشيخ سعد ، ومنطقة "ست الشام" بوادي الربوة ، وبرزة وغيرها [٣٤٠] .

النتـــــائج :

---

[٣٣٦] زعرور : الحياة الاجتماعية – ص١٦٦–١٦٧ / زيتون: تاريخ المماليك – ص١٤٥–١٤٦ / الزيدي: العصر المملوكي– ص٢٢٤–٢٢٥.

[٣٣٧] المقريزي : السلوك – ج٧ – ص٤٤ .

[٣٣٨] زيتون : المرجع السابق – ص١٥١ .

[٣٣٩] زيتون : المرجع نفسه – ص١٥٢ / الزيدي : المرجع السابق – ص٢٢٧–٢٢٨ .

[٣٤٠] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص١٢٥–١٣١ .

ولمزيد من المعلومات عن العادات والتقاليد الشامية في الأعياد يرجع إلى : (السامرائي) : فراس (التقاليد والعادات الدمشقية) دار الأوائل – الطبعة الأولى – دمشق – ٢٠٠٤ .

وبعد عرضنا هذا للحياة الاجتماعية نجد أن هؤلاء المماليك كانوا بالأصل فئات من الرقيق جلبت للاستخدامات العسكرية وسواها . وعندما استولى هؤلاء الرقيق على السلطة نجد أن التنافر والشك والريبة هي التي حكمت العلاقات بين جميع المماليك حتى بين الزوج المملوك ، والزوجة المملوكة ، والعلاقة بين شجر الدر وعز الدين آيبك وبين بيبرس وقطز ، وبين قلاوون وأبناء بيبرس ، ، بل بين أبناء قلاوون تكفي للتوضيح . وغالبية المماليك من لم يمت في المعارك مات غيلة أو في السجن ، أو منفياً . وأبداً لم يستطع المماليك طول تاريخهم تكوين وحدة اجتماعية فيها أدنى وئام أو تعاون ، ولقد ظل المماليك يعيشون في غربة بعضهم عن بعض ، وغرباء عن الشعب الذي حكموه حتى عندما فقد بعضهم السلطة ، فقد عاشوا كقشرة مستبدة ، ولذلك حين اقتلعوا لم يجد مقتلعهم لهم في الأرض أدنى جذور .

في حين وجدنا أن العامة في بلاد الشام هم قوام المجتمع وأفراده ، وكان هذا المجتمع راسخ الجذور ، قوي الوشائج ، ولولا ذلك لما استطاع الاستمرار والتماسك ، فقد تعرّض لاستبداد طويل الأمد ، وإلى مخاطر فريدة من نوعها ، لقد جاء الغزو على شكل موجات بشرية عاتية ، وتمكنوا بعد صعوبات من حكم بلاد الشام، لكن حين زالوا لم يخلفوا غير الآثار السياسية ، وجاء الفرنجة كموجات بشرية غازية تدفقت قرابة قرنين ، لكن لم يخلّف الصليبيون حين زال احتلالهم غير الذكريات العسكرية والسياسية والبغض الشعبي ، وكذلك جاء المغول من هولاكو حتى تيمورلنك ثم انصرفوا وظل بنيان المجتمع متماسكاً ثابت الأركان ، لقد مرَّ بهذا المجتمع حكم الأيوبيين والمماليك وغيرهم من الغرباء ولم تتبدل سحنته، بل ظلت عربية في كل مظهر من مظاهرها .

لقد استطاع هذا المجتمع صنع معادلة صعبة جداً : إزاء السلطان والبعد عنه ما أمكن ، إننا هنا في الحقيقة متوجب أن نقول إن المعادلة تألفت من دولة وسلطان . أما السلطان فهو المتسلط الغريب ، وأما الدولة فهي الشعب ومؤسساته ، والدولة هي التي صنعت الاستمرارية والإنجاز .

لقد عاش سكان بلاد الشام في المدن والأرياف والبادية ، وقامت علاقات بينهم ، ولم توجد حواجز تحول دون التمازج بين هذه الفئات ، فالمجتمع العربي لم يعرف الطبقية قط ، بل عرف نوعاً من المراتب .

ومما يؤسف له أن المعلومات التي يمكن استخلاصها من المصادر عن سكان الأرياف نادرة وربما أمكننا توفير بعض المادة عن سكان المدن والبادية . ومن هنا نخلص إلى أن :

١ – قسم المجتمع في العصر المملوكي إلى فئات متعددة ، وكان هذا المجتمع طبقياً .

٢ – كانت فئة المماليك هي الفئة الأولى والمسيطرة على الوظائف المهمة .

٣ – كانت فئة الأعيان مؤلفة من رجال دين مسلمين ومسيحيين ويهود ، بالإضافة إلى عدد من كبار التجار والسماسرة ، وأصحاب الخانات ، وأرباب القوافل

٤ – ضمت فئة العامة المعدمين والبنائين والحرفيين وأصحاب الحوانيت والباعة والصيارفة ، وتجار النخاسة والمغنين والنادبين .

٥ – كانت هناك هوة كبيرة جداً بين الحاكمين والمحكومين نتيجة التمايز الطبقي .

٦ – كانت هناك أحياء خاصة لسكن اليهود والمسيحيين .

٧ – اشترك اليهود والمسيحيون والمسلمون في أكثر الأعياد والاحتفالات .

٨ – أعطى الدمشقيون أهمية خاصة للزواج ولتجهيز العروس بالأواني النحاسية .

٩ – شاع لبس العمائم في العصر المملوكي بين مختلف فئات الشعب ، وحتى الأمراء والمماليك وشاركت المرأة في لبسها إلى وقت معين ، ثم منعت من ارتدائها .

١٠ – لقد أوقع المماليك مظالم عديدة بسكان دمشق : من رمي وطرح ومصادرة ومشاهرة ونهب واعتداءات من قبل الجند .

١١ – نتيجة للأمن والاستقرار فقد تزايد عدد سكان مدينة دمشق وأصبحت ملجأ للفارين من العراق هرباً من المغول ، وطلباً للراحة والأمان .

١٢ – تعرضت دمشق خلال العصر المملوكي الأول للوباء مرتين : الأولى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، والثانية ٦٧٢هـ/١٢٧٤م .

١٣ – كان وضع المرأة جيداً خلال هذا العصر ، وتمتعت بالحرية ، وتفننت باللباس والألوان والأحذية، وبناء المؤسسات العلمية ، والإقبال على أمور الدين .

١٤ – عانى المجتمع الدمشقي العديد من المشكلات الاجتماعية : من زنا ، وشرب خمر ، وسرقة ، وقتل ، وتناول مخدرات ، وإتيان البهائم ، واللواط .

١٥ – كان لرجال الدين أثر كبير في توعية الناس بخطورة هذه المشكلات ، وتحويل أنظارهم عنها بالتوجه إلى الله .

١٦ – تفشت ظاهرة الرشوة كثيراً خلال هذا العصر ليس بين النواب وحسب بل وصلت إلى السلاطين ، وذلك لإبقاء النواب في نياباتهم .

١٧ – أدرك الأمراء المماليك أهمية نيابة دمشق ، فبذلوا الكثير من الأموال للحصول عليها .

١٨ – وجدت في دمشق مجموعتان من الأعياد : وطنية ودينية . وقد اشترك المسلمون والمسيحيون في الاحتفال بكثير منها . واستغلوها لقضاء أوقات النزهات والترفيه ، والتوسعة على الأهل والأقارب وتقوية الروابط الاجتماعية بين السكان .

سابعاً ـ الحياة الاقتصادية :

١ – الزراعة :

الزراعة هي المورد الأول والأساسي من الموارد الاقتصادية للمشرق العربي ، وبما أن الزراعة في بلاد الشام تعتمد على الأمطار بالدرجة الأولى ، نستطيع أن نميز فيها ثلاث مناطق زراعية متفاوتة المياه :

١ – **منطقة غزيرة الأمطار** : وتشمل (حمص ، فلسطين ، الأغوار ، غوطة دمشق) وهي ترتوي من عدة أنهار كالعاصي ، والليطاني ، وبردى ، واليرموك ، والأعوج . وكانت منطقة زراعة الأشجار .

٢ – **منطقة أقل غزارة من الأولى** : وتشمل (سهول دمشق ، الزبداني ، البقاع ، حوران ، الجولان ، القلمون). لكن هذه المنطقة قليلة المياه والأنهار لذلك كانت هذه المناطق جيدة لزراعة الحبوب بالدرجة الأولى.

٣ – **منطقة فقيرة** : وتشمل (مرج دمشق ، والمناطق الشرقية من دمشق) لذلك تزرع فيها الشعير ، وكذلك هي مراعي وبوادي يقطنها البدو الرُحل . واعتمد الفلاح في دمشق على نظام الراحة في زراعة الأرض حيث لا تزرع كل عام ، بل تترك سنة أو بعض سنة دون زراعة . وقد قسمت الأراضي الزراعية في عهد المماليك في نيابة دمشق من حيث ملكيتها إلى :

١ – **أراضي الملك أو " الخاص "** : وهي ملك لأصحابها حصلوا عليها عن طريق الشراء أو الإرث ولا علاقة للدولة بها إلا فيما يتعلق بالضرائب .

٢ – **أراضي السلطان** : وهي ملك خاص بالسلطان ، ويشرف عليها موظف مقيم في دمشق .

٣ – **إقطاعات المماليك** : وكان الفلاحون يقومون بزراعتها ، ويديرها الأمراء المماليك .

٤ – **أراضي الوقف** : ولا يجوز بيعها ، وكانت تؤجر ضمن شروط يعينها الواقف [٣٤١] .

٥ – **أراضي البدو** : وهي ليست ملكاً لهم ، ولم تستطع يد السلطان الوصول إليها .

وقد جرى مسحاً للأراضي الزراعية خلال العصر المملوكي الأول مرتين :

الأول : سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م وهو المعروف بالروك الحسامي .

والثانية : سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م وعرف بالروك الناصري [٣٤٢] .

والروك : اصطلاح عُرف في القرون الوسطى معناه عملية المسح وتقسيم الأراضي ودراسة خصبها وإمكانياتها الزراعية [٣٤٣] .

أما السبب في ذلك من أجل تمكين الدولة من فرض الضرائب المناسبة والعادلة . ولم يكن هذا الاصطلاح حديثاً على الدولة المملوكية ، فقد استخدمه صلاح الدين الأيوبي وذلك سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م

---

[٣٤١] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٣٢٩–٣٣٠ .

[٣٤٢] الزيدي : العصر المملوكي– ص٢٣٢ .

[٣٤٣] مكي : (لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني) دار النهار – الطبعة الرابعة – بيروت – ١٩٩١ ص٢٤٣ .

، وسنة ٥٨١هـ/١١٨٥م . وكانت القاعدة عند المماليك أن تُرَاك الأرض كل ثلاثين عاماً بسبب التغيرات التي تطرأ على الأرض أو السكان أو الدولة ، وكانت هذه المدة تزيد أو تنقص وفقاً لحاجة الدولة [٣٤٤] . ونتيجة لعملية الروك التي أجريت سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م أن زادت مقاطعات نيابة الشام إلى مائتي مقاطعة [٣٤٥] . ولذلك لم يكن باستطاعة الفلاح التهرب من الزراعة والعمل في الأرض السلطانية وأراضي الإقطاعات ، ولم يكن قادراً على التهرب من زراعة الأرض، أو إهمالها وتزرع الأرض بعد هطول مطر الخريف الذي يسمى " الوسمي " بالزراعات الشتوية التي كان من أهمها : القمح والشعير ، والشوفان ، والعدس ، والكرسنة ، والجلبان ، والفول ، والبازلاء [٣٤٦] .

أما الزراعات الصيفية فكانت الذرة ، والدخن ، والسمسم ، والأرز ، والحبة السوداء ، والقطن ، والقنب ، والكتان [٣٤٧] . وبالإضافة إلى ذلك تغرس أشجار الفاكهة وسواها ، والتي كانت – لكثرتها وجودتها – شهرة غوطة دمشق وما حولها . ومن هذه الأشجار : المشمش ، والتفاح ، والكمثرى ، والدراق ، والعنب ، والتين ، والتوت ، وأشجار الزيتون ، والجوز ، واللوز ، والبندق ، والصنوبر ، والرمان [٣٤٨] .

ونتيجة لوجود الغوطة وعناية أهلها بالزراعة ، أدى إلى أن تكون أسعار الفاكهة في دمشق ونيابتها أرخص مناطق الدولة المملوكية على الإطلاق .

كما زرع في دمشق الورد ، والنرجس [٣٤٩] ، والزعفران [٣٥٠] ، والبنفسج .

الأمر الذي جعل دمشق مختصة بالروائح العطرية ، وماء الورد [٣٥١] .

ومما ذكرته المصادر عن بنفسج دمشق : أن وادياً بدمشق من الجانب الغربي كان يدعى وادي البنفسج، وقال عنه الإدريسي :" وادي البنفسج من باب دمشق الغربي ، وطوله اثنا عشر ميلاً ، وعرضه ثلاثة أميال وكله مغروس بأجناس الثمار ويسقيه خمسة أنهار [٣٥٢] " هي فروع نهر بردى .

وقد عانى الفلاح فيما عاناه أيضاً من هجمات البدو المتكررة ، التي كانت تنتقل خلف المراعي من مكان إلى آخر ومن أشهر هذه العشائر كان آل فضل وآل مهنا ، وآل عيسى ، وآل مرة ، وآل علي ، وكانوا دائماً ينتهزون الفرصة للتحرش بالفلاحين حيناً ، والانقضاض على المحاصيل الزراعية حيناً آخر وهنا نتساءل عن موقف الدولة من هذه الهجمات .

---

[٣٤٤] حسن : دراسات في تاريخ المماليك – ص٤٣٤ .

[٣٤٥] مكي : المرجع السابق – ص٩٥-٩٦ .

[٣٤٦] (البدري) : عبد الله محمد (نزهة الأنام في محاسن الشام) دار الرائد العربي – الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٨٠ – ص٢٢٧-٢٥٨ .

[٣٤٧] القلقشندي : صبح الأعشى- ج٤ – ص ٨٦- ٨٧- ٨٨- ٨٩- ١٢٣.

[٣٤٨] (ابن حوقل) : أبو القاسم محمد (صورة الأرض) ط٢ – ليدن – ١٩٣٨ – ص١٧٣-١٨٢ .

[٣٤٩] البدري : المصدر السابق – ص ١٠٤-١٢١ .

[٣٥٠] كرد علي : خطط الشام – ج٤ – ص١٤٨ .

[٣٥١] (حتي) : فيليب (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين) تح : جورج حداد وعبد الكريم رافق – بغداد –دون رقم وتاريخ الطبع – ج١ ص٢٥٤ .

[٣٥٢] (الإدريسي) : محمد بن عبد الله (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) المعهد الفرنسي – دون رقم تاريخ الطبع – ص٣٦٨ .

أما بالنسبة لرجال الدولة من هجمات البدو فلم يتخذوا موقفاً ثابتاً من إضرارهم بالفلاحين فكان موقفهم سلبياً هذه الهجمات أثناء الفتن والمنازعات الداخلية والغزو الخارجي ، ولذلك لكسب البدو [٣٥٣] .

وأحياناً اتخذت موقفاً إيجابياً ، مثل الظاهر بيبرس ، الذي استخدم العنف ضد العربان . وقام بحملات تأديبية لردعهم عن تكرار الأعمال العدوانية ضد الفلاحين , لكن هذه الحملات وغيرها ، لم تكن لتضع حداً نهائياً لأعمال هؤلاء ، ودائماً ما كانوا ينكثون بوعودهم للسلطان بمجرد عودة الجيوش . وحاول بعض السلاطين درء خطر هؤلاء العربان من خلال إدخال عشائرهم في إطار النظام الإقطاعي [٣٥٤] .

٢ – الصناعة :

لا توجد معلومات متخصصة تتحدث لنا عن التطور الصناعي الذي شهدته دمشق خلال العصر المملوكي بشكل كامل ، إلا إشارات متفرقة في كتب المؤرخين والرحالة ، يمكن من خلالها رصد بعض الصناعات التي كانت قائمة في دمشق .

فقد وصف الإدريسي صناعة دمشق بقوله : " دمشق جامعة من الصناعات ، وأنواع الثياب الحريرية ... والذي جعل يحمل إلى كل بلد ويضاهي ديباجها ديباج الروم البديع [٣٥٥] " .

كذلك تحدث الرحالة (لودوف فون سوخم) عن دمشق ، الذي قد قدم الشرق سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م فقال: " وتقوم صناعاتها كل في حي خاص ، وكل صانع يجعل أمام عينه مكاناً يعرض فيه مصنوعاته عرضاً يلفت النظر ،ويغري بالشراء ،وكذلك يفعل التجار في سلعهم وكل ما يصنع فيها متقن [٣٥٦] " .

وخضعت الصناعة لتنظيم دقيق وصارم من قبل رئيسها الذي كان يسمى بـ "المعلم" ، فقد كان يشرف على العاملين في الصناعة ، ويحدد لهم أصولها وقواعدها وأخلاقياتها وفق نظام دقيق ومعروف ، لاستمراره في العصر العثماني الذي صار فيه اسم المعلم " شيخ الكار" [٣٥٧] .

وقد شهدت المحاكم الشرعية على العقود الموقعة بين الأهل الذين يودون تعليم أبنائهم صنعة معينة والمعلم حيث يؤجر الصبية مقابل طعامهم وشرابهم ، وقد سجلت هذه العقود في المحاكم الشرعية لمنع تلاعب أي الفريقين أو نكوله عن التنفيذ [٣٥٨] .

ومن أشهر الصناعات في دمشق المملوكية :

آ – **الصناعات النسيجية** : عرفت دمشق صناعة النسيج منذ القدم وتفنن الصناع في عملهم ، وحلّق اسم دمشق في الآفاق ، وجرى على لسان كل تاجر وصانع ومستهلك ، وعُرف دامسكو دمشق في

---

[٣٥٣] (زيتون) : عادل (ملامح من تاريخ الفلاحين في الوطن العربي ونضالهم في القطر العربي السوري) دار البعث . دون رقم وتاريخ الطبع – ص٥٣٩-٥٤٠ .

[٣٥٤] للاستزادة حول أوضاع الفلاحين خلال العصر المملوكي راجع : زيتون : ملامح من تاريخ الفلاحين .

[٣٥٥] الإدريسي : المصدر السابق م١ ص٣٦٩ .

[٣٥٦] (زكار) : سهيل (الموسوعة الشامية في الحروب الصليبية) – بحاجة لتوثيق –ج٣٧ – رحلة لمودوف فون سوفم ص٣٨٣.

[٣٥٧] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٢٣٧ .

[٣٥٨] مركز الوثائق التاريخية بدمشق – وثيقة باسم (مشوش حلب) الورقة ٢٠– وفيها وثيقة تأجير صبي لتعلم صنعة " الدهانة " .

أوروبا رمز الصناعة الدمشقية المتقنة [٣٥٩] . وقد زاد عدد المشتغلين بها على مائة صنف ، منهم عشرة أصناف لصناعة القطني [٣٦٠] ، ومنها :

١ – صناعة الحرير : وجل اعتماد هذه الصناعة على الحرير الطبيعي [٣٦١] ، ومن الصناعات الحريرية التي صنعت في هذا العصر : (البروكار والدامسكو وأنواعه عديدة : الأطلس [٣٦٢] ، والسابري [٣٦٣] ، والمفوف [٣٦٤] ، والمسهم [٣٦٥] ، والمعجر [٣٦٦] ، والمهلهل [٣٦٧] ، والمطير [٣٦٨] ، والمسير [٣٦٩]) .

٢ – صناعة الصوف : وكانت صناعة متطورة ومنتشرة في كل بلاد الشام لكثرة الصوف فيها وذلك لكثرة ما يرى فيها من قطعان الماشية [٣٧٠] .

وقد اختصت دمشق والبلقاء بغزل الصوف ونسيجه على أنوال يدوية ، وكانت المنسوجات الصوفية تحمل إلى البلدان المجاورة لجودتها ، وإتقان صناعتها .

ومن أهم الصناعات الصوفية : (العباءات – المشدات (الكمار) ، البسط ، صناعة الخيام) .

٣ – صناعة القطن : وهي من الصناعات الراقية في بلاد الشام ، وقد شاعت الألبسة القطنية والمنسوجات القطنية ، وتعددت حسب أنواعها واستعمالاتها [٣٧١] .

٤ – المنسوجات الكتانية : اشتهرت دمشق بصنع الكتان الأبيض ، و الكتان الملون اشتهرت به القاهرة، ووجد بدمشق ما ينوف على عشرين صنفاً من حاكة الكتان [٣٧٢] . وكان للملابس الكتانية الدمشقية سمعة جيدة[٣٧٣] .

ب – الصناعات المعدنية :

---

[٣٥٩] (كيال) : منير (فنون وصناعات دمشقية) – وزارة الثقافة – الطبعة الأولى – دمشق – ١٩٨٥ – ص٩٣ .

[٣٦٠] العلبي : المرجع السابق – ص٢٣٨ .

[٣٦١] كيال : فنون وصناعات دمشقية – ص٣٦٨ .

[٣٦٢] الأطلس : الثوب الخفيف . انظر (مطلوب) : أحمد (معجم الملابس في لسان العرب) مكتبة لبنان –ط١–بيروت –١٩٩٥ – ص٣٣ .

[٣٦٣] السابري : وهو من الثياب الرقاق ، وهو من أجود الثياب . مطلوب : المرجع السابق – ص٦٨ .

[٣٦٤] المفوف : الثوب الرفيف . مطلوب : المرجع نفسه – ص١١٩ .

[٣٦٥] المسهم : البُرد المخطط بصور على شكل سهام . مطلوب : المرجع نفسه – ص١١٤ .

[٣٦٦] المعجر : ثوب تعتجر به المرأة ، أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة ، وهو ما ينسج من الليف . مطلوب : المرجع نفسه – ص١١٧ .

[٣٦٧] المهلهل : ثوب رقيق سخيف النسيج . مطلوب : المرجع نفسه – ص١٢٣ .

[٣٦٨] المطير : المشقق المكسر . مطلوب : المرجع نفسه – ص١١٧ .

[٣٦٩] كيال : المرجع السابق – ص١٠٠ .

[٣٧٠] ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص١٩ / كرد علي : خطط الشام – ج١ ص٢٠٣ .

[٣٧١] كرد علي : المرجع السابق – ج٤ ص٢٠٣ .

[٣٧٢] ابن المبرد : نقد الطالب الورقة ٤٩–٥١ .

[٣٧٣] (الخيّر) : صفوح (مدينة دمشق : دراسة في جغرافية المدن) وزارة الثقافة – الطبعة الأولى – دمشق – ١٩٨٢ – ص٣٤٨–٣٤٩ .

أورد الدكتور زيادة قولاً لأحد الرحالة الأوروبيين مفاده : " أن ما يصنع في دمشق من أي نوع كان ، كبيراً أو صغيراً ، هو أكثر مما يصنع في أي مكان آخر في الدنيا ، من الذهب والفضة والنحاس والزجاج ، وأن النحاس يبدو لمعانه كأنه الذهب ، وكل تلك الصناعات مزخرفة بنقوش من الأشكال والأوراق " .

وقد كان لسيوف دمشق شهرة واسعة في أوروبا ، وقد بلغ من إتقان صنعها أنها كانت كالمرآة ، كما أنها تقطع بدرجة عالية من الإتقان [٣٧٤] . واشتهرت بصناعة الذهب المسبوك والمضروب والمرصع [٣٧٥] .

وكان فيها صناعات معدنية أخرى كصناعة القرطاس ، والسرر ، والأواني المنزلية [٣٧٦] .

وقد بلغت هذه الصناعات جميعاً من التخصص والدقة ما جعل عشرة صناع يتناوبون على الصنعة الواحدة حتى تتم [٣٧٧] .

ج – صناعة الزجاج : عرفت هذه الصناعة في بلاد الشام منذ أقدم العصور .

وقد وُصف زجاج الشام من قبل الكثير من المؤرخين والرحالة ، وضُرب به المثل في الرقة والصفاء حتى قيل : (أرق من زجاج الشام ، وأصفى من زجاج الشام) [٣٧٨] .

وقد امتاز أهل الشام في زخرفة الزجاج بالذهب ، وتلوينه بألوان أخرى زاهية ، وبلغوا في ذلك درجة كبيرة من الإتقان [٣٧٩] . وكان الزجاج الملون والمطلي بالمينا يصدر إلى كثير من جهات العالم [٣٨٠] .

وقد أُعجب الرحالة الأوروبيون بالأواني الزجاجية ، وزخرفتها ، وألوانها ، فحملوا الكثير منها إلى بلادهم [٣٨١] .

د– الصناعات الخشبية :

امتلكت بلاد الشام ثروة خشبية ، تفوق بها جميع الأمصار الأخرى ، حيث تغطي الغابات جبالها ، وأهم أصناف الأخشاب الموجودة في دمشق (الجوز ، والحور ، والزيتون ، والدردار ، والصندل ،

---

[٣٧٤] زيادة : دمشق في عصر المماليك – ص١٠٥–١٠٦ .

[٣٧٥] البدري : المصدر السابق – ص٢١٤ .

[٣٧٦] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٢٣٩.

[٣٧٧] البدري : المصدر السابق – ص٢١٥.

[٣٧٨] (الثعالبي) :عبد الملك بن محمد (لطائف المعارف) تح:إبراهيم الإيباري وحسن الصيرفي – دار إحياء التراث – المكتبة العلمية – ١٩٦٠– ص١٥٧ .

[٣٧٩] (بيطار) : أمينة : (الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في بلاد الشام) منشورات وزارة الثقافة – الطبعة الأولى دمشق – ١٩٨٠ – ص٣٣٥ .

[٣٨٠] الثعالبي : المصدر السابق – ص ١٥٧.

[٣٨١] كيال : فنون وصناعات – ص١٣٥ .

والصنوبر ، والسرو) وكلها تستعمل في الصناعات الخشبية [٣٨٢] وامتاز النجار الدمشقي بإلمامه بالهندسة والمساحة ، والحسابات ، والمقاييس ، وهو قبل كل ذلك متقن لعمله [٣٨٣] .

بالإضافة إلى هذه الصناعات عرفت دمشق صناعة الخزف ، والفخار ، والقاشاني ، وصناعة الجلود ودباغتها ، وصناعة الصابون ، وصناعة العطور ، وصناعة الأدوية والعقاقير الطبية ، بالإضافة إلى الصناعات الغذائية (طحن الحبوب ، صناعة الخبز ، والألبان ، والمشروبات ،.....) [٣٨٤] .

٣ – التجارة :

تلعب التجارة دوراً هاماً كمصدر من مصادر الاقتصاد لدى الشعوب ، حيث أنها الوسيلة الوحيدة لتصريف الإنتاج الزراعي والصناعي ، وهي عمليات البيع والشراء . وبيّن المؤرخ الدمشقي في كتابه (الإشارة إلى محاسن التجارة) ماهية التجارة عندما قال : " وأصل التجارة في البيع والشراء أن يشتري من زاهد أو مضطر إلى أخذ الثمن ويبيع من راغب أو محتاج إلى الشراء [٣٨٥] " .

وهذا يبين أن موضوع التجارة يتوقف على العرض والطلب ، وصفة المشتري ، والمشتري منه .

امتازت دمشق بمركزها التجاري في الشرق ، وبوقوعها على طريق القوافل الآتية من الهند ، وفارس والعراق ، تحمل بضائع هذه الأقطار إلى الثغور الشامية التي غصت بالعديد من التجار الأوروبيين [٣٨٦] .

ووصف ابن جبير تجارة دمشق ، فقال " وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً ، وأبدعها وضعاً ، ولاسيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفنادق ، مثقفة كلها بأبواب حديد ، كأنها أبواب القصور " [٣٨٧] . وعمل السلاطين على ضمان الأمن في الطرق والأمر بحسن معاملة التجار الأوروبيين . وعقد المعاهدات مع بلادهم ، وإرسال الوفود إليها واستقبالها منها ، مثل (صقلية ، قشتالة ، أراجون ، فرنسا ، جنوة، البندقية)[٣٨٨] .

وكانت بلاد الشام ذات خانات وفنادق كثيرة في المدن وعلى الطرق التجارية خارج المدن . فازدهرت (غزة) لأنها على طريق القوافل بين دمشق والقاهرة ، كما انتعشت (أيلة) لأنها كانت مكان تجمع البضائع المنقولة من مصر إلى الشام .

---

[٣٨٢] حتي : تاريخ سورية ولبنان – ج٢ ص٢٧٨ .

[٣٨٣] كيال : المرجع السابق – ص٦٤ .

[٣٨٤] لمزيد من المعلومات حول الصناعات الدمشقية راجع : كرد علي : خطط الشام – ج٤ ص٢٢٠ وما بعدها .

[٣٨٥] (الدمشقي) : جعفر بن علي (الإشارة إلى محاسن التجارة) مطبعة المؤيد ١٣١٨هـ – ص٤٥ .

[٣٨٦] (كاهن) : كلود : (تجارة القاهرة الأجانب في عهد الفاطميين والأيوبيين) بحث مقدم للندوة الدولية لتاريخ القاهرة – ص٨٧١–٨٧٢ .

[٣٨٧] ابن جبير : الرحلة – ص٢٣٠ .

[٣٨٨] (رافق) : عبد الكريم (ظهور المماليك في المشرق العربي) موسوعة بهجة المعرفة – الشركة العامة للنشر والتوزيع – المجموعة الثانية – المجلد الثاني – ص٤٠–٤١ .

وربط بين دمشق والقاهرة طريق دولي يبدأ بباب الجابية ، ويمتد على خمسة عشر مركزاً رئيساً ، ثمانية منها تقع ضمن حدود الشام ، والسبعة الباقية بمصر [٣٨٩] . وأول هذه المراكز : الصنمين ، وطفس، وأربد ، وجنين ، وقاقون ، واللد ، وغزة ، والعريش ، وهي آخر بلاد الشام .

وكانت دمشق تصدر إلى القاهرة قصب الذهب ، والقرطاس ، واللحوم ، والحبوب والفواكه ، والجوز، واللوز ، والنسيج الحريري ، والعنب وغيره [٣٩٠] .

وفي الوقت نفسه ، كانت دمشق تستورد من القاهرة السكر والبطيخ ، والكتان الملون ، والأرز ، والحصر ، والأبقار .

بالإضافة إلى القاهرة ، كان هناك حركة تبادل تجاري مع بقية نيابات الشام ، ومع العراق ، وكانت دمشق تستورد منه التمور بالدرجة الأولى ، إضافة إلى الفلفل والزنجبيل ، والشاش ، والقماش . وكانت أسعار التوابل في دمشق أرخص من القاهرة كون العراق كانت تستوردها من الهند مباشرة [٣٩١] .

بالإضافة إلى حركة التبادل التجاري الداخلية لدمشق – مع النيابات المملوكية والعراق – ازدهرت في دمشق حركة تبادل تجاري خارجية مع أوروبا ، وكانت التوابل في مقدمة الصادرات وقد جنى منها المماليك أرباحاً تتراوح بين ٥٠–١٠٠٪ من قيمتها . وبالإضافة إلى التوابل فقد صدرت دمشق إلى أوروبا (القطن ، والأشنان ، والمصنوعات الحريرية ، والمعدنية ، والجلدية ، وماء الورد ، والبخور، والصمغ الفارسي ، والعنبر) .

أما ما استوردته دمشق من أوروبا فكان : (النحاس والفضة والقصدير والرصاص والذهب والحلي وطيور الصيد والمرجان والكستناء) [٣٩٢] . وعينت البندقية قنصلاً تجارياً لها في دمشق [٣٩٣] . وأهم الطرق التجارية التي عرفتها دمشق :

١ – طريق الأماكن المقدسة " مكة والمدينة " .

٢ – طريق الخليج العربي ، وهو أقصر الطرق وأسرعها وهو قادم من الهند .

٣ – الطريق البري الطويل الذي يصل بلاد الشام بوسط آسيا (طريق الحرير) [٣٩٤] .

وكان في دمشق أسواق متعددة . ضمت تجار مسلمين ونصارى [٣٩٥] .

ولكن يبقى السؤال أين كانت تتم المبادلات التجارية في غير الأسواق ؟

---

[٣٨٩] (سعيد) : صالح (التجارة الداخلية في دولة المماليك الثانية) رسالة دكتوراه غير منشورة – الجامعة الأردنية – ١٩٩٢ – ص٥٠ .

[٣٩٠] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٢٧٥ .

[٣٩١] العلبي : المرجع نفسه – ص٢٧٧ .

[٣٩٢] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٢٨٠ . وبدوره العلبي نقلها من آشتور (Lesmetaux) .

[٣٩٣] الشلي : الأوضاع الإدارية – ص٢٠٤ .

[٣٩٤] العلبي : المرجع السابق – ص٢٨١ .

[٣٩٥] راجع هذه الأسواق عند العلبي : المصدر نفسه – ص٢٥٣ .

لقد عرفت دمشق ما عُرف باسم الخان وهي مراكز للتجار الغرباء ، لذلك كانت تتألف في دورها الأرضي من مخازن تتوسطها بركة ماء ، وفي الدور العلوي ، فكانت تحوي على غرف للإقامة ومنافع عامة[٣٩٦].

ووجدت أيضاً **(القيسارية):** وهي بناء كبير يضم أسواقاً خاصاً بمهنة من المهن وكان التجار ينزلون مع دوابهم في أبنية مستطيلة واسعة ومخازن يعلوها طابق ثانٍ يحوي غرفاً ينفتح على الفناء ، وتتصل ببعضها عن طريق بهو دائري [٣٩٧] .

وعلى هذا تكون القياسر أوسع من الخانات .

ومن أشهر قياسر دمشق قيسارية الفرنج ، وقيسارية البهار ، وقيسارية سوق السلاح [٣٩٨] .

النقود :

بعد الحديث عن التجارة والأسواق ، لا بد أن نتعرف على الوسيلة التي كانت تتم بواسطتها المبادلات التجارية ألا وهي النقود . والسؤال الذي يطرح نفسه هل ضرب المماليك نقوداً خاصة بهم أم استعملوا ما كان سائداً قبلهم ؟

إن النقود التي تم التعامل بها في بداية العصر المملوكي كانت تعرف باسم الدراهم . وكانت معروفة بالدراهم (الكاملية) – نسبة إلى الملك الكامل الأيوبي بن الملك العادل حيث ضربها سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م وهي مستديرة الشكل ، ثلثاها فضة والثلث الباقي نحاس . استعملها بنو أيوب كما استعملها بعدهم المماليك [٣٩٩] وذلك " من قبيل التفاخر بانتمائهم إليهم [٤٠٠] " ، وبها يتم البيع ويؤخذ بها خراج الأرض وأجرة المساكن [٤٠١] .

وعندما تولى الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ضرب الدراهم الظاهرية نسبة له، وجعل (رنكه) [٤٠٢] على الدرهم ، مع الإبقاء على الدراهم الكاملية إلى جانبها في التداول ببلاد الشام ومصر . وكانت الدراهم الظاهرية تحوي على ٧٠٪ فضة و٣٠٪ نحاس .

وقد استمرت هذه الدراهم إلى نهاية الدولة المملوكية الأولى ، حيث حلت محلها النقود الحموية[٤٠٣] ، ويعادل الدرهم الفضي ثمان عشرة خروبة ، وتعادل الخروبة ثلاث قمحات [٤٠٤] .

---

[٣٩٦] (ابن المبرد) : يوسف بن عبد الهادي (الإعانات لمعرفة الخانات) مخطوط – المكتبة الظاهرية – الورقة –١–٣ .

[٣٩٧] (زيود) : محمد أحمد (التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم العربي والإسلامي) منشورات جامعة دمشق – الطبعة الثالثة ١٩٩٤ – ص٢٢٠ .

[٣٩٨] العلبي : المرجع السابق – ص٢٥٥ .

[٣٩٩] (المقريزي) : أحمد بن علي (إغاثة الأمة بكشف الغمة) تح : جمال الدين الشيال – مطبعة لجنة التأليف – القاهرة ١٩٥٧ – ص٦٤ .

[٤٠٠] الشهابي : نقود الشام – ص١١٧ .

[٤٠١] المقريزي : المصدر السابق ص٦٥ / الشهابي : نقود الشام – ص١١٧ / العلبي : المرجع السابق – ص٢٤٣.

[٤٠٢] الرنك : هو الرمز الذي يتخذه السلطان شعاراً له ، وهي كلمة فارسية ، ورنك بيبرس كان (البَبَر) وهو نوع من السباع يشبه النمر ، واستخدمه بيبرس لأن اسمه مشتق منه ، وترمز للقوة . / (الشهابي) : قتيبة (زخارف العمارة الإسلامية في دمشق) وزارة الثقافة – دمشق – ١٩٩٦ – ص١٥٢ .

[٤٠٣] (المقريزي) : أحمد بن علي (النقود القديمة والإسلامية) مطبعة الجوائب – القسطنطينية ١٨٨٠ ص١٥.

[٤٠٤] المقريزي : إغاثة الأمة – ص٦٦ .

وبهذا يكون وزن الدرهم (٥٤) حبة قمح ، ولو حسبنا الـ (٥٤) حبة قمح بناءاً على ما أورده هنتس حول وزن المثقال [٤٠٥] يظهر لدينا أن وزن الدرهم يعادل (٢.٤١) غرام تقريباً ، أما الدينار الذهبي يعادل ثلاثين درهماً نقداً [٤٠٦] .

وعلى وجه العموم ، فقد كانت الفضة متوفرة بكميات جيدة في دولة المماليك . وقد استقلت دمشق عن القاهرة بضرب أنواع معينة من الدراهم ، حيث ضربت فيها أرباع الدراهم[٤٠٧] .

وتعادل الفلوس بالدراهم أيضاً بحيث يساوي كل (٤٨) فلساً درهماً واحداً نقداً [٤٠٨] أما من جهة وزن الفلوس فيعادل كل فلس منها مثقالاً واحداً [٤٠٩] ، وقد استعملت الفلوس لشراء البضائع التي يقل البيع فيها عن الدراهم ، وقد أوضح المقريزي أنه : " لا يشترى بها – يقصد الفلوس – من الأمور الجليلة ، وإنما هي لنفقات البيوت ولأغراض ما يحتاج إليه من الخضر والبقول وما نحوها[٤١٠] " . وتتفاوت قيمة الصنجة [٤١١] بين مصر والشام ، فتنقص كل مائة مثقال شامي مثقال وربع بمصر[٤١٢] .

وقد تعرضت الدنانير والدراهم والفلوس لتلاعب السلاطين بهدف الربح ، فكانت معرضة للتبديل ، وفي جميع الأحوال كان يُرغم التجار والأهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة ، مما يحدث اضطراب في الأسواق والمعاملات [٤١٣] .

الأوزان :

كان الدرهم هو أصغر وحدة للوزن في دمشق وهنا يجب أن نفرق بين هذا الدرهم ، والدرهم الفضي المستعمل في النقد ، حيث لا يجمع بينهما إلا الاسم ، وإن كان الأصل واحد[٤١٤].

وبعده تأتي الأوقية وتعادل خمسين درهماً ، أي ما يعادل ٦٠ غراماً ، أما الرطل ، فقد كان يزن اثنتي عشرة أوقية أي : حوالي ١٨٨٨ غراماً . ومن حيث القنطار الشامي ، فكان يزن مائة رطل أي : حوالي ١٨٩كغ , أما وحدة الكيل الرئيسية ، فكانت (الغرارة) وهي تساوي : حوالي ٢٠٨.٨ كغ [٤١٥]

---

[٤٠٥] يذكر هنتس أن وزن المثقال يعادل ٨٥ حبة قمح . وهذه تعادل ٤.٤٦ غرام .

(هنتس) : فالتر (المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري) ترجمة : كامل العسلي – عمان – ١٩٧٥ – ص٨٩ .

[٤٠٦] المقريزي : المصدر السابق – ص٧٠ .

[٤٠٧] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٢٤٤ .

[٤٠٨] القلقشندي : صبح الأعشى – ج٣ ص٤٣٩ .

[٤٠٩] المقريزي : المصدر السابق – ص٦٥ .

[٤١٠] المقريزي : المصدر نفسه – ص٧٠ .

[٤١١] الصنجة : تعادل درهم وحبتي خروب / القلقشندي : المصدر السابق ج٣ ص٤٣٧ .

[٤١٢] المقريزي : المصدر نفسه – ص٦٥ .

[٤١٣] عاشور : العصر المماليكي – ص٣٠٧ .

[٤١٤] الموسوعة الإسلامية الفرنسية – مادة درهم ج١ ص١٠٠٦ ، ومادة حبة ج٢ ص١٧٩ – ومادة رطل ج٣ ص١٢٠٨ .

[٤١٥] العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين – ص٢٤١ .

وبالنسبة للمقاييس ، فقد كان الذراع وحدة للقماش ، وهو في دمشق يزيد بمقدار ١٢/١ من ذراع القاهرة . أما الأرض، فهي أيضاً بالذراع ، ولكن ذراعها يساوي ثلاثة أشبار [٤١٦] .

النتـــــائج :

لقد كانت الحياة الاقتصادية في نيابة دمشق متطورة ومتقدمة ومن خلال دراستنا للحياة الاقتصادية في دمشق خلال العصر المملوكي الأول توصلنا إلى النتائج التالية :

١ – كانت الزراعة هي المورد الاقتصادي الأول والأساسي لسكان بلاد الشام .

٢ – يمكن تقسيم الأراضي الزراعية في دمشق حسب تلقيها للأمطار إلى ثلاثة :

آ – مناطق غزيرة ب – أقل غزارة من الأولى ج – شحيحة الأمطار .

٣ – أما تقسيم الأرض من حيث ملكيتها فقسمت إلى خمسة أقسام :

آ – أراضي الملك ب – أراضي السلطان جـ– أراضي الإقطاعات للمماليك

---

[٤١٦] القلقشندي : صبح الأعشى– ج٤ ص١٨٢ .

د – أراضي الوقف هـ – أراضي البدو .

٤ – قام المماليك بمسح للأراضي الزراعية خلال العصر المملوكي الأول – الروك – مرتين.

٥ – تنوعت المزروعات التي تنتجها دمشق (خضروات – أشجار مثمرة – ورود – اللوزيات ...) وكانت أسعار الفاكهة في نيابة دمشق هي الأرخص .

٦ – تزرع الأرض وفقاً لنظام الإراحة ، حتى تعطي منتوجاً أفضل .

٧ – عانى الفلاح في دمشق خلال هذا العصر من الضرائب وأعمال السخرة وهجمات البدو على الرغم من تدخل الدولة في أكثر المناسبات لكنها لم تضع حداً فاصلاً لها .

٨ – أما صناعة دمشق فكانت متطورة ومتقنة ومتخصصة .

٩ – أشرف على الصنعة – المعلم – والمحدد لأصول الصنعة ومراقبها كان شيخ الكار .

١٠ – وقعت عقود بين أهل الصبية الراغبين بتعلم صنعة والمعلم منعاً للتلاعب .

١١ – اشتهرت دمشق بالصناعات النسيجية والمعدنية – والخزفية – والزجاج – والصناعات الخشبية وراجت صناعاتها وكانت مرغوبة في جميع أرجاء العالم لإتقان صناعتها وجودتها .

١٢ – لعبت التجارة دوراً هاماً في حياة الدمشقيين ، حيث كانت دمشق محطة للقوافل ، ولكثرة الخانات والأسواق والقياسر التي احتوت العمليات التجارية آنذاك ,

١٣ – صدّرت دمشق العديد من منتجاتها (الحرير – المنسوجات بكافة أنواعها – التوابل – قصب الذهب – اللحوم – الفواكه ، الحبوب ، العتب ، وغيرها) .

واستوردت (الكتان الملون ، النحاس ، الفضة ، القصدير ، الرصاص ، الذهب ، طيور الصيد ، المرجان.....) .

١٤ – امتلكت دمشق العديد من الطرق التجارية أهمها (طريق الحرير القادم من الصين – طريق الخليج العربي القادم من الهند – طريق الأماكن المقدسة " مكة والمدينة ") .

١٥ – عقدت دمشق معاهدات تجارية مع الدول الأوروبية وتبادلت التجارة معها ووجد قناصل لهذه الدول في دمشق مثل قنصل البندقية .

١٦ – عرفت دمشق النقود الأيوبية – الدراهم الكاملية – والدراهم الظاهرية خلال العصر المملوكي الأول ، إلى جانب الدنانير ، والفلوس ، التي كان يتم التلاعب بها من قبل السلاطين مما أثّر على قيمتها ، وأحدث اضطرابات في الأسواق .

١٧ – وجد خلال هذا العصر وحدات لقياس الأقمشة هي : الذراع – وقياس الأراضي الذراع ويختلف عن ذراع الأقمشة .

١٨ – أما وحدات الوزن فكانت الدرهم ، والأوقية ، والرطل والغرارة .

الفصل الثاني

عوامل قيام النشاط الفكري ومراكزه

أولاً – عوامل قيام النشاط الفكري في العصر المملوكي :

ازدهرت النهضة العلمية في بلاد الشام منذ العصور الإسلامية الأولى ، وقد قدمت أرض الأنبياء أعلام الدين ونوابغ الفكر وأساطين العلم في ظل الحضارة الإسلامية والثقافة العربية .

وقد شهدت الحضارة العربية الإسلامية تطوراً كبيراً في جميع نواحي الحياة الفكرية منذ عصر الخلافة الأولى وحتى نهاية العصر المملوكي .

لقد شهد العصر الأخير نشاطاً فكرياً ملحوظاً ، ولا نغالي حين نذكر أنه كان أكثر نشاطاً وأدأب عملاً وأضخم نتاجاً في العصر المملوكي ، مما كانت في العصر الأيوبي ، بل وما قبله من العصور الإسلامية والسبب في ذلك طول المدة الزمنية التي عاشها العصر المملوكي.[٤١٧]

في حين كثر الحديث في هذه المرحلة الرديئة التي نعيشها اليوم من حياة العرب والمسلمين عن المنجزات الحضارية العربية الإسلامية ليس فقط من قبل المتربصين بمصالح العرب والمسلمين من الذين ينتمون إلى حضارات أو دول لا تمت بصلة إلى الأمة العربية والإسلامية بل من قبل مجموعة من العرب والمسلمين .

وقد ظهرت بعض المفاهيم الخاطئة عن عصر المماليك على أنه :

١- عصر انحطاط .

٢- عصر لم تكن فيه مدارس علمية وثقافية ودينية .

٣- عصر قائم على العنصرية والتعصب الديني . [٤١٨]

ونرى التخبط حتى في التسمية التي استحدثوها عن هذا العصر فيطرق آذاننا قولهم : " عصر الانحطاط " أو " عصر الانحدار " أو " عصر الأتراك " أو " عصر الأعاجم " أو " عصر المغول والتتار " ، ولا ندري كيف يسمى عصر باسم الغزاة ، أو الحكّام ، وهل خلا عصر من حروب وغزوات [٤١٩] . فكل هذه التسميات والمفاهيم برأينا خاطئة لأن العصر ليس الحكام بل هو الشعب ، ولم يشكل المماليك إلاّ فئة حاكمة ، وأن النتاج الفكري كان نتاج أبناء المنطقة العربية التي حكمها المماليك ، لأن الشعب هو من يقوم بمختلف أوجه النشاط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي .

فقد شهد عصر المماليك وبالتحديد عصر المماليك البحرية ٦٤٨ – ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ – ١٣٨٢ م – حياة غنية مزدهرة بمختلف النواحي الفكرية ، بالرغم من أن ذلك العصر قد شهد العديد من الحروب الطويلة والثورات والاضطرابات والفتن (لأنه عصر كانت الريبة والشك هي السمة العامة فيه) ، ولكن الشيء الذي يدهشنا هو بعض العبارات التي نسمعها من قبل بعض المشتغلين باللغة والأدب العربي ونقّاده بأنه (عصر انحطاط) عاشته الحضارة العربية الإسلامية في عصر المماليك ، مما يعني أن هذا العصر قد خلا من الأصالة والإبداع والتفوّق في العلوم عامة ، كما أنه لم يوجد فيه من الشعراء والأدباء والمحدثين والفقهاء ، والفلاسفة والأطباء والكيمائيين والمؤرخين من يضاهي أمثالهم من القرون الثلاثة الأولى ، وهي العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية . [٤٢٠]

---

[٤١٧] - (زعرور ، أحمد) : إبراهيم ، علي (مظاهر الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى) منشورات جامعة دمشق – الطبعة الأولى – ٢٠٠٥ – ص ٧ .

[٤١٨] – (جيدة) : أحمد خالد (المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي) – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – بيروت – ٢٠٠١ – ص ٧-٨ .

[٤١٩] - (المرصفي) : نائل (أدب اللغة العربية) المطبعة الحسينية – الطبعة الأولى – القاهرة – ١٩٠٨ ص ١٥-١٩ .

[٤٢٠] - (النهار) : عمار (قراءة في إنجازات عصر المماليك العلمية) – مجلة دراسات تاريخية – العددان ٩٩ – ١٠٠ /٢٠٠٧ ص ٣٥٧-٣٥٨.

فعندما ترجم عبد الباسط شاهين للصالح نجم الدين أيوب قال : " وهو الذي جَلَبَ المماليك إلى مصر وليته ما فعل " [٤٢١] ، في حين ذكر آخر أنه : " في عهدهم بدأ عهد الانحطاط الفكري عند العرب ، ذلك أن السلاطين كانوا أميين وبعضهم لا يعرف اللغة العربية " [٤٢٢] ، في حين وصف ثالثٌ هذا العصر بقوله : " لقد وصفت هذه الفترة بأنها عصر الظلام ، أو عصر الفوضى ، أو العصور المظلمة ، وفي هذا العصر عاشت مصر نفس الحياة التي عاشتها أوروبا في القرون الوسطى " [٤٢٣] .

وقال أحد الباحثين :

" ... كانت خسارة الحضارة العربية الإسلامية بسقوط بغداد لا تعوّض . فقد اعُتبِر السقوط نهاية لعصر ازدهار التراث الحضاري الإنساني الذي أنتجته عقول المفكرين المسلمين في مختلف نواحي الفكر ، والذي كانت بغداد مركزاً رئيساً له ، باعتبارها قاعدة الخلافة ، ومجمع العلماء ، ومقصد الطلاب ، ولم يقتصر ضرر هذه الخسارة على المجتمع الإسلامي الذي نكب بالحكم الأجنبي ، ففقد حرية التفكير وقوة الإبداع ، وعجز عن الإتيان بالشيء الجديد ، فعاش في ظلام فكري طيلة القرون اللاحقة حتى مطلع القرن الحالي ، وإنما تحسس بهذه الخسارة علماء أوربا ومفكروها أيضاً " . [٤٢٤]

ونلاحظ من كلام الأخير أن العاطفة ، والعصبية ، هي التي توجهه ، على الرغم من وجود بعض الحق في كلامه ولكن هذا لا يلغي النتاج الكبير للعصر المملوكي ، مما يفقده الفهم العميق للتاريخ . وجاء بعض المستشرقين وأطلقوا هذه العبارة – عصر الانحطاط – على جميع نواحي الحياة في العصر المملوكي ، مدفوعين بدافع من الجهل ، أو الحقد ، أو كليهما ، فقد وصف كارل بروكلمان النتاج الفكري في هذا العصر بأنه : " نتاج يكاد يكون خلواً من الأصالة والإبداع " . [٤٢٥]

في حين عدّ الفرنسي فييت هذا النتاج من الدرجة الثانية ، حيث وصفه بقوله : " لم تكن القاهرة في أي وقت مضى مركزاً علمياً في مستوى بغداد ، وقرطبة ، وكانت في القرنين الثامن والتاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر للميلاد ، مركزاً للسياسة والإدارة وخاصة للتجارة العالمية ، ورغم أنها احتفظت بذوقها الفني الرفيع في مجال النتاج الفكري كانت من الطبقة الثانية " . ثم يتابع فييت قوله : " باستثناء المقدمة لابن خلدون لم يظهر في القاهرة أي عمل أصيل، وقد تميّز هذا القرن بكتاب الموسوعات والسير ، التي كثيراً ما كانت قليلة الأهمية ، وواضعي المجاميع ، فلم تعرف فيه أعمال تتميز بالأصالة ، كان هؤلاء الرجال يستحقون في حياتهم عبارات المديح ، لكن أسماءهم تسقط سريعاً في طيّات النسيان " . [٤٢٦]

---

[٤٢١] - (شاهين) : عبد الباسط (نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين) تح : كمال عز الدين علي – مكتبة الثقافية الدينية – الطبعة الأولى – القاهرة – ١٩٨٧ – ص ٢٩ .

[٤٢٢] - (الهاشم) : رانيا (قصة وتاريخ الحضارات العربية) دار إحياء التراث العربي – الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٩٩ – ج١٧ ، ص٧٥ .

[٤٢٣] - (زقلمة) : أنور (المماليك في مصر) مطبعة المجلة - القاهرة – د . ر . ت . ط – ص١٤ .

[٤٢٤] - (القزاز) : محمد صالح (الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية) . النجف ١٩٧٠ – ص ١١٠-١١١ .

[٤٢٥] – (بروكلمان) : كارل (تاريخ الشعوب الإسلامية) تر : جمال الدين الدناصوري – دار الحداثة – ط٢ – بيروت – ١٩٨٢– ج٢ ص ٢٤٨ .

[٤٢٦] - (فييت) : جاستون (القاهرة مدينة الفن والتجارة) تر : مصطفى العبادي – مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر – بيروت – نيويورك – ١٩٦٨ – ص ١٠٦-١٠٧ .

ولقد لفت انتباهنا المستشرق جوزيف بورلو من خلال وصفه للثقافة العربية في العصر المملوكي من خلال قوله بأنها كانت " تعيش على نفسها مع تنازلها عن مكانتها إلى الثقافات الفارسية والتركية " . (٤٢٧)

ويُرْجع الدكتور عمار النهار موقف هؤلاء المستشرقين من العصر المملوكي إلى :
" أن المماليك دمرّوا الصليبيين وأجلوهم عن الشام ، كما دمرّوا حلفاءهم المغول ، وحفظوا لبلاد الشام الأماكن المقدسة فيها واستقلالها قرابة ثلاثة قرون في فترة زمنية قياسية " . (٤٢٨)
ولا نفاجأ إذا سمعنا مثل هذه الآراء التي أطلقها المستشرقون ، ولكن الغرابة تأتي عندما نسمع قولاً لباحثين مشهورين من أمثال فيليب حتّي عندما وصف عصر المماليك بقوله : " عصر تجميع وتقليد أكثر منه عصر توليد وإبداع " . (٤٢٩)

في حين عدّ الدكتور طه حسين عصر المماليك عصر تقدم ورقي حيث قال : " مما يقال: إنه عصر مظلم هذا هو السخف بعينه ، فهو من أزهى العصور الإسلامية بالنسبة للقاهرة والبلاد العربية ، ويمكن أن يقال عن عصر المماليك إنه عصر دوائر المعارف وهذا يكفيه " (٤٣٠) ، وقد تميز العصر المملوكي بأنه عصر المحافظة على الدين والتراث وعصر تأكيد القيم الإسلامية ودعمها والتمسك القوي بها ، وقد انصرف العلماء للأعمال الموسوعية يكثرون منها في نوع من الدفاع الذاتي ضد الأخطار المحيقة ، وذلك أن حَمَلَة الثقافة الإسلامية وجدوا أنفسهم أمام الخوف المصيري على الإسلام وعلى التراث فلابد من احتضانه جملة وتجميعه جملة . (٤٣١)

ومما يؤكد صحة الموقف الذي تبنيناه عن عصر المماليك زيارة ابن جبير لدمشق ، إذ تحدث عن نهضتها العلمية ، ودهش من كثرة مساجدها ودور العلم فيها ، وفضلها على بلاد المشرق عامة ، وقد أوصى ناشئة المغرب بقصدها والنهل من علومها ومعارفها ، (٤٣٢) وفي العصر المملوكي أصبحت مصر وبلاد الشام من المراكز الفكرية المهمة ولاسيما بعد أن انتقلت مراكز العلم من فارس وبغداد ، لذا كان العصر المملوكي غنياً من ناحية الثروة العلمية. وقد امتاز العصر المملوكي بأنه عصر ظهرت فيه الموسوعات الكبرى في الأدب والتاريخ والحديث والتفسير والفقه والحديث كمؤلفات الإمام النووي ، وابن رجب ، والبدر العيني ، وابن تيمية، وابن حجر ، وفي التاريخ ابن كثير ، وابن خلدون ، وابن تغري بردي .

أما في الموسوعات العلمية فنجد العمري ، والقلقشندي ، والمقريزي ، وغيرهم . ومما يدل على النهضة الروحية والثقافية والعلمية ما تركه علماء وأدباء العصر المملوكي للأجيال التالية من خزائن الكتب ودورها بنفائس المؤلفات من جليل الآثار والتراث الضخم في مختلف العلوم والفنون .

---

(٤٢٧) - (بورلو) : جوزيف (الحضارة الإسلامية) تر : نبيه فارس – دار العلم للملايين – الطبعة الخامسة – بيروت – ١٩٦٨– ص ٣٧١.
(٤٢٨) - النهار : المرجع السابق ص٣٥٩ .
(٤٢٩) - (حتي) : فيليب (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين) تر : كمال اليازجي – دار الثقافة – بيروت – ١٩٨٣ – ج٢ – ص ١٩.
(٤٣٠) - (موسى باشا) : عمر (محاضرات في الأدب المملوكي والعثماني) مطبعة الإحسان – الطبعة الأولى – دمشق – ١٩٧٩ – ص ١-٢ .
(٤٣١)- (مصطفى) : مصطفى شاكر (موسوعة دول العالم الإسلامي ورجالها) دار العلم للملايين – الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٩٣ – ج٢ – ص ١١٠ .
(٤٣٢) - ابن جبير : الرحلة ص ٢٢٧ .

وبما أن الحركة العلمية كانت مزدهرة في العصر المملوكي ، فهناك سؤال يتبادر إلى الذهن ألا وهو ما هي الأسباب التي أدت إلى قيام هذه الحركة ؟ أو بعبارة أخرى ما هي عوامل قيام النشاط الفكري في العصر المملوكي ؟

لقد توافرت للنشاط الفكري في العصر المملوكي مجموعتان من العوامل ، أسهمتا مجتمعتين على ازدهار هذا النشاط ، لأن النشاط العلمي الذي شهدته بلاد الشام ومصر خلال العصر المملوكي لم يأتِ من فراغ ، بل كان ردة فعل على الأوضاع التي سادت المنطقة العربية وقتذاك ، حيث وجد هذا النشاط المناخ الخصب والجو الملائم لنموه وترعرعه ثم ازدهاره فيما بعد ، ونستطيع أن نشبهه بالبذرة الجيدة التي غُرستْ في أرض صالحة وخيّرة ، وتوافرت لها المياه ، والعناية الجيدة ، فأعطت ثماراً جيدة ، ونبتت وتماسكت وقوِيَت في تربتها .

ونستطيع أن نقسم هذه العوامل إلى :

آ- العوامل الخارجية :

١- سقوط قسم كبير من البلاد الإسلامية بيد التتار :

حيث طغى سيلهم من أواسط آسيا إلى شمالها مكتسحاً البلاد الإسلامية التي مرَّ بها ، واستمر زحفه حتى العراق ، فمزّق بغداد وأحرقها [٤٣٣] فخرّبت بغداد ، وقضى هولاكو على معقل من معاقل الحضارة ، وبنى هولاكو بكتب العلماء إصطبلات للخيول ، وطوالات للمعالف عوضاً عن اللبن ، وقيل إن ماء دجلة تغيّر لونه لكثرة ما ألقى المغول من الكتب والأوراق . [٤٣٤]

وبذلك ضاعت دخائر العلوم ونفائسها ، وفقدت اللغة العربية إلى الأبد آلافاً من مؤلفاتها ، فاستقر العلماء الفارون في كنف سلاطين مصر ، فلقوا لديهم الأمن والدعة والسلامة ، ملتمسين قيم الزعامة التي تدافع عنهم وأن يشدوا أزرهم وملكهم ، لأن في ذلك إبقاء على دينهم وأنفسهم ، ومن أهم وسائل تدعيم الملك إحياء العلوم والمعارف ، فاجتهد العلماء المسلمون في هذا الأمر . [٤٣٥]

٢- قتل العلماء وإحراق الكتب :

بعد دخول التتار إلى بغداد سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) قتلوا الخليفة المستعصم ، وفعلوا ما فعلوا بالعراق من قتل وسفك وتخريب وإحراق .

وقدّم لنا أبو الفداء وصفاً لما فعلوه ببغداد قائلاً : " ثم استدعى الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد والمدرسون ، وكان منهم محي الدين بن الجوزي وأولاده ، وكذلك بقي يخرج إلى التتر طائفة بعد طائفة، فلما تكاملوا ، قتلهم التتر عن آخرهم " . [٤٣٦]

---

[٤٣٣] - (رزوق) : محمود (عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي) مكتبة الأداب – القاهرة – مج٣ – ق١ – ج١ – ص١٧ .

[٤٣٤] - (كرد علي) : محمد (الإسلام والحضارة العربية) مطبعة لجنق التأليف والترجمة – القاهرة – ط٢ – ١٩٥٠ – ص٣٢٣.

[٤٣٥] - رزوق : المرجع السابق مج٣ – ق١ – ج٢ ص ١٨ .

[٤٣٦] - أبو الفداء : المختصر ج٢ – ص ٣٠٢-٣٠٣ .

ولذلك هرب العلماء إلى مصر والشام ، حيث الأمن والأمان ، وهناك وجدوا أنفسهم مسؤولين عن إنهاض العلم من جديد ، فدفعهم شعورهم إلى العمل لإدراك ما فات . [٤٣٧]

٣- هجرة العلماء والأدباء إلى الشام ومصر :

مما لا شك فيه أن الأمر الذي ساعد الشام ومصر على بلوغ نهضة فكرية خلال هذا العصر – المملوكي– وتزعمهما للحركة الفكرية ، هو جموع العلماء والأدباء الذين جاؤوا إليهما من بغداد ، حاملين معهم علمهم ومؤلفاتهم ، حيث لقوا التشجيع من الأهالي والحكام ، وقد أسهم العلماء والأدباء في ازدهار الحركة العلمية ، وأفادت الشام ومصر منهم لأن هؤلاء كان منهم من ألفّ وكتب ودرّس وخطب وتولّى القضاء وأفتى . [٤٣٨]

ومن هؤلاء العلماء نذكر :

ابن شداد عز الدين محمد بن علي (ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) الرئيس المنشئ ، الذي جمع سيرة للملك الظاهر ، وجمع تاريخاً لحلب [٤٣٩] ، وكذلك المؤرخ العظيم ابن العديم الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن أبي جرادة (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) الذي أفتى وصنف وجمع تاريخاً لحلب [٤٤٠] ، وأيضاً العالم الكبير ابن خلكان أحمد بن محمد ، أحد الأئمة الفضلاء، صاحب كتاب (وفيات الأعيان) والمتوفى سنة (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) [٤٤١] .

وكذلك شهدت مصر والشام خلال هذا العصر نوعاً آخر من المهاجرين الذين أتوا من مكان بعيد ألا وهو الأندلس .

ذلك أن الأندلس قد انقسمت إلى ممالك ودويلات ، وضعف أمرها ، فاحتل العدو كثيراً من بلدانها ، وفي كل مرة كانت تهاجر أفواج جديدة من علماء الأندلس إلى دمشق والقاهرة . [٤٤٢]

ونذكر من هؤلاء المهاجرين أبا حيان الأندلسي أثير الدين محمد بن يوسف بن علي ، نحوي عصره ولغويه ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه (ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) والذي انتهت إليه رئاسة النحو بمصر[٤٤٣]. وكذلك ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي (ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م) نزيل دمشق وإمام النحاة ، وحافظ اللغة . [٤٤٤]

---

(٤٣٧) - رزوق : المرجع السابق مج ٣ – ق١ – ج٢ ص ١٨ .

(٤٣٨) – (سلام) محمد زغلول (الأدب في العصر المملوكي) دار المعارف – القاهرة – ج١ ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٤٣٩) - ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ٣٣٧ ، (الطباخ) : محمد راغب (أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) تح : محمد كمال – دار القلم العربي – الطبعة الثانية – حلب – ١٩٩٨ – ج٤ ص ٤٨٣ .

(٤٤٠) – (الكتبي) : محمد بن شاكر (فوات الوفيات) تح : إحسان عباس ، دار صادر – بيروت – مج٣ ، ص١٢٦ ، (ابن الوردي) : زين الدين عمر (تتمة المختصر في أخبار البشر) تح : أحمد البدراوي – دار المعرفة – ط١ – بيروت – ١٩٧٠ – ج٢ ص٣٠٨ .

(٤٤١) – أبو الفداء : المختصر ج٢ ص ٣٥٠ / (اليونيني) : موسى بن محمد (ذيل مرآة الزمان) دار الكتاب الإسلامي ، ط٢ – ١٩٩٢ – ج٤ – ص ١٤٩-١٥٠ .

(٤٤٢) - (موسى باشا) : عمر (الأدب في بلاد الشام في عصور الزنكيين والأيوبين والمماليك) دار الفكر – ط١ – دمشق – ١٩٨٩ ص ١٢٠.

(٤٤٣) - (الذهبي) : شمس الدين محمد (معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار) ، تح : بشار معروف – شعيب الأرناؤوط – صالح عباس – مؤسسة الرسالة – ط١ – بيروت – ١٩٨٤ – مج ص ٧٢٣ (ابن قاضي شهبة) : تقي الدين أحمد (طبقات الشافعية) تح : عبد العليم خان – دار الندوة الجديدة – بيروت – ١٩٨٧ – مج٢ – ص٢٢٠ .

(٤٤٤) - (السيوطي) : جلال الدين عبد الرحمن (بغية الوعاة في طبقات النحويين والنحاة) تح : محمد أبو الفضل إبراهيم – مطبعة عيسى البابي – ط١ – ١٩٦٤ – ج١ ص ٢٨٠ .

وأيضاً قدم عدد من العلماء من المغرب العربي إلى مصر للاستقرار رغبة في العلم ، ويأتي في مقدمتهم عبد الرحمن بن خلدون (ت ٧٤٥ هـ / ١٤٠٦ م) [٤٤٥] ، الذي أكثر الاهتمام بالتدريس والتحصيل ، حتى غدا عالماً من أعلام الفقه ، وعلوم اللغة ، عدا كونه شاعراً مجيداً فقد كان مؤرخاً وله كتاب (المختصر). [٤٤٦]

وبذلك ورثت الشام ومصر العراق ، وأصبحت القاهرة مركز الحضارة العربية الإسلامية ، بالإضافة إلى هجرة عدد كبير من علماء بلاد الشام إلى مصر نتيجة لحروب الفرنجة واحتلالهم لبعض المدن الشامية من جهة ، وتحول بلاد الشام إلى مسرح للصراع الحربي بين العرب والفرنجة من جهة ثانية ، وغزوات المغول التي تعرضت لها الشام من جهة ثالثة.[٤٤٧]

٤- سقوط الخلافة العباسية في بغداد وإحياؤها في مصر :

بعد أن قتل التتار الخليفة المستعصم بالله العباسي ، وولي عهده ، وأزالوا الخلافة العباسية التي كانت المركز الذي يجتمع حوله المسلمون ويرون فيها الأنس والطمأنينة – رغم ضعفها – ولكن بعد زوالها من الوجود ، وما تبعه من إحياء للخلافة العباسية في القاهرة على يد الظاهر بيبرس ، أضحت مصر وريثة العراق في الزعامة الدينية والسياسية للعالم الإسلامي والعربي ، وعقد لها لواء الزعامة الفكرية والحضارية ، وأضحت القاهرة خليفة بغداد منذ منتصف القرن السابع إلى قرون طويلة تالية . [٤٤٨]

وكانت القاهرة ودمشق في ذلك الوقت عامرتين بدور العلم والعلماء والمكتبات ، حافلة بمجالس العلم والأدب ، وكان اهتمام الناس بالكتب أمراً يستدعي الانتباه ، فالقاهرة تغصّ بأسواق الكتبيين والوّراقين ، وكذلك الحال في دمشق ، وذكر المقريزي أن سوق الكتبيين احترقت بدمشق سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م ، واحترق فيها لواحد من الكتبة وهو شمس الدين إبراهيم الجزري خمسة عشر ألف مجلدة سوى الكراريس[٤٤٩] . ومن خلال إحياء الخلافة العباسية في القاهرة تحولت هذه الأخيرة إلى قبلة للعلماء والأدباء . وقد عبّر السيوطي عن حال مصر بعد إحالة الخلافة بقوله : " واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها وعلت فيها السّنة ، فصارت محل سكن العلماء ، ومحطّ الرجال الفضلاء ، وهذا سرّ من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية ، حيث ما كانت يكون فيها الإيمان والكتاب " [٤٥٠]

ب**- العوامل الداخلية :** تعددت العوامل الداخلية التي أدت إلى ازدهار النشاط الفكري خلال العصر المملوكي ، ومن أهم هذه العوامل :

---

(٤٤٥) – (ابن حجر العسقلاني) : أحمد بن علي (أنباء الغمر بأبناء العمر) دار الكتب العلمية – ط٢ – بيروت – ١٩٨٦ - ج٥ - ص٣٢٧ / (السخاوي) : محمد بن عبد الرحمن (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) مكتبة الحياة – بيروت – ج٤ ص ١٤٥ .

(٤٤٦) – (عاصي) : حسين (ابن خلدون مؤرخاً) دار الكتب العلية – ط١ – بيروت – ١٩٩١ – ص١٥ .

(٤٤٧) – زيتون : تاريخ المماليك ص ١٧٤- ١٧٥ .

(٤٤٨) – سلام : المرجع السابق ج١ ص ١٢٤ .

(٤٤٩) - المقريزي : السلوك ج٢ ص ٢٣٧ .

(٤٥٠) - (السيوطي) : جلال الدين عبد الرحمن (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) تح محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية – ط١ – صيدا – ٢٠٠٤ – ج٢ ص ٧٥ .

١ – تشجيع السلاطين والأمراء للعلم والعلماء :

اشتهر السلاطين الأيوبيون بميلهم الفطري إلى العلم ، فقربوا إليهم العلماء والفقهاء والشعراء ، وحضروا مجالسهم ، وشاركوا في أبحاثهم ، وناظروهم في مسائلهم ، واسترعوهم إلى قصورهم لمسامرتهم ومنادمتهم ولأجل ذلك نهضت الحياة الفكرية خلال العصر الأيوبي.(٤٥١)

فقد بنى نور الدين مدرسة خاصة لدراسة الحديث النبوي الشريف ، وكان أهل العلم عنده بمنزلة سامية ، واستقدمهم إليه من البلاد الشاسعة . (٤٥٢)

ولا نعجب إذا ظهرت من بني أيوب أعلام في مختلف ضروب المعرفة فهم رواد وسلطة بالإضافة إلى أنه كان منهم العالم ، والأديب ، والمؤرخ ، والشاعر . (٤٥٣)

وجاء سلاطين المماليك ، فأظهروا عطفاً كبيراً على الدين وغيرة على رجاله . كما كانوا يبالغون في الإكثار من إنشاء المدارس ودور العلم ، ويتوّخون من إقامتها جعلها مثوىً لهم بعد موتهم . (٤٥٤) وقد جعل سلاطين المماليك للعلماء هالة كبيرة ، وأقاموا لهم وزناً كبيراً ، وبجّلوهم وقدّروهم في مسائل كثيرة ، واستشاروهم في أمور الدولة الكبرى ، وسمعوا شكواهم ، وأجابوا مطالبهم . (٤٥٥)

ومارس المماليك سلطانهم من خلال العلماء ، الذين كان منهم القاضي والمحتسب وأعوانهما ، وكذلك أدار العلماء الأوقاف التي عادت للمدارس والمساجد والأربطة ، ويمكن القول إن العلماء كانوا هم السلطة التنفيذية الداخلة والمؤثرة على الجماهير العامة والمنحازة بحكم مصالحهم والمتعاطفة مع السلطة المملوكية .(٤٥٦)

وقدم لنا ابن تغري بردي وصفاً للسلطان الظاهر بيبرس وقال : " كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً، ويقول : سماع التاريخ أعظم من التجارب " (٤٥٧) ، وذكر المقريزي أنه : " مولّع بعلم النجوم " (٤٥٨) وبعد الظاهر بيبرس وجد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بما فيه من شدة البادرة وحسن النادرة ، يطارح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرط . (٤٥٩) والأمثلة على ذلك كثيرة لا داعي لذكرها جميعاً .

وهكذا ضرب العلماء أحسن الأمثال للناس ، ووضعوا لهم أفضل قدوة يقتدون بها ، فرغب كثير من أبناء الشعب في طلب العلم ووهبوا له نفوسهم ، وسعوا في تحصيله حتى كي يصل الأواخر إلى ما وصل إليه الأوائل ، وبات العلماء حريصين على الشريعة مستزيدين من العلم والفضل ، يبثون هذه الروح في طلاّبهم وناشئتهم لينهجوا نهجهم ويسيروا على طريقتهم.(٤٦٠)

---

(٤٥١) – (شميساني) : حسن (مدارس دمشق في العصر الأيوبي) منشورات دار الآفاق الجديدة – ط١ – بيروت – ١٩٨٣ ص٢٦٨ .

(٤٥٢) – (ابن واصل) : جمال الدين محمد (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) تح: جمال الدين الشيّال ، القاهرة ١٩٥٣ – ج١ – ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

(٤٥٣) – شميساني : المرجع السابق ص ٢٦٨ .

(٤٥٤) – موسى باشا : الأدب في بلاد الشام ص ١٢١ .

(٤٥٥) – رزوق : المرجع السابق – مج٣ – ق١ – ج٢ ص ٢٠-٢١ .

(٤٥٦) - زعرور : الحياة الاجتماعية ص١٠١ .

(٤٥٧) - ابن تغري بردي : النجوم ج٧ ص١٦٢ .

(٤٥٨) - المقريزي : السلوك ج٢ ص ١٠٣ .

(٤٥٩) - (إسماعيل) : شفيق (حقيقة المماليك) دمشق – ط١ – ٢٠٠١ – ص١٢١ .

(٤٦٠) - رزوق : المرجع السابق مج٣ – ق١ – ج٢ ص ٢٥ .

٢- التنافس بين العلماء لتعويض ما أتلفه التتار :

وهؤلاء العلماء كان منهم المفسّر والمحدّث والفقيه والأصولي والمتكلّم ، والنحوي وغيرهم . [٤٦١] بعد أن سقطت بغداد بيد التتار وأبادوا كتبها ومؤلفاتها ، شعر العلماء أنه تقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة من خلال نشر الدين وتجديد العلم لتعويض ما خسرته الأمة الإسلامية من مؤلفات ، وجمع المعارف المشتتة ، وسد الثغرة التي ظهرت نتيجة تدمير بغداد وعلومها . فامتلأت نفوسهم حماسة ، وقاموا بذلك قياماً حسناً ، وخاصة في ميدان التعليم والتأليف ، وازدان عصر المماليك في مصر والشام بنخبة ممتازة من العلماء والأدباء العظام في مختلف الميادين ، بحيث يصعب أن ينافسه عصر آخر [٤٦٢] ، وقد تميز علماء هذا العصر بعدم التخصص ، فالمؤلف يكتب في شتى العلوم ، والعالم الحقّ هو الذي لا يجهل علماً [٤٦٣] . وإن الناظر في كتب الطبقات والتراجم يجدها مليئة بالعلماء في مختلف الميادين .

أما في دمشق فقد وجد طائفة من العلماء المهاجرين من المغرب والأندلس وبغداد وقبلتهم دمشق متشجعة ، حيث أفاءت عليهم من خيراتها وأمنها ، ومنحتهم الفرصة لينموا اهتمامهم العلمي . [٤٦٤]

وقد رأى المستشرق لابيدوس أن هؤلاء العلماء كانوا هم الحملة لشعلة الحضارة العربية الوضّاءة التي كادت تنطفئ بعد سقوط بغداد . وكانوا الدرع الحصين للأمة ، والمكونين الأهم للمجتمع الإسلامي المثقف في الآداب والشريعة والعقائد الإسلامية ، فكانوا قضاة ورجال قانون ، وأئمة ، وفقهاء ، ومدرسين ، وحفظة للقرآن الكريم ، ورواة للأحاديث الشريفة ومتصوفين .

فكان واجبهم الأول هو الحفاظ على تعاليم الإسلام وتعزيز قيمه الأخلاقية ، وقمع الرذيلة والفساد ، ومن ناحية أخرى كانوا مشتركين مع الفئة الحاكمة في الإدارة ، وكذلك كانوا متداخلين مع باقي فئات الناس ، مما مكنهم من ترك أثر مهم وحاسم في هذا العصر . [٤٦٥]

٣- الاعتناء الكبير من قبل السلاطين بأمر اللغة العربية :

شهدت اللغة العربية انهياراً بالغاً في عدد من بقاع العالم الإسلامي نتيجة الغزو المغولي والحروب الفرنجية ، لكن الله منَّ على لغتنا بأن سخّر لها من يحفظها خلال العصر المملوكي من الأدباء ، ولم يتوقف

الأمر على هذا النحو ، بل ازدهرت ازدهاراً كبيراً لأنها كانت لغة رسمية قبل قدوم المماليك . [٤٦٦]

ومرد اهتمام السلاطين باللغة العربية إلى سدّ الثغرة التي عانوا منها نتيجة عجز لغتهم التركية أو الجركسية عن تلبية متطلبات الملك الواسع من ضبط لهذا الملك والسياسة والقضاء والعلوم [٤٦٧] . هذا من جانب، ومن جانب ثانٍ لأنها لغة الدين الإسلامي الذي وصلوا من خلاله إلى عرش السلطنة ،

---

(٤٦١)- (السبكي) : تاج الدين عبد الوهاب (معيد النعم ومبيد النقم) مؤسسة الكتب الثقافية – ط١ – ١٩٨٦ – ص٥٦-٥٧ .
(٤٦٢) – (شلبي) : أحمد (موسوعة التاريخ الإسلامي) مكتبة النهضة المصرية – ط٧ – ١٩٨٦ – ج٥ – ص ٢٧٤ .
(٤٦٣) – العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص ١٥٩ .
(٤٦٤) - زيادة : دمشق في عصر المماليك ص ٢٠١ .
(٤٦٥) - (لابيدوس) : إيرامارفين (مدن إسلامية في عهد المماليك) الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت – ١٩٨٧ – ص ١٨٢-١٨٥ .
(٤٦٦) - العلبي : المرجع السابق ص ١٦٠ .
(٤٦٧) - رزوق : المرجع السابق مج٣ – ق١ – ج٢ ص ٢٦-٢٧ .

وأخذوا من خلاله السمع والطاعة من الناس. أما الجانب الثالث فربما تعلّق بنشأتهم في الرق ، التي زادت من إقبالهم على الشعراء ، وتشجيعهم ليشيدوا بمآثرهم كي ينسى الناس ماضيهم ، ولا يذكروا غير حاضرهم المجيد ، ولذلك شجع الظاهر بيبرس الشعراء فالتقوا حوله وتغنوا بإصلاحاته وجهاده واقتدى به في ذلك غيره ، ومما قيل فيه:

الملك الظاهر سلطاننا نفديه بالمال وبالأهلِ

اقتحم الماء ليُطفى به حرارة القلب من المغلِ [٤٦٨]

وكما أسلفنا فإن اللغة التركية لم تلبِ حاجات السلاطين لذلك التجأووا إلى فئة المتعممين الذين تخرجوا في الدين واللغة ، وبرعوا في الإنشاء والتّرسل ، فاتخذوا منهم بطانة ، وساروا على النهج الذي سار عليه بنو أيوب من قبلهم ، فأفسحوا المجال للعمل والتّرقي في ديوان الإنشاء وأعمال الكتابة والضبط للنابغين من الفئة السابقة الذكر ، حتى كان في أيديهم أسرار الدولة وتسيير شؤونها ، وفي ذلك كله نلاحظ التشجيع على اللغة العربية وعلومها والاشتغال بها .[٤٦٩]

ونود الإشارة إلى أن هناك ديواناً اختص بمن ارتقوا باللغة العربية وبرعوا فيها حتى يحوزوا رئاسته وهذا الديوان هو (ديوان الإنشاء) .

لذلك كله كان لهذا العصر فضل كبير في بقاء العربية لغة حيّة للحياة والدولة ، وعّوض الخسارة التي لحقت الحضارة العربية الإسلامية في المشرق والمغرب ، ولم يعرف له مثيل في الحضارة الإسلامية من حيث الخصب الثقافي والنضج الفكري والغزارة في التأليف والتصنيف والتخصص في التأليف عند الكتاب . وبذلك حافظت اللغة العربية على مكانتها وأصالتها ، وبقيت اللغة العربية لغة الفكر والنتاج ، ولغة الدولة الرَّسمية .

ورغم أن المماليك تحدثوا باللغة التركية ، فقد حافظوا على الآداب العامة للعربية ، وكان اهتمامهم عظيماً باللغة العربية .

٤- الأبنية العلمية :

إن من الأسباب الأساسية والحيوية التي أدت لتنشيط الحركة العلمية إنشاء دور التعليم نظراً لما تضمه من مدرسين وطلاّب ، وكذلك لما يعتمد فيها من دروس [٤٧٠] ، وهي المناخات الملائمة لنمو وازدهار العلم .

---

(٤٦٨) - راجع هذه القصيدة لدى (الكتبي) : محمد بن شاكر (فوات الوفيات) تح : علي محفوض – عادل أحمد عبد الموجود – دار الكتب العلمية – ط١ – بيروت – ٢٠٠٠ – ج١ – ص ٢٥٥ . وستكون هذه الطبعة هي المعتمدة حتى نهاية الرسالة .

(٤٦٩) – رزوق : المرجع السابق مج٣ – ق١ – ج٢ ص٢٧ .

(٤٧٠) - (عز الدين) : محمد كمال الدين (الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة) عالم الكتب – ط١ – بيروت – ١٩٩٠ – ص١٥.

وقد عرفت بلاد الشام ومصر خلال العصر المملوكي ، مراكز عدة ، كان لها جميعها حظ وافر في نشر الثقافة والمعرفة ، واستمرارية الحركة العلمية .

وأشار ابن جماعة إلى اهتمام السلاطين ببناء المدارس حيث قال : " بذلوا اعتناءهم إلى تأسيس المدارس وتعمير المكاتب وإجراء الأوقاف والوظائف للطلبة والعلماء في المدن والقرى لنشر العلوم الشرعية وإحياء المعارف القديمة وتدوين العلوم العصرية " . (٤٧١)

ونستنتج من كلام ابن جماعة أن السلاطين أنفقوا الأموال الطائلة على العملية التعليمية من رواتب العلماء وبناء الأوقاف في المدن والقرى ليس فقط من أجل العلوم الشرعية بل العلوم الأخرى ، الأمر الذي يتطلب بناء الصروح العلمية من أجل قيام العملية التعليمية ، فكان سلاطين المماليك بالمرصاد لتنفيذ هذه المهمة .

وتتمثل الأبنية التعليمية في العصر المملوكي ، فيما أنشئ من مدارس ومساجد للمذاهب الأربعة ، وما شيّد من خوانق وأربطة وزوايا للصوفية . وسوف نتحدث عن هذه المنشآت في دمشق بشيء من التفصيل في موضعها . وإلى جانب المعاهد التعليمية مكاتب صغيرة ملحقة بها ، تعنى بتعليم الصبية مبادئ القراءة والكتابة، وطرفاً من العلوم الأولية وتحفيظ القرآن الكريم ، وتمّهد للالتحاق بالمدارس الجامعة. (٤٧٢)

وهكذا نستطيع القول : أنه خلال عصر المماليك كثرت دور التعليم من مساجد وخوانق وأربطة وزوايا ، وقد أبدى السلاطين عناية كبيرة بهذه الدور ، ومما أعانهم على ذلك كثرة الثروة والرخاء الذي تمتعت به دولة المماليك ، أما الأمر الآخر الذي دفعهم لبناء هذه الدور فكان الخراب والدمار اللذين أوقعهما التتار ببلاد وعلماء المسلمين . (٤٧٣)

٥- الأوقاف :

عملت الأوقاف على تمويل الحركة العلمية ، وقد أسهم فيها الأمراء والشعب على حدٍ سواء ، إذ دأب سلاطين المماليك وأمراؤهم على إقامة العديد من المنشآت الدينية وحبس الأوقاف المغلة عليها ، مما كان سبباً في الإكثار من " طالب العلم ومعلّمه ، بكثرة جرايتهم منها " (٤٧٤) . وقد توسعت الأوقاف في العصر المملوكي وشملت قسماً غير قليل من الأرض والعقارات. وكان الوقف على ثلاثة أنواع :

١- **وقف الذرية** : أي : حبس الأملاك على ذرية المتوفى ومن يعينهم (وهذا النوع ليس له علاقة بالحركة العلمية) .
٢- **الوقف الخير** : وهو حبس الأملاك لصالح المدارس ، والمساجد ، والزوايا ، والخوانق ، وأماكن البر الأخرى ، وهو الذي كان يشكل المورد الرئيسي لطلبة العلم والعاملين عليه ، وقد

---

(٤٧١)- (ابن جماعة) : بدر الدين محمد بن إبراهيم (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم) . تح : محمد هاشم الندوي – دار الكتب العلمية – ط٢ – بيروت – ٢٠٠٥ – ص ١٨٩ .

(٤٧٢) – رزوق : المرجع السابق مج٣ – ق١ – ج٢ – ص٢٧ .

(٤٧٣) - (حمزة) : عبد اللطيف (الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول) الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط٢ – القاهرة – ٢٠٠٦ – ص١٦٣ .

(٤٧٤) - (ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد (تاريخ ابن خلدون) – دار البيان – بيروت – بدون تاريخ – ج٣ ص١٠٢٥ .

كانت الرغبة في الثواب هي الدافع الأول لهذه الأوقاف لأن الإنفاق على طلبة العلم في الإسلام ، هو أفضل أنواع الإنفاق .

٣- وكان هناك ثمة نوع مشترك تخصص فيه الأملاك للورثة ، ومن بعدهم لوجوه الخير. [٤٧٥]

وقد كانت هذه السياسة التعليمية الفردية – إن صحت تسميتها – مجالاً للمنافسة وحب الظهور بين السلاطين والأمراء والقادرين عليها ، وكانت سبيلاً لتخليد ذكرى واقفها ، وطريقاً إلى حفظ بعض الأموال المقطعة في ذرية الواقف قبل عودها إلى السلطان بموته أو لأحد آخر ، وكانت هذه السياسة سبباً في إنعاش البلاد ، بتأسيس عدد ضخم من دور التعليم [٤٧٦] . ولكن بعض الأيدي الفاسدة امتدت إلى الأوقاف ، وعبث بها العابثون ، بعد وفاة مؤسسها، فكان ذلك شراً عليها ، لأنه بذلك يكون مآلها إلى الزوال .

وقد ارتبطت بالأوقاف وظيفة مهمة هي (نظر الأحباس) وكان متوليها هو الناظر في أرزاق الجوامع والمساجد والأربطة والزوايا والمدارس من الأراضي المقررة لذلك ، " وما هو من ذلك القبيل على سبيل البر والصدقة لأناس معينين " على حد قول القلقشندي . [٤٧٧]

إذاً كان للأوقاف الأثر الاقتصادي والاجتماعي الأهم في شتى مجالات الحياة في الدولة ، فمن خلالها تم الإنفاق على المؤسسات التعليمية ودور الثقافة والمشافي والمصحّات[٤٧٨]، وقد كان بناء المؤسسات التعليمية واستمرار العلم فيها ، نتيجة من نتائج ازدهار الأوقاف وانتشارها في العصر المملوكي . [٤٧٩]

٦- حرية تنقل رجال الفكر :

إضافة إلى العوامل السابقة الذكر التي أدت إلى نشاط الحركة الفكرية فهناك سبب آخر كان له أثر واضح برأينا في تنشيط الحركة الفكرية هو الحرية التي تمتع بها رجال الفكر والعلم والأدب في التنقل والإقامة والأخذ والعطاء والتأثر والتأثير في جميع بلدان الدولة المملوكية ، وإن كان أكثرهم ينظر إلى القاهرة نهاية لمطافه ، ولم نستطع الوقوف على إسم علم من أعلام العصر شذّ عن هذه القاعدة ، وساعدهم على هذا تلك التسهيلات التي كان يتمتع بها العلماء في كل بلدة يحلّون فيها من الإقامة والطعام والإكرام والدراسة والتدريس والتوظيف[٤٨٠] ، الأمر الذي جعل من الصعوبة تخصيص عالم بقطر دون سواه ، فالشام ومصر بيئة واحدة في هذا العصر . [٤٨١]

---

(٤٧٥) - العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص١٦٢ .

(٤٧٦) - رزوق : عصر سلاطين المماليك – مج٣ - ق١ – ج٢ – ص٦٤ .

(٤٧٧) - القلقشندي : صبح الأعشى – ج ٤ - ص ٨٨-٨٩ .

(٤٧٨) - (أمين) : محمد (الأوقاف والحياة الاجتماعية) – القاهرة – ١٩٨٠ ص٢٤٢ .

(٤٧٩) - للإطلاع على نموذج للأوقاف راجع (العسلي) كامل جميل (وثيقة مقدسية تاريخية جديدة) مجلة دراسات تاريخية – العددان ٢١-٢٢ – حزيران – ١٩٨٦ – ص ١٨١ – ١٨٣ . وقد قدم الباحث من خلال هذه الوثيقة كتاب الوقف الذي أنشأه الظاهر بيبرس لمقام النبي موسى عليه السلام في مدينة القدس .

(٤٨٠) – نذكر مثالاً على ذلك البدر المارديني محمد بن أبي بكر . راجع (ابن تغري بردي) : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) تح : أحمد نجاتي – دار الكتب ، مصر – ١٩٥٦ ج١ ص١٥٩ . وكذلك ابن حبيب الدمشقي الذي انتقل من دمشق إلى حلب والقاهرة . أنظر الطباخ : أعلام النبلاء ج٥ ص٦٦ .
بالإضافة إليهم كان ابن تيمية الذي انتقل من حران وزار حلب ودمشق والقاهرة . انظر : ابن خطيب الناصرية : الدر المنتخب . تح : حسام الدين الحزوري : ص ١٦٩ وما بعد . وأيضاً ابن الشحنة عبد البر بن محمد الذي تولّى قضاء القاهرة وصار جليس السلطات

وقد ساعدت حرية الانتقال هذه في ربط أجزاء العالم الإسلامي كما ساعدت على تخفيف شعور الاغتراب في نفوس هؤلاء العلماء والأدباء ، وكانت نتيجة لهذا التنقل مظاهر فريدة قد لا توجد إلاّ في التراث العربي والإسلامي ، من ذلك أن العالِم من هؤلاء كان يؤلف في كل بلد يحل به كتباً يرويها عنه تلاميذه فيه ، وقد تجد للعالم الواحد كتباً عدة ألفّ كلاً منها في بلد وتركه ، فنسخه وتداوله تلاميذه [٤٨٢] ، وقد تركت رحلات العلماء هذه على الحياة الفكرية في الحواضر الإسلامية آثاراً كبيرة ، أهمها إعطاء هذه الحياة الفكرية سمات مشتركة على الرغم من اختلاف بيئاتها ، وهذا من أهم ميزات الحركة العلمية في جميع ديار العرب وأقاليمهم .

وأكد ابن خلدون في مقدمته ضرورة الرحلة والانتقال لطلب العلم فقال : " فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال ".[٤٨٣]

ونتيجة للتنقل والشهرة فقد استدعى بعض السلاطين الكثير من العلماء والمحدّثين للأخذ عنهم.[٤٨٤]

ثانياً – مراكز النشاط الفكري في دمشق خلال العصر المملوكي الأول :

دمشق هذه المدينة العريقة بتاريخها العلمي ، سَعَدتْ سعادة كبيرة مثل سعادتها في عصر الأيوبيين بكثرة الأبنية التي خصصت مناهل للعلم ، من مساجد ، ومدارس ، وزوايا ، ورُبُط ، وخوانق ، ومكتبات ، وقد تمتعت دمشق خلال العصر المملوكي بحلقة زاهية من حلقات عصرها ، تمثلت في تأسيس وبناء المناهل العلمية آنفة الذكر وإجراء الأرزاق والمعاليم على مدرسيها وطلاّبها والقائمين عليها .

فمن خلال إلقاء نظرة على كتاب " الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي " يتضح لنا أنه كان في هذه المدينة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين عدد كبير من المدارس تُعلّم المذاهب الفقهية الأربعة : الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي . ويفوق عددها مئة وخمسون مدرسة ، إلى جانب دور القرآن والحديث والمساجد والربط والخوانق ومدارس الطب .

وهذه الصروح العلمية درّس فيها ما يزيد على ألف من كبار العلماء والمشاهير الذين تركوا بعد وفاتهم أثراً يذكر ، أو مذهباً يُعرف ، أو فضلاً ينوه به .

وقد أتى ابن جبير في رحلته الشهيرة إلى دمشق على ذكر لمدارسها ومساجدها وما كان منها من ربط وخوانق وأثنى على المعاملة التي يلقاها المدرسون والطلاب على السواء . وابن شداد أيضاً خصص جزءاً كبيراً من كتابه المعروف باسم " الأعلاق الخطيرة " للتحدث عن مدينة دمشق وما فيها من آثار ومدارس وخوانق وربط وزوايا ومساجد كانت موجودة في عصره . وكذلك أورد محمد كرد علي في كتابه

الغوري وسميره أنظر : (الغزي) : محمد بن محمد (الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة) تح : جبرائيل سليمان جبور – مطبعة المرسلين اللبنانين – ط١ – جونية – لبنان – ١٩٤٩ – ج١ – ص٢١٩ . وغيرهم الكثير من العلماء ، فقد اقتصرنا على نماذج منهم .

(٤٨١) - (بدوي) : أحمد أحمد (الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام) مطبعة نهضة مصر – مصر – ١٩٥٤ ص٤ .

(٤٨٢) - (سلاّم) : محمد زغلول (الأدب في العصر الأيوبي) دار المعارف – ط١ – مصر – ١٩٦٨ – ص ٨٧ .

(٤٨٣) – ابن خلدون : المقدمة – ج٣ – ص ١٢٥٥ .

(٤٨٤) – ابن تغري بردى : المصدر السابق – ج٣ – ص ٢١٠-٢١١ .

" خطط الشام " ذكراً لهذه الصروح العلمية ، وكذلك العلبي في كتابه " خطط دمشق " . [٤٨٥] ورغم كثرة هذه المنشآت التي وجدت في عصر سلاطين المماليك يأتي أحد المستشرقين ليشكك بكل هذه الصروح قائلاً :

" إن تلك اللهجة المفعمة بالحماس للكتاب المسلمين حول مفاتن دمشق ، أمر مبالغ لا يصدق، والحقيقة أنه لا تزال هناك بعض الصروح الزائفة القليلة العدد ، والتي كان منها الكثير في العصور الماضية " . [٤٨٦]

ولا نستبعد مثل هذا الكلام العدواني عن دمشق من المستشرقين ، أما الاستغراب والدهشة والحرج فيما صدر عن باحثين عرب لهم شهرتهم في مجال الفكر ، قال أحدهم : " ودمشق لم يستطع نورها أن يطفئ نور المدينة المنورة ، فبقيت بيئة المدينة تفوقها من حيث العلم الديني، ومن حيث النشاط الفني " ثم يتابع حديثه :

" وانفردت دمشق بالحياة الرسمية ، التي لم تدع لها فراغاً كاملاً للعلم أو الغنى " [٤٨٧] . في حين نراه يمجّد ويعظم دور كلٍ من القاهرة والإسكندرية العلمي . وأشاد بوصف الرحَّالة لهاتين المدينتين [٤٨٨] . وعلى كل الأحوال سنقوم بعرض هذه المراكز الفكرية خلال العصر المملوكي الأول ونتأكد من صحة أقوال هؤلاء . ونبدأ أولاً بذكر المساجد .

(١)- المساجد :

اتخذ التعليم في الإسلام من المسجد مركزاً له منذ إنشائه ، فكان النبي (ﷺ) يجلس في المسجد ، ويتحلّق المسلمون من حوله متلقين العلم عنه . [٤٨٩] ونهج الصحابة والتابعون نهجه ، فعقدوا في المساجد مجالس العلم ، سواء في المدينة أم في سائر الأمصار التي فتحوها ، وأقاموا فيها الجوامع والمساجد . [٤٩٠] فكان المسجد بذلك أسبق المراكز العلمية ، حيث أدى هذه الوظيفة قبل ظهور المدرسة .

وقد عرفت دمشق هذا النوع من المراكز العلمية منذ إنشاء " الوليد بن عبد الملك ، للجامع الأموي ، وأخذت حركة بنيان المساجد والجوامع وعمارتها تزدهر بعده ، بحيث كان منها في دمشق في العصر المملوكي (٣٩٧) مسجداً ، فضلاً عن سائر قراها . [٤٩١]

وظلّت الجوامع والمساجد فيها تؤدي وظيفتها التعليمية إلى جانب ما كان يؤدي فيها من شعائر العبادة – مع وجود المدرسة – . وقد وصف ابن الحاج في مدخله دور المسجد بوصفه مدرسة ، قائلاً : " ... وأفضل مواضع التدريس المسجد ، لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سّنة ، أو تخمد به بدعة ، أو

---

(٤٨٥)- سنعرض محتويات هذه المصادر والمراجع عند الحديث عن المساجد والمدارس والترب والزوايا والخوانق في وقتها .
(٤٨٦) - (مارجوليت) : دافيد صموئيل (القاهرة وبيت المقدس ودمشق) . تر : خالد أسعد عيسى ، أحمد غسان سبانو – منشورات دار علاء الدين – ط١ – دمشق – ٢٠٠٠ – ص٢٢١ .
(٤٨٧) - حمزة : الحركة الفكرية – ص ١٥٦ .
(٤٨٨) - حمزة : المرجع نفسه – ص١٥٧-١٥٩ .
(٤٨٩) - (البخاري) : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (صحيح البخاري) – عالم الكتب – ط١ – بيروت – دون تاريخ – ج١ – ص٣٩-٧٥.
(٤٩٠) – (ابن الحاج) : أحمد بن علي (المدخل) – دار الكتاب العربي – ط٢ بيروت – ١٩٧٢ – ج١ ص٨١ .
(٤٩١) – العلبي : المرجع السابق ص١٦٠ .

يتعّلم به حكم من أحكام الله تعالى علينا ، يحصل فيه هذا الغرض متوفراً ، لأنه موضع مجتمع الناس ، رفيعهم ووضيعهم ، عالمهم وجاهلهم " . [٤٩٢]

ثم تابع قائلاً : " المدرسة لا يدخلها في الغالب إلاّ آحاد الناس بالنسبة إلى المسجد ، لأنه ليس كل الناس يقصد المدرسة ، وإنما يقصد أعمهم المساجد ، وليس كل الناس له رغبة في طلب العلم ، وإذا كان التدريس في المدرسة امتنع توصيل العلم على من لا رغبة له فيه ، والمقصود بالتدريس هو التبيين للأمة ، وإرشاد الضال، وتعليمه ، ودلالة الخيرات ، وذلك موجود في المسجد أكثر من المدرسة ضرورة " [٤٩٣] .

وأهم المساجد التي وجدت خلال العصر المملوكي الأول في دمشق هي : الجامع الأموي ، جامع الأفرم ، جامع تنكز ، جامع السنجقدار ، جامع كريم الدين (الكريمي)، جامع يلبغا ، جامع الشحم ، جامع السلحدار .

وسنقتصر على هذه المساجد وذلك لأنها ما زالت موجودة حتى وقتنا الحاضر ، وتمكنّا من الإطلاع عليها ومشاهدتها بأم العين . ونذكر المساجد المندثرة أيضاً .

آ- الجامع الأموي :

مفخرة دمشق على توالي الأيام ، والمعدود من المصانع العلمية العظيمة . وقد بناه الوليد ابن عبد الملك ، وبوشر ببنائه سنة (٨٧ هـ / ٧٠٦ م) وانتهت الأعمال من عمارته سنة (٩٦ هـ / ٧١٥ م) فكان أجمل مساجد العالم . [٤٩٤]

وإن المراجع لتاريخ دمشق لابن عساكر يجده مليئاً بالأمثلة عن الدور التعليمي الذي قام به المسجد الأموي . فقد أحدث في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان دراسة القرآن التي تسمى (السبع) ، هذه الدراسة أحدثها في دمشق هشام بن إسماعيل المخزومي (والي عبد الملك على المدينة) في قدومه على عبد الملك عام (٨٢ هـ / ٧٠٢ م) [٤٩٥] ، وقد أسهم في هذه القراءة عدد من أعلام ذلك العصر نذكر منهم : ١- إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر[٤٩٦] ، ٢- نمير بن أوس الأشعري [٤٩٧] ، ٣- يحيى بن الحارث الذماري [٤٩٨] .

وعلى الرغم من الدور الذي قام به الجامع الأموي في النشاط الفكري في دمشق إلاّ أننا لم نلاحظ أو نعثر خلال القرون الإسلامية الأولى على أية إشارة لتعليم الصبيان في مسجد دمشق. ويرجع ذلك على الأرجح لعدم رغبة أوائل علماء الشام في إدخال الأولاد إلى المساجد.

---

(٤٩٢) – ابن الحاج : المصدر السابق ج١ ص٨٣ .
(٤٩٣) - ابن الحاج : المصدر نفسه – ج١ – ص٨١ .
(٤٩٤) - (ابن شداد) : محمد بن علي (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) تح : دومنيك سورديل – المعهد الفرنسي – دمشق ١٩٥٢ – تاريخ دمشق – ص٤٣ وما بعدها .
(٤٩٥)- (ابن عساكر) : علي بن الحسن (تاريخ مدينة دمشق) تح : صلاح الدين المنجد – المجمع العلمي العربي – دمشق – ١٩٦٣ – القسم الثاني الذي حققه المنجد ص ٤٩ .
(٤٩٦) – إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ، أبو عبد الحميد الدمشقي . تولى المدينة في عهد عبد الملك بن مروان توفي سنة (١٣١ هـ / ٧٤٨ م) / (الذهبي) : محمد بن أحمد (الإعلام بوفيات الأعلام) تح : رياض مراد ، عبد الجبار زكار ، دار الفكر – ط٢ – دمشق – ١٩٩٣ – ص٦٥ .
(٤٩٧) – نمير بن أوس الأشعري تماضي دمشق ، تابعي جليل ، روى عن أبي الدرداء ، وكان يقول : الأدب من الآباء ، والصّلاح من الله ، توفي سنة (٢٢١ هـ / ٨٣٦ م) / الذهبي : المصدر نفسه - ص ٦١ / ابن كثير : البداية والنهاية : ج٩ – ص ٣٠٩.
(٤٩٨) – يحيى بن حارث الذماري ، الغساني الدمشقي ، من المشتغلين بالقراءات السبع . توفي سنة (١٤٥ هـ / ٧٦٢ م) .
الذهبي : المصدر السابق - ص٧٠ / الذهبي : السير ج٦ ص١٨٩ / ابن كثير : البداية والنهاية ج١ ، ص٩٤ .

فقد روي عن أبي الدرداء وأبي أمامة الباهلي أنهما سمعا رسول الله (ﷺ) يقول : " جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ، وسل سيوفكم ، وإقامة حدودكم ، ورفع أصواتكم وخصوماتكم ، وأجروها في الجمع واجعلوا على أبوابها المطاهر " . [٤٩٩]

إن إطلاق كلمة الدراسة على (القراءات السبع) أوقع الباحثين الذين لم يطلعوا على كتاب (تاريخ دمشق) لابن عساكر في الخطأ فيما يتعلق ببداية التعليم في الجامع الأموي ، وأخصّ منهم الدكتور أحمد رمضان أحمد الذي أكد " أن دراسة السبع تعد بداية التدريس في مسجد دمشق " . [٥٠٠] وقد رأينا أن التعليم النظامي وغير النظامي بدأ في جامع دمشق منذ إنشائه ، وأن دراسة (السبع) ليست إلاّ لوناً من ألوان النشاط الديني والفكري التي حفل بها هذا المسجد . ولم يتوقف دور الجامع الأموي خلال هذا العصر علمياً ، بل تابع هذا الدور خلال العصور اللاحقة .

وصف ابن جبير وابن بطوطة اللذان زارا دمشق وزارا مسجدها الكبير وقدما لنا وصفاً مشتركاً عن العملية التعليمية التي تتم فيه فقال ابن جبير : " وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم ، كل يوم إثر صلاة الصبح ، لقراءة سبع من القرآن دائماً ، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية ، يقرؤون فيها من سورة الكوثر إلى خاتمة القرآن " . [٥٠١]

وقد قدم إجراء معيشة يوم لكل شخص يحضر هذا المجلس ، وقد وصل عدد الحاضرين إلى (خمسمائة إنسان) على حد قول ابن جبير . [٥٠٢]

كذلك وجد في الجامع حلقات لتدريس الطلاب ، وأعطي للمدرسين إجراء كبير ، وكان فيه زوايا لكافة المذاهب الفقهية ، فهناك المقصورة الحنفية ، ومقصورة الخضر خصصت للحنابلة ، ومقصورة الشافعية . [٥٠٣]

وفي عصر ابن جبير وجدت " مقصورة للمالكية في الجانب الغربي من المسجد ، يجتمع فيها الطلبة المغاربة . ولهم إجراء معلوم " . [٥٠٤]

وأما بالنسبة لتعليم القرآن ، فثمة عادة تربوية تتعلق بطريقة تلقين الصبيان كتاب الله مفادها أن هؤلاء – عكس عادة المغاربة – لا يكتبون القرآن في الألواح ، بل يلقنونه الطفل تلقيناً عن طريق القراءة والاستظهار . ومعلم القرآن هو غير معلم الخط . [٥٠٥]

ولعل أبرز الذين تولوا التدريس بالجامع الأموي ، شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن أبو شامة المقدسي، الفقيه المقرئ النحوي المحدث ، توفي سنة (٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م) ، كتب الكثير من العلوم

---

(٤٩٩) - ابن عساكر : المصدر السابق ج١٣ ، ص٢٨٦ . ترجمة العلاء بن كثير . روى الحديث عن مكحول عن الصحابة الثلاثة .

(٥٠٠) - (أحمد) : أحمد رمضان (المسجد الأموي بدمشق بين الحقيقة والأسطورة ، كما جاء في تاريخ دمشق لابن عساكر) . بحث ملقى في الاحتفال بمؤرخ دمشق ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته . دمشق ١٩٧٩ – وزارة التعليم العالي ص١٩١ .

(٥٠١) - ابن جبير : الرحلة ص ٢١٧ .

(٥٠٢) – ابن جبير : المصدر نفسه ص ٢١٧ .

(٥٠٣) – (المحمد) : فضل عبد الكريم (تراث الأمويين المعماري والغني) – المطبعة الأهلية – ط١ – حمص – ٢٠٠٤ – ص٤١-٤٣ .

(٥٠٤) – ابن جبير : المصدر السابق ص ٢١٧ .

(٥٠٥) - ابن بطوطة : الرحلة ص ١١٢ .

، وأتقن الفقه ، ودرّس وأفتى ، وبرع في العربية ، ودرس التاريخ في حلقة خاصة في الجامع الأموي . [٥٠٦]

كما فسّر القرآن في الجامع الأموي العلاّمة المفسر إسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير الدمشقي الفقيه الشافعي ، توفي سنة (٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) ، والذي صنّف التصانيف الكثيرة في التفسير والتاريخ والأحكام . [٥٠٧]

وهكذا قام المسجد الأموي بدور مهم على كل صعيد حتى تطور التعليم ، وانتقل منه إلى المدرسة التي أصبحت حاجة ملحّة لكثرة طلاب العلم . ولتكاثر المدارس لا زال الجامع يأخذ دوره وله طلابه ، وله نفقاته من مال الوقف والواقفين ، لأن الوقف يعتبر عصب الحياة للمؤسسات التعليمية في الدولة الإسلامية . [٥٠٨]

وبما أن المسجد الأموي أدى دوراً تربوياً بارزاً بالنسبة لأهل دمشق والشام والجماعة الإسلامية عامة ، يستحق أن يدرج ضمن المساجد الجامعة الأولى في الإسلام .

ب- جامع الأفرم :

يعد من الجوامع الهامة التي بنيت في دمشق ، يقع شرقي تربة العادل كتبغا في قاسيون[٥٠٩]، أسفل ما يسمى بجادة الباشكاتب [٥١٠] . بناه سنة (٧٠٦ هـ /١٣٠٦ م) الأمير جمال الدين آقوش الدواداري المنصوري الأفرم، نائب السلطنة المملوكية بدمشق (٦٩٨ – ٧٠٩ هـ / ١٢٩٨ – ١٣٠٩ م) ، الذي عُرِف عنه حسن السيرة والأخلاق العالية ، والشجاعة ، وقد دافع عن دمشق ببسالة أيام غزو التتار سنة (٧٠٢ هـ/١٣٠٢م). واستمر بنيابة دمشق مدة إحدى عشرة سنة . توفي سنة (٧١٦ هـ / ١٣١٦ م) ، بعد إصابته بداء الفالج الذي أقعده مدة من الزمن[٥١١] .

وذكر ابن كثير في حوليات سنة ست وسبعمائة أنه : " رتب فيه خطيباً يخطب يوم الجمعة ، وهو القاضي شمس الدين محمد بن أبي العز الحنفي " [٥١٢] وبقي هذا الجامع على وضعه حتى سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ حيث هُدِّم كلياً ، وبُني بالإسمنت والحجر الأبيض .

جـ – جامع تنكز :

جامع معروف ومشهور ، ينسب لنائب دمشق الأمير سيف الدين تنكز الناصري [٥١٣] ، الذي دخل دمشق في العام (٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) ، وتولى نيابتها لمدة تسع وعشرين سنة إلاّ ثلاثة أشهر[٥١٤].

---

(٥٠٦) – (السبكي) : محمد بن عبد الوهاب (طبقات الشافعية الكبرى) ، تح : عبد الفتاح محمد الحلو – محمود الطناجي – هجر للطباعة - ط٢ - الجيزة - مصر – ١٩٩٢ – ج٨ ص١٦٥ .

(٥٠٧) – (الحسيني) : محمد بن علي (ذيل تذكرة الحفاظ) تح : حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية – بيروت – ج١ ص٣٥١-٢٥٣ وابن حجر : المصدر السابق – ج١ ص٤٤٥-٤٤٦ .

(٥٠٨) – جيدة : المدارس ونظام التعليم ص٧١ .

(٥٠٩) - (ابن العماد) : شهاب الدين أحمد بن محمد (شذرات الذهب في أخبار من ذهب) تح : محمود الأرناؤوط – دار ابن كثر – بيروت – ١٩٩١ – ج٨ – ص٢٦ / (العلموي) : عبد الباسط (مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس) – دار الآفاق – دمشق – دون تاريخ – ص٢٣٠ .

(٥١٠) – جادة الباشكاتب : من جادات حي المهاجرين بين جادتي شورى والشمسية ، ولم تسعفنا المصادر المطبوعة بأي معلومات عن هذا الباشت كاتب الذي نسبت إليه الجادة التي نشأت مع نشوء حي المهاجرين خلال سنوات (١٨٩٥ – ١٩٠٧) .
(الإيبش ، الشهابي) : أحمد ، قتيبة (معالم دمشق التاريخية) وزارة الثقافة – ط١ – دمشق – ١٩٩٦ ص١٠٧ .

(٥١١) – ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات ج٩ – ص ٣٣١-٣٣٦ .

(٥١٢) – ابن كثير : المصدر السابق – ج١٤ ص٢٣٥ .

(٥١٣) – (العلبي) : أكرم (خطط دمشق) دار الطباع – ط١ – دمشق – ١٩٨٩ – ص ٣١٦ .

وقد تباينت الآراء حول تقييم شخصية تنكز [٥١٥] ، واختلف المؤرخون في وصفه ، فمنهم من قال بأنه سفّاك دماء وقليل الرأفة ، ومنهم من قال فيه بأنه عادل ، صاحب ديانة ، غير أننا نرجح الرأي الثاني . [٥١٦]

أما الجامع ، فقد اختار له تنكز أجمل موقع في دمشق على نهر بانياس ، وقام الشيخ أحمد بن تيمية بتحرير قبلته [٥١٧] ، ويقول بعضهم إنه كان في موقعه كنيسة للقديس نقولا . [٥١٨]
وللمسجد منارة جميلة هي أقدم منارة مملوكية في دمشق ، وفيه روائع فنية في المحراب ومدفن تنكز ، ولكن إدارة الأوقاف قررت سنة (١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م) هدم واجهة المسجد الجميلة ، ثم هدمت المسجد كله ، وأقامت مكانه محلاّت تجارية ، بني فوقها المسجد بالإسمنت والحجر الأبيض ، وشتّان بين مسجد تنكز الحقيقي وهذا البناء الغريب . الذي جاء خالياً من كل فن وذوق وأصالة ، بعدما قضي على الأصالة الحقيقية[٥١٩] وقيل في هذا الجامع :

وافيت جامع دنكز فوجدته متفرداً بين الرياحين وحيداً
لم صرت وحدك ههنا فأجابني لما جمعت الحسن صرت فريداً [٥٢٠]

د – جامع كريم الدين (الكريمي) :

ينسب هذا الجامع إلى القاضي كريم الدين عبد الكريم وكيل الخاص السلطاني ، أحد كبار رجال الدولة في عهد السلطان الناصر ، وقد شيّد جامعه في منطقة الميدان الفوقاني ، في العام (٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) [٥٢١] واستمر العمل فيه مدة عام . وقد أرَّخ ابن كثير في تاريخه لبناء هذا الجامع فقال : " وفي سنة (٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) – في شعبان تكامل بناء الجامع الذي أنشأه كريم الدين وحضر فيه القضاة والأعيان وخطب فيه شمس الدين محمد بن عبد الواحد الحرّاني الحنبلي الأسدي ، وهو من الصالحين الكبار ذوي الزهادة والعبادة والنسك والتوحيد وطيب الصوت وحسن السمعة " [٥٢٢] وقد عُرف هذا الجامع بعدة تسميات (كريم الدين – الكريمي – القبيبات) . [٥٢٣]

وعُرف عن كريم الدين حبه للعلماء وتقريبهم إليه ، وحُكِيَ أنه اشترى لجامعه نهراً وأجراه إليه ففرح الناس به ونصبوا عليه الأشجار ، وعَمل حوضاً كبيراً بجانب الجامع يشرب منه الناس والأنعام [٥٢٤].
وقد تعرض الجامع للهدم أكثر من مرة ثم رمّم . وكان فيه سنة (١٣٢٨ هـ / ١٩١٠م) " عشر غرف

---

(٥١٤) – (النعيمي) : عبد القادر بن محمد (الدارس في تاريخ المدارس) أعد له إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية – ط١– بيروت – ١٤١٠ هـ - ج٢ – ص٣٢٧ وما بعد .
(٥١٥) – تنكز : اسم تركي يعني البحر ، كان يكتب بالعثمانية القديمة : دكيز ويلفظ دنيز . لأن الكاف المتبوعة بياء تلفظ نوناً ، أما إقلاب الدال والتاء في اسم دنكز باللهجة العامة الدمشقية فهو جدياً على إقلاب الدال تاء في اللسان التركي مثال أحمد Ahmet ، الايبش – الشهابي : معالم دمشق التاريخية ص ١٤ .
(٥١٦) – انظر مصادر ترجمته لدى : الكتبي : فوات الوفيات - ج١ ص٢٦٢ – ٢٦٩ ، ابن حجر : الدرر – ج ١ ص٣٠٨-٣١٢. (الشوكاني) : محمد بن علي (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) وضع حواشيه خليل المنصور – دار الكتب العلمية – ط١ – بيروت– ١٩٩٨ – ج١ – ص١١٦-١١٩ .
(٥١٧) - النعيمي : الدارس ج ٢ ص٣٢٧ .
(٥١٨) - (واتسينجر) : كارل (الآثار الإسلامية في مدينة دمشق) تر : قاسم طوير ، دمشق – ١٩٨٤ ص١١٠ .
(٥١٩) - العلبي : المرجع السابق ص٣١٧ / دهمان : ولادة دمشق في عصر المماليك ص١٦٣ .
(٥٢٠) – (بدران) : عبد القادر (منادمة الأطلال) – دمشق – ١٩٦٠ ص٣٧ .
(٥٢١) – ابن حجر : الدرر – ج٣ ص٤٠-٤٥ / المقريزي : السلوك – ج٣ ص٩٤ .
(٥٢٢) – ابن كثير : البداية والنهاية – ج١٤ ص٨٦ .
(٥٢٣) – العلبي : خطط دمشق - ص٣٢٦ .
(٥٢٤) - راجع مصادر ترجمته عند : ابن كثير : المصدر السابق– ج١٤ ص١١٦ / ابن حجر : المصدر السابق – ج٢ ص٢٢٤– ٢٤٥. وايتسنجر : الآثار الإسلامية - ص ٢١١ .

أرضية بدون طلاب وشيخه الشيخ " عبد الرزاق بيطار " مما يدل على الدور التعليمي الذي قام به هذا الجامع . [٥٢٥]

هـ – جامع السنجقدار :

جامع السنجقدار [٥٢٦] من مشيدات العصر المملوكي ، بناه نائب السلطنة المملوكية في دمشق الأمير أرغون شاه الناصري سنة (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) [٥٢٧] ، وقد ارتقى في المناصب حتى أصبح نائب دمشق التي دخلها في سنة (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) عقب إعدام نائبها السابق يلبغا , وقد نال أرغون من العز والجاه ما ناله كبار النوّاب في دمشق ، لكنه قتل في ظروف غامضة سنة (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) وذلك قبل إتمام بناء الجامع كما حصل مع يلبغا قبله . لكن مكانة جامع السنجقدار لم تكن بمثل مكانة جامع يلبغا لعدم قيام الجمعة فيه .[٥٢٨] وجدد المسجد سنة (١٠٠٨ هـ/١٥٩٩ م) ، ثم جدد سنة (١٢٣٦ هـ/ ١٩٠٨م) والمسجد اليوم بحالة جيدة . [٥٢٩]

و – جامع السلحدار :

يقع هذا المسجد في منطقة الميدان التحتاني شمالي ساحة القدم حالياً . وهو من المساجد الصغيرة التي شيّدت في دمشق ، ويحوي على تربة تضاهي المسجد من حيث الحجم . وسمّي بالسلحدار نسبة إلى نائب دمشق الأمير أراق بن عبد الله السلحدار المتوفى سنة (٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م) والمعلومات عن هذا الأمير قليلة ونادرة ربما لعدم قيام أحداث هامة في عهده ، باستثناء ذكر تشييده لمسجد السلحدار [٥٣٠] ، والذي يُعرف أيضاً بمسجد سيدي صهيب[٥٣١] ، كما يعرف باسم قره أصلان . وقد تم بناؤه سنة (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) . [٥٣٢]

ز – جامع يلبُغا :

شيّد الجامع نائب دمشق يلبُغا اليحياوي ، كان مقرباً من السلطان الناصر محمد ، لكن يلبغا كان يتبع سياسة متذبذبة ، ووصل إلى منصب نائب دمشق سنة (٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م)، واستمر فيها حتى قتل سنة (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) . [٥٣٣]

شيد جامع يلبغا في الجهة الشمالية الغربية خارج أسوار المدينة القديمة على ضفة نهر بردى في المنطقة المعروفة باسم الميدان الأخضر والمرج [٥٣٤] ، الذي يطل من الجنوب حالياً على ساحة المرجة

---

(٥٢٥) ـ العلبي : المرجع السابق ص٣٢٧ .
(٥٢٦) ـ السنجقدار : كلمة تركية مؤلفة من (سنجق – دار) وتعني حامل الراية ، ومرده إلى كون السنجق (العلم) كان يحمل في احتفال محمل الحج ، وكانوا يدورون بالسنجق حول ضريح العباس بن مرداس المدفون في المسجد فيقال (السنجق دار) . ابن بطوطة : الرحلة ج١ ص٦٥ .
(٥٢٧) ـ ابن حجر : المصدر السابق - ج١ ص٣٥٠ / ابن العماد : الشذرات – ج٦ ص١٦٦
(٥٢٨) – ابن كثير : المصدر السابق – ج١٤ ص٣٣١ / ابن طولون : إعلام الورى ص٢٠ .
(٥٢٩) – العلبي : المرجع السابق ص٣٣٤ .
(٥٣٠) – ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات – ج٦ ص ٢١١ / ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور - ج١ ص٣٢١.
(٥٣١) – سيدي صهيب : نسبة إلى الصحابي الجليل صهيب بن سنان الرومي أحد السّباقين الأربعة إلى الإسلام ، المتوفى سنة (٣٨هـ / ٦٦٠م) ويقال إنه مدفون في التربة ، مع أنه دفن في المدينة المنورة . كما ذكرت المصادر ، ومن غير المعقول أن ينقل جثمانه إلى دمشق في ذلك الوقت / (العامري) : يحيى بن أبي بكر (غربال الزمان في وفيات الأعلام) – دار الخير – ط١ – دمشق – ١٩٨٥ – ص٣٩ .
(٥٣٢) – العلبي : المرجع السابق ص٣٠٨ .
(٥٣٣) ـ ابن كثير : البداية والنهاية – ج١٤ ص٢٢٢ / ابن أيبك الصفدي : أمراء دمشق ص١١٥ / ابن حجر : الدرر – ج١٤ ص٤٣٦ / دهمان : ولاة دمشق ص١٨٨ .
(٥٣٤) ـ (الحصيني) : محمد أديب تقي الدين (منتخبات التواريخ لدمشق) دار الآفاق – ط١ – بيروت – ١٩٧٩ – ج٣ ص١٠٤٣ .

، ومن الشرق على السوق العتيق ومن الشمال والقرب على منطقة البحصة [٥٣٥] . وقد وصف ابن حبيب الحلبي هذا الجامع فقال :

يمّمْ دمشق ومِلْ إلى غربيّها والمح معاني حسنْ جامع يلبغا

من قال من حسدٍ رأيت نظيره بين الجوامع في البلاد فقد لغا [٥٣٦]

ح – جامع مئذنة الشحم :

تعد مئذنة جامع الشحم من المآذن المملوكية القديمة المشهورة ، المؤرخة على حقبة المماليك البحرية ، والمشيدة في القسم الغربي والأوسط من مدينة دمشق القديمة إلى الجنوب من سوق مدحت باشا [٥٣٧] ، وقد كانت المنطقة تدعى قديماً (قبة الشحم) و(حارة مئذنة الشحم) كما ذكرها ابن طولون [٥٣٨] .

وذكر ابن عبد الهادي أن اسم الشحم جاء من بعض الصناعات التي تركزت في هذا الحي (كصناعة الصابون والشمع) وهي يدخل الشحم في تركيبها . [٥٣٩]

وذكرت إحدى الوثائق الشرعية اسم واقف الوقف على هذا الجامع وهو الحاج عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحيم الشحم ، فعرف الحي باسم الجامع . [٥٤٠]

وجاء في اللوحة التأسيسية للمئذنة في العام (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) أنها شيدت على يد علي الكسّار [٥٤١]، كما هو منقوش على اللوحة التأسيسية. [٥٤٢]

ط – جامع غبريال :

أما هذا المسجد والمساجد التي تليه فإنها اندثرت ولا أثر لها اليوم وهذا المسجد من مساجد دمشق المملوكية ، عمّره أولاً يوسف القرعوني سنة (٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م) في محلّة الملاح خارج الباب الشرقي [٥٤٣] ، وهي اليوم قرب تربة ضرار بن الأزور . [٥٤٤]

في سنة (٧٠١ هـ / ١٣٠١ م) بنى شمس الدين غبريال ، ناظر الدواوين بدمشق ، مكان جامع القرعوني جامعاً جديداً ، وفي سنة (٧١٨ هـ / ١٣١٨ م) أقيمت فيه الخطبة للمرة الأولى على يد الشيخ شمس الدين بن التدمري [٥٤٥] وقد كان هذا الجامع موجوداً في حدود سنة (١٣٣٠ هـ / ١٩١١

---

(٥٣٥) - العلموي : مختصر تنبيه الطالب - ص٢٣ / (المرادي) : محمد خليل (سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر) تح : أكرم العلبي – دار صادر – ط١ – بيروت – ٢٠٠١ – ص٩٨٠ .

(٥٣٦) – العلبي : خطط دمشق ص ٣٦٤ .

(٥٣٧) – الإيبش ، الشهابي : المرجع السابق ص٤٧٤ / (الشهابي) : قتيبة (مآذن دمشق) وزارة الثقافة – ط١ - دمشق – ١٩٩٣ ص١٥٣ .

(٥٣٨) – (ابن طولون) : محمد الصالحي (حارات دمشق القديمة) - دمشق . د . ر . ت . ط – ص٢١ .

(٥٣٩) – (ابن عبد الهادي) : يوسف (ثمار المقاصد في ذكر المساجد) تح : محمد أسعد طلس – بيروت – ١٩٤٣ – ص٢٤٩ .

(٥٤٠) – سجلات محكمة الباب ، سجل ٢٥٠ – وثيقة ٣٠٥ .

(٥٤١) – لم نقف له على ترجمة في المصادر المتوفرة بين يدينا .

(٥٤٢) - العلبي : المرجع السابق ص ٣٤٨ / وايتسنجر : المرجع السابق - ص١٦٩ .

(٥٤٣) – مجلة المجمع العلمي بدمشق – العدد ١٧ – ص٧٢ .

(٥٤٤) – العلبي : خطط دمشق - ص٣٤٣ .

(٥٤٥) – ابن كثير : البداية والنهاية – ج١٤ ص٩٥ .

م) [٥٤٦]. وزالت آثار المسجد ، بعد زيادة عرض الشارع في تلك المنطقة ، بحيث ساوى الطريق سقف المسجد الذي اندثر ولم يبق منه شيء .

وواقف هذا المسجد هو عبد الله بن صنيعة القبطي ، الذي أسلم سنة (٧٠١ هـ /١٣٠١م) وباشر نظر الدواوين[٥٤٧] بدمشق حتى مات سنة (٧٣٤ هـ/١٣٣٣م)[٥٤٨].

ي – جامع البزوري :

في منطقة قبر عاتكة ، قرب مقبرة الدقاق من الغرب ، ويظن أن بانيه هو محفوظ بن معتوق البزوري البغدادي التاجر ، المتوفى سنة (٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م) وتم بناء هذا الجامع سنة (٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م)[٥٤٩]. ولم يبق من هذا الجامع اليوم سوى الجزء الشمالي من السقف . [٥٥٠]

ك – جامع الشهرزوري :

هذا الجامع كان كنيساً لليهود ، ومكانه إلى الجنوب الشرقي من جامع البيانية في الباب الشرقي ، وجُعل مسجداً باسم الشهرزوري الفقيه الإمام إبراهيم بن محمد الواعظ المتوفى سنة (٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م) . [٥٥١]

وتم تجديد هذا الجامع سنة (٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م) وجُعلت فيه خطبة ، وهو أول جامع ضمن السور تقام فيه الجمعة بعد الجامع الأموي .

والذي قام بتجديده ، هو نائب الشام سيف الدين منكلي بغا بعدما أصبح رثّ الهيئة . وقد أدى افتتاح هذا الجامع وإقامة الجمعة فيه إلى التساهل في أمرها ، حتى صارت معظم مساجد دمشق داخل السور تقام فيها الجمعة[٥٥٢] وقد تعجب ابن كثير من ذلك وقال : " لم يتفق ذلك فيما أعلم منذ فتوح الشام إلى الآن " [٥٥٣]. ولا أثر اليوم لهذا الجامع إطلاقاً [٥٥٤] .

وإن المراجع لكتاب ابن عساكر (تاريخ دمشق) يجد أنه كان في دمشق زمن ابن عساكر مائتان واثنان وأربعون مسجداً ، وفي أرباضها مائة وثمانية وسبعون ، والمجموع أربعمائة وعشرون مسجداً . [٥٥٥]

وبعده بقرن ذكر ابن شداد أسماء ستمائة وستين مسجداً بدمشق ، أي أن العدد زاد أكثر من مائتي مسجد ، وذلك بسبب نشوء مناطق جديدة مثل الصالحية وغيرها . [٥٥٦]

---

(٥٤٦) – العلبي : المرجع السابق ص٣٤٤ .
(٥٤٧) – ناظر الدواوين : هو الذي يعبر عنه بناظر الدولة ، ويشارك الوزير في التصرّف في الأمور المالية والرواتب والتصرفات العامة . دهمان : معجم الألفاظ ص١٥٠ .
(٥٤٨) – ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص٢١٠ / ابن حجر : الدرر – ج٢ ص١٥٩-١٦٠ .
(٥٤٩) - ابن عبد الهادي : ثمار المقاصد - ص١٩٧ .
(٥٥٠) - العلبي : المرجع السابق ص ٣١٢ .
(٥٥١) – النعيمي : الدارس – ج٢ ص٢٤٤ .
(٥٥٢) – ابن عساكر : تاريخ دمشق – ج١ ص٦٤ .
(٥٥٣) – ابن كثير : المصدر السابق : ج١٤ ص ٣١١-٣١٢ .
(٥٥٤) – العلبي : المرجع السابق ص٣٣٧ .
(٥٥٥) – ابن عساكر : المصدر السابق – ج٢ ص٧٨ .
(٥٥٦) – ابن شداد : المصدر السابق – قسم دمشق ص١٦٦ .

وذكر الإربلي ، الذي توفي بعد ابن شداد بنصف قرن تقريباً أنه كان بدمشق داخل السور مسجدان جامعان تقام فيهما الجمع والجماعات (الأموي وجامع القلعة) وسبعة جوامع مختصة بالحواضر هي (جامع المصلى – الجراح – غبريال – الزنجارية – القصب – التوبة – تنكز – الثابتية) .

ثم ذكر سبعة جوامع متصلة بالحواضر هي (بيت لاهيا – الحنابلة – الأفرم – كرم الدين – النيرب – المزة – سلحدار) [٥٥٧] أي أن عدد الجوامع الكبرى في دمشق في عهده كانت ستة عشر مسجداً في دمشق وحواضرها وأرباضها ، أي في دمشق الكبرى .

ومن كل هذه المساجد المذكورة لم يبق في دمشق سوى سبعة مساجد ، بالإضافة إلى المسجد الأموي ، ما زالت حتى وقتنا الحاضر ، أي أن الخراب والدمار والإهمال قد طال قسماً كبيراً من مساجد دمشق ، حتى إن المساجد الباقية حتى وقتنا – باستثناء الأموي – في حالة مزرية وهي بحاجة إلى إصلاح وترميم لتحافظ على وجودها .

(٢)– المكاتب :

إلى جانب التعليم في المساجد عرف العصر المملوكي نوعاً من أماكن التعليم ألا وهي المكاتب (الكتاتيب) على نطاق واسع ، وهذه المكاتب كانت على نوعين :

آ– المكاتب الأهلية (الخاصة) :

وكانت هذه المكاتب من إنشاء أولئك الذين وجدوا في أنفسهم القدرة على جعل التعليم مهنة يمتهنونها لكي تكون مصدر رزقهم وقوتهم ، وكان تعليم الأولاد في هذا النوع من المكاتب مأجوراً [٥٥٨] ، ويدفع الناس لأصحابها أموالاً مقابل تعليم أولادهم .

ب– المكاتب العامة :

وهذا النوع من المكاتب – الكتاتيب – كان إنشاؤه رهناً بأصحاب النفوذ والثروة من سلاطين وأمراء ووجهاء وتجار وعلماء ... والسبب في إنشائها " ابتغاء مرضاة الله وثوابه " .

أما التعليم فيها فكان مجاناً وبدون أجر للأيتام ، والمعدمين (الفقراء) [٥٥٩] ، ما لم يبلغوا حد البلوغ ، أو خمس عشرة سنة على حد تقدير بعض الواقفين [٥٦٠] ، وقد كفل لها نظامها معاليم عينية ونقدية – وفي بعض الأحيان نقدية فقط ، للإنفاق منها في أثناء دراستهم في المكتب، من ألواح ومحابر وأقلام ومداد ، فضلاً عن الكساء والفرش ، وما يجري عليهم من الجوامك [٥٦١] أو ينفق عليهم في المواسم والأعياد من الطعام والسكر والحلويات والفواكه والأضحيات . [٥٦٢]

---

(٥٥٧) - (الإربلي) الحسن بن زفر (في رحاب دمشق) تح : محمود دهمان – دمشق ١٩٨٢ – ص٨٠ .

(٥٥٨) - ابن الحاج : المدخل – ج٢ ص٣٢١-٣٢٢ .

(٥٥٩) – (إبراهيم) : عبد اللطيف (نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش) – مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – مج٢٨ – ص١٧٢-١٧٣ .

(٥٦٠) - هذا ما ورد في حجة وقف (السلطان الغوري) إلى " تعيين طبيب يزور المكتب كل شهر من أجل الكشف على من يظن به البلوغ منهم – للأولاد – فمن وجده بلغ أخبر بحاله ، فيقرر الناظر غيره مكانه " . حجة السلطان الفوري – رقم (٨٨٣ – أوقاف) دار الوثائق – القاهرة .

(٥٦١) – الجوامك : جمع جامكية وهي مرتب خدم الدولة من العساكر والموظفين . دهمان : معجم الألفاظ ص ٥٦ .

(٥٦٢) – إن المراجع لكتب الحوليات والخطط يستطيع ملاحظات هذه الأمور من حجج الوقف الخاصة بمكاتب الأيتام أو مكاتب السبيل . فقد أشار القريزي في كتابه السلوك (ج١ ص٢١٣) : إلى أن " الظاهر بيبرس بنى بجانب مدرسته في القاهرة مكتباً للسبيل – وقرر

وكان هذا النوع من المكاتب يعرف " بمكاتب الأسبلة " وذلك لأن إقامتها في علو السبيل، أو قريباً منه ، و " مكاتب الأيتام " لأن الأصل في إقامتها هو انتظام الأيتام في صفوفها للدراسة فيها . ونتساءل هنا من هم المشرفون والقيمون على عمل هذه الكتاتيب ؟ وما الذي درسه الأولاد فيها ؟ وممّ تألفت هذه الكتاتيب ؟

في الواقع إن كل عمل في الدنيا له مشرفون وقيّمون عليه ، وهذه الكتاتيب كان يشرف عليها ، معلمون ، ومقرئون ، وحافظون ، ومثقفون ، كانوا قد اتخذوا من التعليم حرفة للتكسب والعيش . ويبدو أن أولياء الأطفال كثيراً ما كانوا ينتقون لأطفالهم الكتاتيب ذات الشهرة . ويتفقون مع مدرسيها على الأجر أسبوعياً أو شهرياً أو سنوياً ، وكذلك ما يجب تعليمه لأبنائهم . وكانت العناية متجهة في هذه الكتاتيب إلى القرآن الكريم ، قراءةً وتحفيظاً وتفسيراً وجيزاً لغريبه ، وترتيلاً وتجويداً ، ثم إلى الأخذ بمبادئ بعض العلوم والآداب التي تعين على فهم آياته . (٥٦٣)

وكان الصبي عند انتهائه من مرحلة الكتاتيب بنجاح ، يلحق بحلقة من حلقات المسجد التي كانت تعنى بتدريس كتب سهلة بعيدة عن التعقيد ، فإذا وفّق في ذلك انتقل إلى حلقة أخرى في نفس المسجد أو في مسجد آخر ، حيث كان يجلس إلى الشيوخ المشاهير الذين كانوا يدّرسون كتباً عالية المستوى في علوم مختلفة كثيرة التفاصيل، والتعمّق ، والإحاطة . وكان أكثر الكتاتيب عبارة عن غرفة أو غرفتين ذات أثاث وفرش متواضع ، تتسع لعدد الأطفال المُشْرف عليهم المعلّم . (٥٦٤)

وأشار السبكي إلى ناحية هامة وخطيرة كانت نتيجة من معلم الكتاب ألا وهي فساد عقيدة الصبيان والسبب في ذلك فساد عقيدة معلمهم . (٥٦٥)

وقد أوضح ابن الحاج أن القائمين على هذه الكتاتيب من مؤدبين ، أو معلمين ، أو فقهاء، يجب أن يكونوا مؤهلين لما يقومون به من عمل ، تأهيلاً خلقياً وعملياً . ويجب أن يكونوا من حاملي القرآن الكريم و " من أكثر في التعظيم لشعائره ، والمشي على سنن من تقدمه في تعظيم ذلك وإكرامه " (٥٦٦) ، ثم تابع قائلاً : و " أن يكون على أكمل الحالات ، ومن ذلك أن يكون متزوجاً ، لأنه إن كان صالحاً في نفسه فالغالب إسراع سوء الظن في هذا الزمان بمن كان غير متأهل ... فإذا كان متأهلاً انسد باب الكلام والوقيعة فيه " (٥٦٧) . وكذلك حدّد " ابن الأخوة " شروط المعلم بقوله :

" يشترط في المعلم أن يكون من أهل الصلاح والعفّة والأمانة ، حافظاً للكتاب العزيز ، حسن الخط ، ويدري الحساب ، والأولى أن يكون مزوجاً ، ولا يُسمح لعازب بفتح مكتبٍ لتعليم الصبيان ، إلاّ أن يكون

لمن فيها من أيتام المسلمين الخبز في كل يوم والكسوة في فصلي الشتاء والصيف " . وكذلك أورد المقريزي في خططه (ج٢ ص٣٧٩) أن : " الظاهر بيبرس أجرى على أبناء السبيل – في المكتب الذي أقامه إلى جانب مدرسته – " المجريات ، والكسوة " .

(٥٦٣) - (شلبي) : أحمد (تاريخ التربية الإسلامية) دار الكشاف – ط١ – القاهرة – ١٩٥٤ ص٣٧٦ .

(٥٦٤) - شمسياني : مدارس دمشق ص٨-٩ .

(٥٦٥) - السبكي : معيد النعم : ص١٠١ .

(٥٦٦) - ابن الحاج : المدخل – ج٢ ص٣١٥ .

(٥٦٧) - ابن الحاج : المصدر نفسه – ج٢ ص ٣٢٩ .

شيخاً كبيراً وقد اشتهر بالدين والخير ، ومع ذلك لا يؤذن له بالتعليم إلاّ بتزكية مرضية وثبوت أهلية لذلك " . [٥٦٨]

ومدة الدراسة في هذه المكاتب كانت مرهونة بمدى استعداد الصبي وميوله وقابليته للتعليم، أو بلوغ سن المراهقة وحد البلوغ . على حين حُدِّدَ المدى الزمني للدراسة – بشكل واضح – من طلوع الشمس حتى العصر ، مع استثناء يومي الثلاثاء أو الخميس أو أيهما ، حيث تكون الدراسة فيهما أو في أحدهما حتى الظهر، مع جعل الجمعة عطلة رسمية ، فضلاً عن المسامحة قبل العيد وبعده بيوم أو يومين أو ثلاثة . [٥٦٩]

كما سُمح للصبيان بالانصراف إلى منازلهم خلال ساعات الدراسة لفترات الراحة والغداء، [٥٧٠] والسبب في ذلك منع الأولاد من إحضار النقود والأطعمة إلى المكتب ، مراعاة للصبي الفقير الذي يرجع إلى بيته منكسر الخاطر متشوشاً في نفسه ، غير راض بنفقة والديه أو من يتولى أمره . [٥٧١]

ومن ذلك نستنتج أن هذا مبدأ اجتماعي روعي فيه درء جملة من المفاسد ، منها إلى جانب هذا مراعاة آداب الشريعة في التحرز من الأكل على الطريق وفي الأسواق بحضرة من يعرف ومن لا يعرف . كما أنه تساهل مع الصبيان في القدوم إلى المكتب في أثناء التقلبات الجوية (العواصف – المطر – البرد) لما في ذلك من إضرار بصحة الصبيان [٥٧٢] . فقد كان التغيب عن المكتب لهذه الأسباب لا يقطع معلوم الصبية أو المعلم .

وهنا لابد من الإشارة إلى قضية مهمة شاعت بين كثير من المؤرخين المحدثين ألا وهي أن الكتّاب لم يضم إلا الذكور من الصبيان ، وأن كلمة الصبيان لا تشمل " البنات " ، مع أن استقراء المصادر تنفي هذا الشيء ، ومما يؤكد صحة كلامنا قول ابن الحاج : " ... وينبغي له إن كان له ولد صغير أن لا يترك أحداً من صبيان مكتبه يحمله ذكراً كان أو أنثى ، والمنع في الأنثى أشد " [٥٧٣]

وقد شاع اسم " المؤدب " لمعلّم الكتاب كما ورد في معظم وثائق الوقف ، بينما تسميه الوثائق " الفقيه " ، هذا بالإضافة إلى لقب " المعلم " [٥٧٤] .

ووجدنا بعض المصادر المتقدمة على العصر المملوكي قد أطلقت على المعلم صفات مثل (الحماقة ، والغفلة) ، ونظرت إليه بعدم الاحترام والتقليل من شأنه [٥٧٥] ، فإن الأمر خلال العصر المملوكي كان مختلفاً تماماً ، إذ لم تورد المصادر التي اطلعنا عليها خلال البحث ما تقلل من قيمة معلم الكتّاب ، أو نعته بأي صفة تحقيرية .

---

(٥٦٨) - ابن الأخوة : معالم القربة ص١٧٠ .
(٥٦٩) - ابن الحاج : المصدر السابق – ج٢ ص٣٢١ .
(٥٧٠) - ابن الحاج : المصدر نفسه – ج٢ ص٣٣٢ .
(٥٧١) - ابن الحاج : المصدر نفسه – ج٢ ص٣٢٢ .
(٥٧٢) – إبراهيم : نصان جديدان ص ١٧٤ .
(٥٧٣) - ابن الحاج : المصدر السابق – ج٢ ص٣٣٢ .
(٥٧٤) - إبراهيم : نصان - ص٢٤٣ .
(٥٧٥) - (الجاحظ) : أبو عمر عثمان بن بحر (البيان والتبيين) تح : عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – ط٤ – ١٩٥٧ – ج١ ص٢٤٨ ، ٢٥٣ .
(ابن الجوزي) : عبد الرحمن بن علي (أخبار الحمقى والمغفلين) منشورات المكتب التجاري – بيروت – دون تاريخ – ص١٤٠-١٤٣ .

ونستطيع أن نشّبه معلم الكتاب خلال عصر المماليك بمعلم المدرسة الابتدائية في عصرنا من حيث أنه يعلم الأطفال العلوم الأساسية ، ويشرف على تربيتهم وتوجيههم وتأهيلهم إلى المرحلة الأعلى .

وإلى جانب المعلم في الكتّاب وجدت وظيفة أخرى هي وظيفة العريف الذين يعينه المؤدب – المعلم – في عمله بالمكتب ، ويقوم في أثناء غيبته ، ويساعده في تعليم الأطفال ، إذ يعرضون ألواحهم عليه ويستمع إلى قراءاتهم ، وكان من أنبغ الأطفال في المكتب . ويشترط فيه من الشروط والأوصاف ما يجب أن تتوافر في المؤدب . ويكون عمله ابتداءً من نهاية عمل المؤدب [٥٧٦] لمساعدة المتخلفين من الأطفال الذين تتفاوت أعمارهم الزمنية والعقلية، ويقوم بحفظ النظام والإشراف على تعليم الصبيان في أثناء غيبة المؤدب . [٥٧٧]

وكان لهذا العريف راتب شهري ، وهذا ما أكدته وثائق الوقف ففيها : " يرتب الناظر شخصاً يكون عريفاً، مساعداً للمؤدب ، يصرف له في كل شهر مرتباً ، وهو من جملة الأيتام في المكتب ، ويستمر فيه ولو كان بالغاً " . [٥٧٨]

ومن خلال هذه الوثيقة نستطيع الوقوف على حقيقة ثانية ألا وهي أنه في مكاتب السبيل يجب أن يكون العريف من الأيتام ، ويستمر في وظيفته ولو بلغ سن البلوغ .

(٣)– المدارس :

يمكن أن نعد بلاد ما وراء النهر أسبق البلاد الإسلامية في تأسيس المدارس الفقهية المنفصلة عن المساجد، حيث ظهرت فيها أول مدرسة في حدود سنة (٢٩٠هـ/٩٠٢ م)[٥٧٩] أي في أواخر القرن الثالث . وبعد مرور ستين سنة تقريباً ، ظهرت في (نيسابور) أقدم مدرسة فقهية وحديثية أسسها العرب وهي مدرسة حيان بن محمد الأموي [٥٨٠] . وفي سنة (٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م) أسست مدرسة ابن حسان التميمي البستي .

وتوالى تأسيس المدارس من قبل السلاطين والأمراء والتجار العرب والعجم ، حتى بلغ عدد هذه المدارس سنة (٤٥٩ هـ / ١٦٠٦م) ما ينوف على ثلاثين مدرسة ، قبل تأسيس المدرسة النظامية في بغداد والنظاميات الأخرى . [٥٨١]

أما بالنسبة إلى مدينة دمشق – موضوع بحثنا – فإن أول مكان منفصل عن المسجد كانت تلقى فيه الدروس ، ويخصص له المدرسون والأوقاف هو (خانقاه دويرة حمد) [٥٨٢] . أما المدرسة الثانية فهي (دار القرآن الرشائية) [٥٨٣] التي أسست في أوائل القرن الخامس تقريباً ، والمدرسة الثالثة هي

---

(٥٧٦) – إبراهيم : المرجع السابق ص١٥٣ .
(٥٧٧) – البناهين : نظام التربية الإسلامية – ص٢٩٧ .
(٥٧٨) - إبراهيم : المرجع السابق – ص١٥٣ .
(٥٧٩) - (معروف) : ناجي (المدارس الفقهية) مجلة المجمع العلمي العراقي العدد ٢٢ – ص١٥ .
(٥٨٠) - حسان بن محمد بن أحمد ، أبو الوليد القرشي ، إمام أهل الحديث بخراسان في زمانه أزهدهم وله تصانيف مفيدة توفي سنة (٣٤٩ هـ/ ١٠٠٩ م) / الذهبي : الإعلام ص١٤٨ / ابن كثير : المصدر السابق ج١١ ص٢٢٧ .
(٥٨١) – (معروف) : ناجي (علماء النظاميات ومدارس الشرق الإسلامي) بغداد – ١٩٧٣ – ص٤ .
(٥٨٢) - الخانقاه الدويرية بدرب السلسلة بباب البريد ، بينت سنة (٤٠١ هـ/ ١٠١٠م) وبانيها هو حمد بن عبد الله بن علي الدمشقي. النعيمي : الدارس ج٢ ص١١٥ / ابن العماد : الشذرات – ج٥ ص١١ / العلبي : خطط دمشق ص٣٩٧ .
(٥٨٣) - دار القرآن الرشائية أقدم دار للقرآن الكريم في دمشق . أنشأها الشيخ رشا بن نظيف بن ما شاء الله الدمشقي ، سنة (٤٠٠ هـ / ١٠٠٩م) وتقع بدرب الخزاعية شرق المدرسة الجقمقية .

(المدرسة الصادرية)[٥٨٤] التي تعد أول مدرسة فقهية حنفية في دمشق ، ولكن ليس أقدم مدرسة فيها ، لأنها بنيت سنة (٤٩١ هـ /١٠٩٧م) وليس سنة (٣٩١ هـ/ ١٠٠٠م) ، كما خيل لبعضهم ، لأنه لا يمكن أن تقام في دمشق مدرسة حنفية ، وهي ما تزال تحت حكم الفاطميين الشيعة . [٥٨٥]

وما إن سقطت الخلافة الفاطمية في مصر على أيدي الأيوبيين حتى قام " صلاح الدين الأيوبي " وخلفاؤه في السلطة بإنشاء المدارس العديدة والسبب في ذلك من وجهة نظر الدكتور محمد عز الدين " لمحاولة القضاء على آثار المذهب الشيعي " [٥٨٦] ، ولم يكتفوا ببناء المدارس الجديدة بل قاموا بتحويل المدارس الموجودة من قبل لتكون مراكز للتعليم ، يُنْشر من خلالها المذهب السنّي [٥٨٧] . ونستطيع القول تحليلاً لهذه المعطيات أن دمشق تحظى بنصيب الأسد من هذه المدارس نظراً لمكانتها لدى الحكام الأيوبيين .

وبالفعل ازدهرت دمشق في عهد الأيوبيين ، وكثرت فيها المدارس لنشر الثقافة الإسلامية وما يتصل بها من علوم ، وأسس هذه المدارس ملوك بني أيوب وأمراؤهم وولاتهم ، وأزواجهم ، وبناتهم ، وأخواتهم من الأميرات والخواتين ، والنساء العالمات ، وعلماؤهم ، وقضاتهم ، وموسوروهم ، وتجارهم . [٥٨٨]

وأحياناً تبنى المدارس من أجل إمام كبير ذي شهرة علمية عظيمة ، من ذلك لما ملك نور الدين محمود بن زنكي حلب سنة (٥٤١ – ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ – ١١٧٣ م) أوقف مسجد السراجين فيها مدرسة للحنفية واستدعى لها من دمشق برهان الدين أبا العباس علي بن الحسن البلخي فولاّه تدريسها . وفوّض نور الدين أمر الربط والزوايا والأوقاف بدمشق وحمص وحلب إلى أبي الفتح شيخ الشيوخ عمر بن علي بن حمويه . [٥٨٩]

ولما جاء عصر المماليك ورثوا الأيوبيين في نظامهم التعليمي ، وسارت المدارس في عصرهم بخطى سريعة نحو التقدم ، وتعددت اهتماماتها ، وازدادت أعدادها وذلك لأسباب أهمها :

١- الرعاية التي قدّمها سلاطين المماليك لتلك المدارس .

٢- مساهمة السلاطين وكبار الشخصيات في إنشاء وتمويل المدارس .

٣- ذكاء وإقدام سكان بلاد الشام وإقبالهم على العلم ، ونستنتج ذلك من خلال قول ابن خلدون : " وأما المشرق ، فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافعة ، وبحوره زاخرة ، لاتصال العمران الموفور ، وإن كانت الأمصار العظمية التي كانت معادن العلم قد خربت ، مثل بغداد والبصرة والكوفة ، إلاّ أن الله – تعالى – قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك وانتقل العلم منها إلى

النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٩٩ / العلبي : المرجع السابق ص٦٦ / وايتسنجر : المرجع السابق ص٢٣٩ .

(٥٨٤) – هي أقدم مدرسة فقهية في دمشق ، بناها شجاع الدولة صادر بن عبد الله ، وهي ليست أقدم مدرسة في دمشق كما يعتقد ، فالرشائية أقدم منها وبنيت سنة (٤٩١ هـ / ١٠٩٧ م) / النعيمي : الدارس – ج١ ص٤١٣-٤١٤ / العلبي : المرجع السابق ص ١٩٦-١٩٧ .

(٥٨٥) – العلبي : المرجع نفسه ص٥٢ .

(٥٨٦) – عز الدين : الحركة العلمية ص ٤٥ .

(٥٨٧) – (الشّيال) : جمال الدين (تاريخ مدينة الاسكندرية في العصر الإسلامي) – دار المعارف – القاهرة – دون تاريخ – ص٤٧-٤٩ / (سالم) : السيد عبد العزيز (تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي) / دار المعارف – القاهرة – د . ر . ت . ط- ص٢١٨-٢١٩ .

(٥٨٨) – شمسياني : المرجع السابق ص٣٣ .

(٥٨٩) – (الذهبي) شمس الدين محمد بن أحمد (العبر في خبر من غبر) تح : صلاح الدين المنجد – مطبعة حكومة الكويت – ط٢ – ١٩٦٦ – ج٤ ص٢٣٢ . / النعيمي : المصدر السابق – ج٣ ص١٥١-١٥٦ / ابن العماد : المصدر السابق – ج٤ ٢٥٩ .

عراق العجم بخراسان وما وراء النهر من المشرق ، ثم إلى القاهرة وما إليها من المغرب ، فلم تزل موفورة وعمرانها متصلاً ، وسند التعليم بها قائماً . فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعلّم العلم ، بل وفي سائر الصنائع ، حتى يظن كثير من رحّالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى " . (٥٩٠)

٤- توفير الدولة الأمور المعاشية للعلماء ، مما دفع بالعملية التعليمية نحو التقدم والتنافس في هذا المجال، الأمر الذي تطلب بناء مدارس ولم يخفِ ابن جبير دهشته من توفر سبيل العيش للعلماء الأمر الذي دفعه لمخاطبة المغاربة قائلاً : " فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا ، فليرحل إلى هذه البلاد ، ويتغرّب في طلب العلم ، فيجد الأمور المعينات كثيرة ، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة ، وهو أكبر الأعوان وأهمها "(٥٩١).

وتطور عدد المدارس في دمشق حيث بلغت في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي أكثر من (٩٠) مدرسة ، وفي القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بلغت (١١٥) مدرسة للقرآن والحديث والفقه (٥٩٢) . وقد تعددت أنواع هذه المدارس ، من دور القرآن الكريم ، ودور الحديث الشريف ، ودور القرآن الكريم والحديث الشريف معاً ، ومدارس الفقه (شافعي – حنفي – مالكي – حنبلي) ، مدارس الصوفية ، والمدارس الطبية .

وهكذا نجد أن سلاطين المماليك وأمراءهم اهتموا بإنشاء المدارس اهتماماً عظيماً ، حتى إن أحد المؤرخين المعاصرين جعلها رمزاً ومظهراً من مظاهر السلطة حيث قال : " أصبح من المعتاد طوال عصرهم، أن يكون من آثار السلطان مدرسة أو أكثر . وينطبق هذا القول على معظم سلاطين المماليك ، كما لو كانت هذه المدارس من مظاهر السلطة وشعارها " . (٥٩٣)

بالإضافة إلى ما ذكرنا ، بحث المماليك عن طريقة لتخليد ذكراهم في تاريخ دمشق ، فوجدوا في تأسيس المدارس خير وسيلة لتحقيق ذلك ، وقد تأنقوا في فن بنائها فكانت غاية من الروعة وعلى سبيل المثـــال

" المدرسة الظاهرية – المدرسة الجقمقية " .

أما من حيث التصميم الهندسي للمدرسة ، فقد روعي فيه الأغراض التعليمية ، وإنشاء مساكن للطلبة والمدرسين وغيرهم من أصحاب الوظائف ، وبعض الملحقات من القاعات والحواصل ، وغالباً ما يكون بجوار المدرسة سبيل للماء ، يعلوه مكتب لتعليم الأيتام ، بالإضافة إلى وجود مدفن ، للمنشئ وأسرته . (٥٩٤)

---

(٥٩٠) - ابن خلدون : المقدمة – ج٣ ص١٠٢٢ .
(٥٩١) - ابن جبير : الرحلة ص٢٢٧ .
(٥٩٢) - هذه الإحصائيات استخرجناها من النعيمي : الدارس / العلبي : خطط دمشق .
(٥٩٣) - (عبد العاطي) : عبد الغني (التعليم في مصر زمن الأيوبين والمماليك) دار المعارف – ط١- القاهرة – ١٩٨٤ ص١٦٩.
(٥٩٤) - النباهين : نظام التربية - ص٢٥٣ .

وسنبدأ بدراسة هذه المدارس – موضوع بحثنا خلال العصر المملوكي الأول – وفق المنهجية التالية :

١– ذكر اسم المدرسة ٢– موقعها ٣– منشئها ٤– سنة إنشائها ٥– مصيرها في الوقت الحاضر .

٦– الترتيب التاريخي لهذه المدرسة حيث سنوردها الأقدم فالأحدث وستكون البداية مع دور القرآن الكريم .

آ- دور القرآن الكريم :

وهذه الدور كانت مخصصة لتحفيظ القرآن الكريم غيباً في مدة أقصاها ثلاث سنوات ، وإذا لم يتمكن الطالب من ذلك يفصل من المدرسة ، ويؤتى بغيره . وهذه الدور تشبه في وقتنا الحالي من حيث غايتها معاهد " الأسد " لتحفيظ القرآن الكريم . [٥٩٥]

وقد استغربنا لقلة عدد دور القرآن الكريم في دمشق خلال العصر المملوكي الأول حيث بلغ عددها (ستاً) فقط و قد أعطى العلبي تفسيراً لذلك فقال : " إن مدارس الفقه كانت تخرج المدرسين والموظفين الرسمين للدولة ، الذين كانوا يتولون التدريس ، أو يمارسون القضاء ، أو الوظائف الأخرى مثل الإمامة والخطابة والشهادة والفُتيا ، في حين كانت مدارس القرآن الكريم لا تخرّج إلاّ مدرسي القرآن الكريم وحفظته " [٥٩٦] ونستنتج من الكلام السابق أن مدارس الفقه كان خريجوها من ذوي الدخل الكبير ، وهو ما نستطيع أن نشبهه في وقتنا الحاضر بالإقبال الكبير للطلبة على الكليات الطبية لما يدره الطب من أموال كثيرة على المشتغلين فيه.

ومن جهة أخرى ، كان القرآن الكريم يدرس في كل مكان تقريباً ، في المسجد والمدارس الفقهية ذاتها ، وفي الترب والخوانق والربط والزوايا . ولم يكن أحد من العلماء أو الطلاب يجهل القرآن الكريم مهما كانت المدرسة التي تخرّج منها [٥٩٧] . وأولى هذه الدور وهي الأقدم كانت :

١– دار القرآن الكريم الوجيهية :

موقعها : تقع هذه المدرسة قرب الخاتونية الجوانية في رأس باب البريد [٥٩٨] ، مقابل العصرونية [٥٩٩] .

منشئها : أنشأها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا التنوخي ، رئيس الدماشقة ، وشيخ الحنابلة ، ولد سنة (٦٣٠ هـ /١٢٣٢ م) . وتوفي سنة (٧٠١ هـ/١٣٠١ م) . [٦٠٠] وأما بالنسبة إلى مصير هذه المدرسة فقال عبد القادر بدران : " فلما فتحت سوق الحميدية أُدخل هذا البناء في السوق ولم يبقَ له رسم ولا طَلَلْ ، ومهما يكن فإنها إما أن تكون قد صارت دوراً للسكن أو غير ذلك " [٦٠١]. وأكد ذلك

---

(٥٩٥) - العلبي : خطط دمشق - ص٥٦ .
(٥٩٦) - العلبي : المرجع نفسه - ص٥٦ .
(٥٩٧) - (ابن قاضي شهبة) : تقي الدين أبو بكر (تاريخ ابن قاضي شهبة) تح : عدنان درويش – المعهد العلمي الفرنسي بدمشق – ط١ – ١٩٧٧ – ج٣ – ص٣٦ .
(٥٩٨) – باب البريد : في الجهة الغربية من الجامع الأموي ، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى بريد بن سعد بن عاد . البدري : نزهة الأنام ص١٦ .
(٥٩٩) – النعيمي : الدارس – ج١ ص١٣ ، (بدران) : عبد القادر (منادمة الأطلال) – دمشق – ١٩٦٠ – ص٢٢ / كرد علي : خطط الشام – ج٦ ص٧١ / العلبي : المرجع السابق - ص٧٣ .
(٦٠٠) – ابن حجر : الدرر – ج٤ ص٣٨-٣٩ / النعيمي : المصدر الدارس - ج١ ص١٤ .
(٦٠١) - بدران : منادمة الأطلال - ص٢٢ .

كرد علي بقوله : " درست وأصبحت مخازن ودوراً " [٦٠٢] أما العلبي فقال : " ولا أثر للمدرسة اليوم [٦٠٣] " .

٢- دار القرآن السنجارية :

موقعها : تقع تجاه باب الجامع الشمالي المسمى باب الناطفانيين . [٦٠٤]

منشئها : علاء الدين بن إسماعيل بن محمود السنجاري . وهو تاجر مشهور ، كان رجلاً ديناً جيداً وفيه برّ ، توفي سنة (٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م) . بنى هذه المدرسة (٧٣٥ هـ/ ١٣٣٤ م) ، ورتّب فيها جماعة يقرؤون القرآن ويلقنونه [٦٠٥] . قال أبو الفداء صاحب المختصر فيه :

ما مات منْ هذي صفاتُهْ فوفاةُ ذا عندي حياتُه

إن ماتَ هذا صورةً أحيت معنى سالفاته [٦٠٦]

ونقل كرد علي عن مذكرة الشيخ الإسطواني سنة (١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م) أن السنجارية كانت قد استحالت دوراً ، ولم يبقَ غير بابها وعليه وقفها [٦٠٧] . ولكن هذا الباب أُزيل تماماً سنة (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م) حيث استولى المختلسون على السنجارية بكاملها ، ولو كان هناك من يهتم بالسنجارية وغيرها ، لأمكن بسهولة اكتشاف آثارها . [٦٠٨]

٣- دار القرآن المعبديَّة :

ذكرت في المصادر على أنها دار قرآن فقط ، بينما النعيمي ذكرها ضمن دور القرآن والحديث ، ثم عاد وقال مرة أخرى " إنها دار قرآن فقط " . [٦٠٩] وبناء على ذلك ذكرناها ضمن دور القرآن الكريم .

منشئها : الأمير علاء الدين علي بن معبد البعلبكي المتوفى سنة (٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م) [٦١٠] .

موقعها : شمالي المدرسة العصرونية . وسنة بنائها غير معروفة ولكن جعلت المصادر من سنة وفاة والد منشئها (٧٣٥ هـ /١٣٣٤ م) سنة لإنشائها وذلك لأنه دفن والده داخل دمشق، في تربة وأنشأها له وجعلها دار قرآن . ولا أثر لهذه الدار في وقتنا الحالي . [٦١١]

٤- دار القرآن الأفريدونية :

---

(٦٠٢) - كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص٧١ .
(٦٠٣) - العلبي : خطط دمشق - ص٧٣ .
(٦٠٤) - يقع هذا الباب في الجهة الشمالية للجامع الأموي / العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ١٦٦ .
(٦٠٥) – النعيمي : المصدر السابق – ج١ ص١٤ / ابن العماد : الشذرات – ج٦ ص ٨٨ .
(٦٠٦) – أبو الفداء : المختصر – ج٢ ص٤٧٠ / ابن العماد : المصدر السابق – ج٦ – ص٨٨ .
(٦٠٧) – في سنة (١٣٢٨ هـ/ ١٩١٠ م) كلّف الشيخ عبد المحسن الإسطواني لجنة من العلماء ، كان منهم الشيخ عبد القادر بدران ، مهمتها حصر مدارس دمشق ووصف حالتها ، وقد رفع التقرير إليه ونشر الدكتور صلاح الدين المنجد هذا التقرير في مجلة المجمع العلمي العدد ٤٨ ص٣١٨ .
(٦٠٨) – العلبي : المرجع السابق - ص٦٧ .
(٦٠٩) - النعيمي : المصدر السابق – ج١ ص٩٥ / العلبي : المرجع السابق ص٧١ .
(٦١٠) - لم نعثر له على ترجمة في المصادر المتوفرة بين يدينا . وكذلك ذكر بدران في منادمة الأطلال ص٧٠ : " راجعت ابن عساكر وغيره عن ترجمة واقفها فلم أظفر له بترجمة " وأما بالنسبة لسنة وفاته فهي موجودة لدى النعيمي : المصدر السابق – ج١ ص٩٥.
(٦١١) – بدران : منادمة الأطلال - ص٦٩ / العلبي : خطط دمشق - ص٧٢ .

موقعها : خارج باب الجابية [٦١٢] ، باتجاه الطريق المؤدي نحو مقابر باب النصر [٦١٣] . حيث بنيت على هذا الطريق (طريق الحج) العديد من المدارس والترب والمساجد ، لتخليد أصحابها ، حيث طريق قافلة الحج الشامي . [٦١٤]

منشئها : التاجر الكبير شمس الدين أفريدون العجمي ، توفي في رجب سنة (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) وقد دفن في مدرسته المذكورة آنفاً التي جعلها داراً للقرآن العظيم ، ووقف عليها الأوقاف الجيدة . [٦١٥] وقد بنيت المدرسة سنة (٧٤٤ هـ /١٣٤٣ م) [٦١٦] ، حيث اختلف في هذه الدار أهي دار للقرآن الكريم ، أم أنها " تربة " كما قال النعيمي [٦١٧] ثم ذكر النعيمي في سياق الحديث (أو بها دار قرآن) [٦١٨] بينما باقي المصادر والمراجع ذكرت أنها دار للقرآن الكريم [٦١٩] ، لذلك خالفنا النعيمي الذي أخطأ في تصنيفها ضمن الترب ، وذكرها ضمن دور القرآن الكريم وذكر كارل وايتسنجر : " أنها تعد نموذجاً مستمداً من مخطط المدارس ذات الإيوانات المربعة " . [٦٢٠]

وقد أوقف شمس الدين أفريدون لمدرسته " أوقافاً جيدة " [٦٢١] ومنها : المزرعة المعينية جوار العدمل بالمرج [٦٢٢] ، وبستان معبد بقرية زبدين ، وخمس قطع أراض بقينية [٦٢٣]، وحصة من بستان يعرف بدف الجوز بأرض أرزة [٦٢٤] ، ونصف قرية سكاكة [٦٢٥] من بصرى، وبستانان بقرية عين ترما ، [٦٢٦] وقطع أرض تعرف بحقول العجمي بقرية كفر بطنا[٦٢٧]، والحصة من قاعة الحديثي بقصر حجاج ، والحصة من خان الطحين بباب الجابية ، ومحاكرة ابن الصلاح الغزولي جوار المدرسة البادرائية ، وقاعة النشا تجاه التربة من الغرب، وربع القيسارية وبستان بتل كفر سوسيا ، وبيت بزقاق الداراني ، وبيت بزقاق حمام الزين ، وقاعة واصطبل داخل باب الفراديس بزقاق الماء ، وبيتان تجاه القصاصية ، وبيتان بقرية كفر سوسيا أيضاً ، وشيء بتل الشعير . [٦٢٨]

ونستنتج من هذه الأوقاف مدى الإنفاق الكبير الذي أنفقه هذا التاجر لخدمة كتاب الله وخدمة دارسيه ، والمكانة الكبيرة والاهتمام العظيم الذي حظي به كتاب الله آنذاك ، وتدل كثرة هذه الأوقاف

---

(٦١٢) – باب الجابية منسوب إلى قرية الجابية وكانت في الجاهلية مدينة عظيمة ، وهذا الباب في ثلاثة أبواب ، سُدّ اثنان منها وبقي الباب القبلي الصغير ، وكان يتصل بباب شرقي بثلاثة طرق . أوسعها للمشاة ، وثانيها لمن يركب دابة ويتجه نحو الشرق ، والثالث لمن يتجه نحو الغرب / البدري : المصدر السابق ص٧١ / (مؤلف مجهول): (سلسلة التواريخ) باريس – ١٨١١ – ج٢ ص١٥٧.

(٦١٣) – تقع هذه المقابر في الجهة الغربية من مدينة دمشق في باب الجناز أو (باب النصر أو باب دار السعادة) .
العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص٥٠ .

(٦١٤) – العلبي : المرجع السابق - ص٦٠ .

(٦١٥) – ابن كثير: البداية والنهاية – ج١٤ ص٢١٣ / ابن حجر: الدرر – ج٢ ص٢٢٨ / النعيمي : الشذرات – ج٢ ص١٧٥.

(٦١٦)- ذكر ابن حجر سنة بنائها (٧٤٤ هـ/١٣٤٣ م) أما العلبي فقال (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) .

(٦١٧) – النعيمي : الدارس – ج٢ ص١٧٥ .

(٦١٨) – النعيمي : المصدر نفسه – ج٢ ص١٧٥ .

(٦١٩) – ابن كثير : المصدر السابق – ج١٤ ص٢١٣ / ابن حجر : المصدر السابق - ج١ – ص٢٨٨ .

(٦٢٠) - وايتسنجر : الآثار الإسلامية - ص٣٤٧ .

(٦٢١) - ابن كثير : المصدر السابق – ج١٤ ص٢١٣ / الحسيني : ذيل العبر ص١٥٣ .

(٦٢٢) – لم نعثر لها على ترجمة في المصادر المتوفرة بين يدينا .

(٦٢٣) – قرية كانت مقابل الباب الصغير من مدينة دمشق ، صارت كلها بساتين / الحموي : معجم البلدان – ج٤ ص٤٢٥ .

(٦٢٤) - منطقة بدمشق فيها بساتين وأرحية دائرية وما يزيد على الحاجة ، الحموي : المصدر نفسه – ج١ ص١٤٩ .

(٦٢٥) - سكاكة : إحدى القريات التي منها دومة الجندل / الحموي : المصدر نفسه – ج٣ ص٢٢٩ .

(٦٢٦) - عين ترما : ويقال عين ثرماء ، قرية في غوطة دمشق / الحموي : المصدر نفسه – ج٤ ص١٧٧ .

(٦٢٧) – كفر بطنا : من قرى غوطة دمشق ، وقد سكنها معاوية بن أبي سفيان الأموي / الحموي : المصدر نفسه – ج٤ ص٤٦٨ .

(٦٢٨) - النعيمي : المصدر السابق – ج٢ ص١٧٥-١٧٦ .

على أنها تعطي أموالاً كثيرة أي أن ذلك دليل على كثرة الناس المشتغلين بهذه الدار من (مؤدبين – معيدين – طلاب) .

والدار ما زالت حتى اليوم في مكانها [٦٢٩] ، بعيدة عن عبث الأيدي على عكس ما حدث مع قسم كبير من الآثار الخالدة في دمشق ، وفيها قبر الواقف ، وتتخذ مصلّى لأهل الحي ، وهي بحاجة إلى ترميم ، وأن تعاد لها وظيفتها الأولى كدار لتدريس القرآن الكريم .

٥- دار القرآن العنبرية :

موقعها : قبلي تربة ستيتة زوجة الأمير تنكز بمحلة الخواصين ، [٦٣٠] زقاق المحكمة اليوم .

منشئها : الطواشي صفي الدين عنبر ، مولى ابن حمزة ، وهو أحد الأجواد الكبار ، وقد جددت وأكملت في أوائل سنة (٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) [٦٣١] والملفت للنظر أن النعيمي لم يذكرها في تاريخه . وعثرنا عليها لدى ابن كثير لذلك توجّب ذكرها ، كذلك ذكرها العلبي في خططه وأما هذه الدار في وقتنا الحالي فقد تحوّلت إلى محلاّت تجارية ، مثلها مثل باقي الآثار الإسلامية القائمة في ذلك الزقاق . [٦٣٢]

٦- دار القرآن الهلالية :

منشئها : كانت داراً للمعلّم سنجر الهلالي صاحب الأموال الجزيلة ، وقد بدأ ببناء هذه المدرسة منذ سنة (٧٦٠هـ / ١٣٥٨ م) ، ولكن السلطان الناصر حسن [٦٣٣] صادره وصادر المدرسة [٦٣٤] ، ورسم بأن يعمّر مكانها مكتب للأيتام ، وأن توقف عليهم الأموال اللازمة ، ورسم أيضاً بأن يكون في كل مدرسة في دمشق مكتب للأيتام . [٦٣٥]

وقامت المدرسة بالفعل وجاءت في غاية الحسن ، ولكنه ما إن مات السلطان الناصر حسن حتى عادت إلى سنجر الهلالي[٦٣٦] . وفي سنة (٧٨٣ هـ /١٣٨١ م) وقف حفيده غرس الدين خليل بن محمد [٦٣٧] هذه المدرسة لتكون داراً للقرآن الكريم ، ورتب بها إماماً ومؤذناً وأيتاماً ومعلماً . [٦٣٨]

ولكن خربت كما خربت دمشق على يد تيمورلنك سنة (٨٠٣ هـ /١٤٠٠ م) ، حتى جاء جقمق، فجعلها مدرسة للحنفية [٦٣٩] ، وحملت اسم المدرسة الجقمقية خلال العصر المملوكي الثاني .

---

(٦٢٩) - العلبي : خطط دمشق ص٦٠ .
(٦٣٠) - ابن كثير : المصدر السابق – ج١٤ ص٢١٩ .
(٦٣١) - ابن كثير : المصدر نفسه – ج١٤ / العلبي : المرجع السابق ص٧١ .
(٦٣٢) - العلبي : المرجع نفسه ص٧١ .
(٦٣٣) – الناصر أبو المحاسن حسن بن الناصر محمد (٧٤٨ – ٧٦٢ هـ / ١٣٤٧ - ١٧٦١ م) كان سنّه وقت اعتلائه العرش لم يتجاوز الحادية عشرة ، حكم مصر والشام مرتين الأولى من سنة (٧٤٨ – ٧٥٢ هـ / ١٣٤٧ – ١٣٥١ م) ثم عزل وتولى مكانه أخوه الصالح صلاح الدين بن محمد ، ثم أعيد الناصر حسن إلى السلطة للمرة الثانية سنة (٧٥٥ هـ - ٧٦٢ هـ/ ١٣٥٤– ٧٦١ م) حيث قتل وقيل دفن بمصر وأخفي قبره . وكان شجاعاً ، بطلاً ، عالي الهمة ، محباً لرعيته ، ومشجعاً للفنون والآداب .
المقريزي : السلوك – ج٤ ص٢٥٤-٢٥٥ / ابن تغري بردي : النجوم – ج١٠ ص٢٤٥ وما بعد / ابن إياس : بدائع الزهور – ج١ - ص٢٦١-٢٦٣ / حسن : دراسات في تاريخ المماليك ص١١٠-١١٢ .
(٦٣٤) – قال عنه ابن إياس : " كان كثيراً ما يصادر أرباب الوظائف لأجل المال " / ابن إياس : المصدر السابق – ج١ ص٢٦١ .
(٦٣٥) – النعيمي : الدارس – ج١ ص٣٧٤ .
(٦٣٦) – العلبي : خطط دمشق - ص٧٢ .
(٦٣٧) – هو خليل بن محمد بن سنجر ، غرس الدين بن شمس الدين الهلالي ، واقف الهلالية بالقرب من العزيزية توفي سنة (٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م) . / ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة – ج٣ ص٢٥٤ .
(٦٣٨) – ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه – ج٣ ص٢٥٤ .
(٦٣٩) – ابن قاضي شهبة : المصدر نفسه – ج٣ ص٢٥٤ . / العلبي : المرجع السابق ص٧٣ .

موقعهـا : خـارج بـاب الناطفـانيين ، مكـان المدرسـة الجقمقيـة اليـوم ، وتـاريخ بنائهـا كـان سـنة (٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م) . [٦٤٠]

ولم يذكرها النعيمي ضمن دور القرآن ، بل ذكرها باسم المدرسة الجمقمقية ، مع أنه ذكر بناءها على يد سنجر في بداية الأمر ، ثم ذكر كيف تحولت إلى المدرسة الجمقمية .

٧- دار القرآن التفتازانية :

منشئها : الشريف التفتازاني ، وذلك سنة (٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م) وبناها لتكون دار قرآن .

موقعها : داخل مدينة دمشق ، شمالي المدرسة البادرائية ، جانب حمام الكأس[٦٤١] . أما مصيرها ، فقد تهدمت وتحولّت إلى دور سكنية [٦٤٢] ، ولم يذكرها النعيمي إطلاقاً .

وهكذا بلغ عدد دور القرآن في دمشق نيابة خلال العصر المملوكي الأول (سبع) دور ، بينما بلغ عددها خلال العصر المملوكي الثاني (ثماني) دور ، أي بزيادة دار واحدة ، ويكون المجموع (خمس عشرة) داراً، وهو عدد قليل إذا ما قورنت بدور الحديث ودور الفقه .

ب – دور الحديث :

يعد الحديث من أهم مصادر التشريع الإسلامي ، ويأتي بعد القرآن الكريم ، وهو ما أُثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من قول ، وكانت الأحاديث التي وصلت إلى أيدينا موضعاً للجدل بين فقهاء المسلمين ، ذلك أنه عند وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن السواد الأعظم من المسلمين يستطيعون القراءة والكتابة ، وقد روى المسلمون الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض ، فتأثرت بشيء قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام . [٦٤٣]

وما إن جاء القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، حتى بدأ العرب يدونون الأحاديث النبوية ، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث . واشتهر منهم الإمام مالك المتوفى سنة (١٧٩ هـ /٧٩٥ م) [٦٤٤] ، والبخاري (٢٥٦ هـ / ٨٦٩م) [٦٤٥] ، ومسلم القشيري (٢٦١هـ / ٨٧٤ م) [٦٤٦] ، وأبو داود (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م) [٦٤٧] ، وغيرهم الكثير .

---

(٦٤٠) – النعيمي : المصدر السابق – ج١ ص٣٧٤ .
(٦٤١) - ابن كثير : المصدر السابق – ج١٤ ص٢٩٠ .
(٦٤٢) - العلبي : المرجع السابق ص٦١ .
(٦٤٣) - (حسن) حسن إبراهيم (تاريخ الإسلام) دار الجيل – ط ١٥ – بيروت – ٢٠٠١ – ج٤ ، ص ٤٢٢ – ٤٢٣ .
(٦٤٤) – هو الإمام مالك بن أنس الأصبحي ، أخذ القراءة عن نافع بن أبي نعيم ، وسمع الزهري ، وأخذ العلم عن ربيعة ، توفي سنة (١٧٩هـ/ ٧٩٥ م) / أبو الفداء : المختصر ج١ ص ٣١٦-٣١٧ . / الذهبي : الإعلام ص ٨٢ .
(٦٤٥) – الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدزبه ، وهي لفظة بخارية معناها الزراع ، ولد سنة (١٩٤ هـ/ ٨٠٩ م) . وهو صاحب الجامع الصحيح والتاريخ . رحل في طلب الحديث إلى أكثر محدثي الأمصار توفي سنة (٢٥٦ هـ/٨٦٩ م) / (البخاري) : محمد بن إسماعيل (صحيح البخاري) تح : مصطفى ديب البغا . دار العلوم الإنسانية – ط٢ – دمشق – ١٩٩٣ ص ٤- ٥ / (ابن خلكان) : أحمد بن محمد (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) تح : إحسان عباس – دار صادر – بيروت – ج٤ – ص١٨٨ – ١٩١ . (الذهبي) : محمد بن أحمد (سير أعلام النبلاء) تح : صالح السمر – مؤسسة الرسالة – ط١ – بيروت – ١٩٨٣ – ج٢١ ص ٣٩١-٤٧١.
(٦٤٦) – أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري ، صاحب المسند الصحيح ، رحل إلى الأمصار لسماع الحديث ، وروي عنه أنه قال للبخاري : " دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين ، وسيّد المحدثين . وطبيب الحديث " توفي سنة (٢٦١ هـ/ ٨٧٤ م) .
أبو الفداء : المصدر السابق ج١ ص٣٧٠ / الذهبي : الإعلام ص ١١٧ / الذهبي : السير - ج١٢ ص٥٥٧ وما بعد .
(٦٤٧) – هو سليمان بن الأشعث السجستاني صاحب المسند ، وأحد أئمة الحديث ، الرحالين إلى الآفاق في طلبه ، صنف وخرج ، سمع الكثير عن مشايخ البلدان في الشام ومصر والجزيرة والعراق وخراسان ، وغير ذلك . توفي سنة (٢٧٥ هـ /٨٨٨ م) / أبو الفداء : المصدر السابق ج١ ص٣٧٥ / الذهبي : الإعلام ص ١٢١ / الذهبي : السير ج١٣ ص ٩١ / ابن كثير : المصدر السابق - ج١١ ص٥٥-٥٦ .

وقد ساهم أهل الشام في علم الحديث فبرز منهم في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن مندة [٦٤٨] ، وقد وصفه ابن خلكان قائلاً : " هو محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث ، وكان جليل القدر ، وافر الفضل ، واسع الرواية " [٦٤٩] .

وما إن جاء العصر المملوكي حتى كان علم الحديث قد تبلور وظهرت له المدارس ، وعني المسلمون أي عناية برواية الحديث الشريف لفهم السنّة والكتاب وللتبرك والتفقه .

وأول من بنى دار حديث في الشام وربما كانت مدرسته الأولى من نوعها في بلاد الإسلام نور الدين محمود بن زنكي [٦٥٠] وكثرت دور الحديث بعد ذلك خلال العصر المملوكي .

ومما يلفت النظر خلال العصر المملوكي إسهام النساء في الاشتغال بالعلوم الدينية ومنها علم الحديث ، ومن هؤلاء النساء : فاطمة بنت إبراهيم البطائحي (٧١١ هـ / ١٣١١ م) [٦٥١] وزينب بنت أحمد بن شكر الصالحية (٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م) [٦٥٢] ، وكمالية بنت أبي الذكر الإسكندراني (٧٣١ هـ/١٣٣٠ م) [٦٥٣] ، وسفري بنت يعقوب الدمشقية (٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤م)[٦٥٤] وغيرهن الكثير الكثير ممن اشتغلن بعلم الحديث . والمدارس التي وجدت في نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول هي :

١- دار الحديث القوصية :

منشئها : شهاب الدين القوصي ، إسماعيل بن عبد الرحمن الأنصاري ، وكيل بيت المال ، ولد في قوص سنة (٥٧٤ هـ /١١٧٨ م) ورحل إلى دمشق وحدّث فيها ، وتوفي سنة (٦٥٣ هـ /١٢٥٥ م) بداره التي وقفها دار حديث . [٦٥٥]

موقعها : تقع في رحبة الخاطب داخل الباب الشرقي ، في مكان جادة الإصلاح اليوم ، شرقي الشاغور[٦٥٦]. وسنة بنائها قدرناها (٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) وهي سنة وفاة الواقف ، كما جرت العادة ، لأن الدار لا يمكن أن تحوّل إلى مدرسة وفيها الواقف وأهله ، وهذا لا يتم إلا بعد وفاته [٦٥٧] . ونود الإشارة إلى أن الشيخ بدران قد خلط بين هذه الدار والحلقة القوصية في الأموي ، فجعلهما شيئاً واحداً . [٦٥٨] ولا أثر لهذه المدرسة في يومنا هذا.[٦٥٩]

٢- دار الحديث الناصرية :

---

(٦٤٨) – أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد بن مندة الأصبهاني ، محدث واسع الرواية ، رحل في طلب الرواية توفي سنة (٥١١ هـ / ١١١٧ م) . / ابن خلكان : المصدر السابق ج٥ ص٢١٧ / الذهبي : الإعلام ص ٢١٠ / الذهبي : السير - ج١٩ - ص٣٩٥ .

(٦٤٩) – ابن خلكان : المصدر السابق ج٥ ص٢١٧ .

(٦٥٠) – جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص١٠٨ .

(٦٥١) - ابن حجر : الدرر ج٣ ص ١٣٢ .

(٦٥٢) – ابن حجر : المصدر نفسه ج٢ ص٧٠ .

(٦٥٣) – ابن حجر : المصدر نفسه ج٣ ص١٦٢ .

(٦٥٤) – ابن حجر : الدرر - ص٨٢ .

(٦٥٥) – أبو شامة : ذيل الروضتين - ص٢٩١ / الذهبي : العبر ج٥ ص٢٧٠ . / ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص١٧٣ / ابن العماد : الشذرات ج٧ ص٢٦٠-٢٦١ . / وللقوصي هذا : " تاج المعاجم في معجم الشيوخ " / (حاجي خليفة) : مصطفى بن عبد الله (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون) – دار الفكر– دمشق – ١٩٨٢ ج٥ ص٢١٣.

(٦٥٦) – العلبي : خطط دمشق - ص٨٦ .

(٦٥٧) – النعيمي : الدارس- ج١ ص٧٣ .

(٦٥٨) - بدران : منادمة الأطلال - ص١٤٠ .

(٦٥٩) – العلبي : المرجع السابق - ص٨٦ .

منشئها : الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي الثاني ، آخر ملوك الأيوبيين بدمشق ، ولد في حلب سنة (٦٢٧هـ / ١٢٢٩م) وبويع بالسلطنة سنة (٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م) بعد وفاة أبيه الظاهر غازي ، ثم استولى على دمشق سنة (٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م) ، وضمها إلى أملاكه ، والتقى مع المعز آيبك على حدود مصر فَهُزم ، واتفقوا معه على أن يكون " للمماليك " مصر حتى العريش ، سنة (٦٥٩ هـ/١٢٦٣م) فانضمت بلاد الشام عندئذٍ إلى الدولة المملوكية.(٦٦٠)

موقعها : بين جامع الأفرم وتربة العادل كَتْبُغا في غربي قاسيون في منطقة كانت تدعى بالفواخير ، على نهر يزيد (٦٦١) ، وذكر كرد علي بأن حجارة هذه الدار قد استخدمت في رصف نهر يزيد ، وبناء منطقة المهاجرين ، وكان فيها جسر جميل معقود ، ثم صارت حديقة (٦٦٢). وتاريخ بنائها سنة (٦٥٣ هـ /١٢٥٥ م) . وهو نفس تاريخ بناء المدرسة الناصرية .

أما الآن فقد تحولت هذه المدرسة وبستانها إلى عمارات حديثة ولم يبق من أثرها شيء . (٦٦٣)

٣- دار الحديث الشُّقيشقيَّة :

منشئها : نصر الله الشيباني الدمشقي الصفّار الشاهد ، ولد بعد سنة (٥٨٠ هـ / ١١٨٤م) ، وكان أديباً ظريفاً، توفي سنة (٦٥٦ هـ /١٢٥٨ م) (٦٦٤) ولكن اختلف المؤرخون حوله ، فقد اتهمه أبو شامة بالكذب ورَّقةِ الدين وعدَّه من الشهود المقدوح فيهم(٦٦٥) . وقيل فيه :

جلس الشقيشقية الشقي ليشهدا ... بأبيكما ماذا عدا مما بدا

هل زلزل الزلزال أم قد أخرج الـ ... ـدجال أم عدم الرجال ذوو الهدى

عجباً لمحلول العقيدة جاهل ... بالشرع قد أذنوا له أن يعقدا (٦٦٦)

موقعها : في درب البانياسي ضمن السور ، ووُقفت سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) وهي سنة وفاة الواقف الذي أوصى بأن تكون داره دار حديث .

وذكر الحافظ ابن كثير أن هذه الدار هي التي سكنها الحافظ المزّي (٦٦٧) قبل انتقاله إلى دار الحديث الأشرفية ، الأمر الذي دفعنا للاعتقاد بأن تكون حول الجامع الأموي . (٦٦٨)

وذكر ابن قاضي شهبة أن الدار تهدمت فأوصى بعض الأغنياء بمال فأعيد بناؤها سنة (٧٨٦ هـ / ١٣٨٤م)(٦٦٩) ولا أثر لهذه الدار في يومنا هذا . (٦٧٠)

---

(٦٦٠) – ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص٢٠١ وما بعد / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٨٥-٨٧ / ابن العماد : المصدر السابق ج٥ ص١٦٢-١٦٥ .

(٦٦١) – العلبي : المرجع السابق ص٨٨ .

(٦٦٢) – كرد علي : خطط الشام ج٥ ص٢٢١ .

(٦٦٣) – العلبي : خطط دمشق - ص٨٨ .

(٦٦٤) – الذهبي : الإعلام ص٢٧٤ / الذهبي : العبر ج٥ ص٢٣٦ .

(٦٦٥) - أبو شامة : ذيل الروضتين - ص٣٠٧ .

(٦٦٦) – أبو شامة : المصدر نفسه - ص٣٠٧ .

(٦٦٧) – جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزّي ، ولد بحلب سنة (٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م) ، قرأ شيئاً من الفقه الشافعي ، وله كتاب اسمه (تهذيب الكمال) و (الأطراف) ، توفي سنة (٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م) / (الذهبي) : محمد بن أحمد (تذكرة الحفّاظ) صحح عن النسخة القديمة والمخطوط في الحرم المكّي – دار إحياء التراث العربي– بيروت . بدون تاريخ ج٤ ص١٤٩٨ – ١٥٠٠ . (الأسنوي) : عبد الرحيم (طبقات الشافعية) تح : كمال يوسف الحوت – دار الكتب العلمية – ط١ – بيروت – ١٩٨٧ – ج٢ – ص٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٦٦٨) - ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص١٨٠ .

٤- دار الحديث السّكرية :

منشئها : زكي الدين أحمد بن طلائع بن علي الأمير شرف الدين بن سُكَّر . ومن بعده تصبح دار حديث ومسجداً ، وذلك سنة (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) [٦٧١] .

موقعها : لقد وَهِم الشيخ بدران عندما ذكر أنها في زقاق البرغل ، والصحيح أنها ملاصقة لدار القرآن الخضيرية من الجنوب [٦٧٢] ، مع أنه لا أثر لها اليوم . [٦٧٣]

وبعد أن أصبحت داراً للحديث ، سكن فيها شيخ الإسلام ابن تيمية ، فأراد أحد أنصاره واسمه محمد بن عبد الكريم التدمري ، من تجار دمشق ، أن يعيد بناءها ويوسّع فيها ، بعد أن كانت ضيقة وبابها منخفضاً وجدرانها مشعثة [٦٧٤] ، فتم له ما أراد وغدت المدرسة واسعة وجميلة ، ووجد الفرصة سانحة لكي يجني ثمار تعبه فيها ، ويتولى إقامتها ، فعارضه القضاة، وأيَّده بعضهم ، وقامت في البلد قضية ، فأنشأ التدمري رسالة سمّاها " السكرية في السكرية " بيّن فيها حالة المدرسة وكيف وسَّعها وجددها بعد أن كادت تنهار . [٦٧٥]

٥- دار الحديث النفيسية :

منشئها : الرئيس نفيس الدين إسماعيل بن محمد بن صدقة الحرَّاني، أحد الشهود [٦٧٦] بدمشق، وناظر الأيتام [٦٧٧] كان ذا ثروة ، وسمع الحديث والعلوم ، وأوصى أن توقف داره دار حديث بعد وفاته توفي في سنة (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦ م) ، ودفن في قاسيون [٦٧٨] .

موقعها : تقع إلى الشمال الغربي من المدرسة الأمينية ، حالياً موقع " سوق الشراطيط " . [٦٧٩]

تاريخ إنشائها سنة (٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م) .

وذكر الشيخ بدران أن بعض الثقات أخبروه أنه كانت توجد لوحة فوق باب أثري وعليها اسم المدرسة النفيسية، بجانب حمام القيشاني ، وفي زقاقها لوحة يقال له زقاق الإقميم ، فعمد بعض المختلسين إلى وضع الطين فوق اللوحة حتى لا تظهر الكتابة[٦٨٠] . ولكن الدار لا أثر لها اليوم . [٦٨١]

٦- دار الحديث الدوادارية :

---

(٦٦٩) - ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٣ ص١٣٣ .
(٦٧٠) – العلبي : المرجع السابق ص٨٢ .
(٦٧١) – العلبي : المرجع نفسه ص٨٠-٨١ .
(٦٧٢) - بدران : منادمة الأطلال ص٣٩ .
(٦٧٣) – العلبي : المرجع السابق ص٨١ .
(٦٧٤) – ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٣ ص٢١٠ .
(٦٧٥) – (دهمان) : محمد أحمد (في رحاب دمشق) – دمشق – دون تاريخ ص٩ ، ١٣ وقد نشر فيه رسالة (السكرية في السكرية) .
(٦٧٦) – الشاهد هو الذي يشهد بمتعلقات الديوان نفياً أو إثباتاً ، ويطلق على الشهود كلمة الشروطيون ، كما تطلق على من يثبت الأحكام لدى القاضي في الكتب والسجّلات . / دهمان : معجم الألفاظ ص٩٦ .
(٦٧٧) – الناظر : هو من ينظر في الأمور، ويتفقد تصرفاتها ، ويُرفع إليه حساباتها لينظر فيه ويدققه فيمضي ما يمضي ويرد الباقي. دهمان : المرجع نفسه - ص١٥٠ .
(٦٧٨) – الذهبي : العبر - ج٥ ص٣١٢ / ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص٣٢٤ / النعيمي : الدارس- ج١ ص٨٤ / بدران : منادمة الأطلال- ص٦١ .
(٦٧٩) – العلبي : خطط دمشق- ص٨٩ .
(٦٨٠) – بدران المرجع السابق - ص٦١ .
(٦٨١) – العلبي : المرجع السابق ص٩٠ .

منشئها : الأمير علم الدين سنجر الدوادار [٦٨٢] التركي الصالحي الدواداري كان من نجباء المماليك وخيرتهم وشجعانهم وعلمائهم ، وفيه ديانة وكرم ، وقد أثنت جميع المصادر على علمه وأدبه وفضله وندرته بين قومه . حضر معركة مرج المروج سنة (٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩م) ، التي هزم فيها المماليك التتار ، توفي في حصن الأكراد و (قلعة الحصن) سنة (٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م) [٦٨٣] .

موقعها : كانت هذه الدار غربي العادلية الكبرى [٦٨٤] ، ولكن الشيخ بدران ذهب إلى موقعها " في الزقاق الضيّق المقابل لزقاق المدرسة العصرونية " . وقال إنه شاهد هناك باباً يصلح أن يكون باب مدرسة [٦٨٥] . أما كرد علي فقال إنها كانت أمام " بحرة الدفة " [٦٨٦] وسنة بنائها هي (٦٩٩ هـ / ١٢٩٩م) .

ولا أثر لها اليوم ، وربما يكون كلام الشيخ بدران صحيحاً ، إذ إن الهدم اليوم لم يصل إلى الزقاق الذي ربما كانت فيه المدرسة ، والمعروف اليوم باسم " الزقاق الضيق " .

٧- دار الحديث الحمصية :

منشئها : صاحب حمص [٦٨٧] .

موقعها : هي حلقة في الجامع الأموي لدراسة الحديث الشريف [٦٨٨] ، وليست داراً مستقلة ، وكان لها وقف يقوم بمصالحها [٦٨٩] .

أما بالنسبة لتاريخ إنشائها ، فإن ابن شداد لم يذكره ، وقام الإربلي بذكره ، ما دفعنا إلى افتراض أنها أوقفت في عهد الإربلي حوالي سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م) . وخلط كرد علي بينها وبين المدرسة الحمصية فجعلهما مدرسة واحدة . [٦٩٠]

٨- دار الحديث القلانسية :

منشئها : عز الدين حمزة بن مؤيد الدين القلانسي [٦٩١] ، ولّي الوزارة بدمشق ثم أعفي منها ، وولّي وكالة السلطان ، وكان الكبار يحترمونه . وولّي نظر الخاص [٦٩٢] ، وكان ذا رأي وحزم ومعرفة وذكاء . توفي سنة (٧٢٩ هـ /١٣٢٨ م) . [٦٩٣]

وحدث اختلاف في أمر هذه الدار ، فذكر الإربلي [٦٩٤] وابن كثير [٦٩٥] أنها رباط ، بينما قال النعيمي إنها دار للحديث وفيها رباط [٦٩٦] ، ولكن آثرنا رأي النعيمي وابن طولون كونهما تخصصا في موضوع المدارس .

---

(٦٨٢) ــ الدوادار : هو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير ، ويتولى أمرها مع ما ينضم لذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال . دهمان : المرجع السابق - ص٧٧ .

(٦٨٣) ــ الذهبي : الإعلام ص٢٩٢ / الذهبي : العبر ج٥ ص٣٩٩ / ابن تغري بردي : النجوم ج٨ ص١٥٤ / النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٤٩ .

(٦٨٤) ــ العلبي : خطط دمشق - ص٧٩ .

(٦٨٥) ــ بدران : منادمة الأطلال - ص٤٢ .

(٦٨٦) ــ كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص٧٢ .

(٦٨٧) ــ العلبي : المرجع السابق ص٧٨ . ولم نستطيع الوقوف على ترجمة له .

(٦٨٨) ــ النعيمي : الدارس - ج١ ص٤٦ .

(٦٨٩) ــ الإربلي : الدارس - ص٧٧ .

(٦٩٠) ــ كرد علي : المرجع السابق ج٦ ص٧٢ .

(٦٩١) - الذهبي : الإعلام ص٣٠٨ / الذهبي : ذيل العبر ص١٦٣ / ابن حجر : الدرر ج٢ ص٤٢-٤٣ .

(٦٩٢) - هو الذي ينظر في الأموال الخاصة بالسلطان . دهمان : معجم الألفاظ ص١٥٠ .

(٦٩٣) - ابن حجر : المصدر السابق ج٢ ص٤٢-٤٣ .

(٦٩٤) ــ الإربلي : في رحاب دمشق - ص٨٠ .

موقعها : تقع بجبل الصالحية ، قريباً من حمام الزهور غربي مدرسة أبي عمر ، ونهر يزيد جارٍ في وسطها وينزل إليها من درج [٦٩٧] . وذكر الشيخ بدران في منادمة الأطلال أن : " جيرانها اختلسوا أكثرها وبقي منها بقية من جهة النهر ، فقام الشيخ إسماعيل التكريتي ، فعمّر تلك الخربة ، وجعل لها مسجداً لطيفاً ، ومطبخاً، وثماني غرف ، وأعدّها لسكن الفقراء والمشردين ، وذلك كله سنة (١٣١٦ هـ /١٨٩٨ م) وصارت تعرف بالخانقاه " . [٦٩٨]

وزارتها اللجنة المكلفة سنة (١٣٢٨ هـ /١٩١٠ م) فوجدت فيها اثنتي عشرة غرفة ، وقالت إنها كانت معدّة للدراويش[٦٩٩] . وذكر العلبي أنه زارها في رمضان سنة (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧م) فوجدها داراً كبيرة للسكن ، وعلى بابها أبيات شعر تشير إلى تجديدها على يد الشيخ إسماعيل التكريتي ، وفي يومنا هذا نستطيع أن نطلق على منطقتها الشيخ محيي الدين[٧٠٠].

٩- دار الحديث البهائية :

منشئها : الشيخ بهاء الدين أبو محمد القاسم بن الشيخ بدر الدين أبو غالب المظفر ، الطبيب ، توفي سنة (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م)[٧٠١] . وقد وقف داره دار حديث في أواخر عمره . [٧٠٢]

موقعها : كانت تقع داخل باب توما . [٧٠٣]

وافترضنا بناءها سنة (٧٢٣ هـ/١٣٢٣م) وذلك حسب سنة وفاة منشئها . ولكن للأسف لا أثر لهذه الدار اليوم.[٧٠٤]

وبعد عرض دور الحديث في نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول وجدنا أن عددها بلغ (تسع) دور ، و(ثماني) دور منها زالت ولا أثر لها اليوم ، والموجودة حتى يومنا هذا دار واحدة فقط وهي دار الحديث السكرية .

وكان عدد دور الحديث خلال هذا العصر – المملوكي الأول – أكثر من دور القرآن الكريم ، وكان توزعها الجغرافي كما رأينا أكثر على أنحاء مدينة دمشق ، حتى إنه كان منها ما هو بجبل الصالحية . وقد اهتم الناس بمدارس الحديث اهتماماً كبيراً والدليل على ذلك هذا العدد الجيد من دور الحديث في نيابة دمشق .

ج – دور القرآن والحديث معاً :

وهذه الدور خصصت لدراسة القرآن الكريم والحديث الشريف معاً . وعرفت نيابة دمشق خلال هذا العصر – المملوكي الأول – دارين للقرآن والحديث وهما :

١- دور القرآن والحديث الصبابية :

---

(٦٩٥) – ابن كثير : المصدر السابق - ج١٤ ص ١٤٧ .
(٦٩٦) – النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٧٢ .
(٦٩٧) – العلبي : المرجع السابق - ص٨٥ .
(٦٩٨) – بدران : منادمة الأطلال - ص٢٥٢ .
(٦٩٩) – تقرير اللجنة نشر في مجلة المجمع العلمي العدد ٤٨ - ص٣١٥ .
(٧٠٠) – العلبي : المرجع السابق - ص٨٥ .
(٧٠١) – الذهبي : العبر - ج٤ ص٦٨ / ابن كثير: المصدر السابق ج١٤ ص١٠٢-١٠٣ / ابن حجر : المصدر السابق - ج٣ ص١٤٤.
(٧٠٢) – ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص١٠٣ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٤٣ .
(٧٠٣) – النعيمي : المصدر نفسه - ج١ ص٤٣ .
(٧٠٤) – العلبي : المرجع السابق - ص٧٨ .

منشئها : شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن أبي العز الحراني ثم الدمشقي المعروف بابن الصباب [٧٠٥] . وذلك سنة (٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م) [٧٠٦] . من التجار المشهورين ، توفي سنة (٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) . وكان خيراً وفيه ديانة وصَدقة . [٧٠٧]

موقعها : جنوب المدرسة العادلية ، وشمالي الطبرية . وكانت قبل ذلك خربة شنيعة ، فعمّرها ابن الصباب ، وجعلها دار قرآن ، ودار حديث للحنابلة [٧٠٨] . وذكر كرد علي : " إذا وقفت بجانب العادلية وسرت إلى الجنوب أمام المرادية ، ونظرت إلى يمينك ، رأيت أولاً بركة ماء في أول الطريق ، وأساساً مبنياً بالحجارة الفخمة ، فربما كان الأساس أساس تلك المدرسة ، وآثارها وبعدها الطبرية ، وعلى كل فإنهما درستا ولم يبق لهما رسم ولا طلل " . [٧٠٩]

وذكر العلموي أنها كانت في عهده (القرن العاشر) " سكن الشيخ أبي اليسر الرملي " [٧١٠] .

وموقع هذه المدرسة اليوم ، محل الدكاكين القائمة على يمين المتوجه من العادلية إلى باب البريد ، وقد هدم قسم من هذه المحلات عند افتتاح شارع القلعة سنة (١٤٠٣ هـ /١٩٨٢م) ولا أثر لها اليوم . [٧١١]

٢- دار القرآن والحديث التنكزية :

منشئها : الأمير تنكز سيف الدين أبو سعيد نائب السلطنة بالشام ، كان حسن السيرة ، عمرّ بدمشق جامعاً بحكر السمّاق في غاية الحسن وتربة وداراً وحماماً ومسجداً ومكتب أيتام ، ولكن اعتقل في آخر أيامه [٧١٢] ، ولكن اعتقاله لم يدم طويلاً ، فمات سنة (٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م) [٧١٣] .

موقعها : شرقي حمام نور الدين بسوق البزورية ، وتجاه دار الذهب [٧١٤] . كانت هذه الدار حماماً يُعرف بحمام سويد فهدمه نائب السلطنة تنكز وجعله دار قرآن وحديث ، وجاءت في غاية الحسن ، ورتب فيها الطلبة والمشايخ ، وعُرفت هذه الدار بدار الذهب ، لأن تنكز نقل حواصله وأمواله من دار الذهب داخل الفراديس إلى هذه الدار فسميت " دار الذهب " [٧١٥] . وافتتحت سنة (٧٣٩ هـ /١٣٣٨ م) [٧١٦] .

وذكر الشيخ بدران أن : (النظار عبثوا بها وبأوقافها ، حتى نسي الناس أنها مدرسة ، فتداركها آل الخطيب وفتحوا بابها للصلاة فعلم الناس أنها مدرسة) [٧١٧] وفي أيام كرد علي تحولت إلى مدرسة

---

(٧٠٥) – اختلف في تسميته حيث ذكره ابن حجر في الدرر ج٣ ص٢٢٨ (ابن الصاد) وذكره النعيمي في الدارس- ج١ ص٩٤ / (ابن الصبان) والأرجح ما ذكرناه (ابن الصباب) لأن تسميته الصبابية أتت من الصباب وليس من (الصاد ، أو الصبان) ، وهو ما ذكره ابن كثير كذلك .

(٧٠٦) – ابن كثير : المصدر السابق - ج١٤ ص١٧٠ .

(٧٠٧) – (ابن رافع) : تقي الدين محمد (الوفيات) تح : صالح مهدي عباس ، بشار عواد ، مؤسسة الرسالة ، ط١ – بيروت – ١٩٨٢ – ج٢ ص٨٣.

(٧٠٨) - النعيمي : الدارس - ج١ ص٩٥ .

(٧٠٩) – كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص٧٤ .

(٧١٠) – (العلموي) : عبد الباسط (مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والمدارس) تح : صلاح الدين المنجد . دمشق – ١٩٤٧ – ص٢٢ .

(٧١١) – العلبي : خطط دمشق - ص٧٠ .

(٧١٢) – ابن حجر : الدرر - ج٢ ص ٣٠٨-٣١٢ .

(٧١٣) - النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٩١ .

(٧١٤) – النعيمي : المصدر نفسه - ج١ ص٩١ .

(٧١٥) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص١٧٣ .

(٧١٦) - النعيمي : المصدر نفسه - ج١ ص٩٤ .

(٧١٧) – بدران : منادمة الأطلال - ص٦٤ .

للصبيان سميت الهاشمية [٧١٨] . وهي اليوم مدرسة خاصة للأطفال ، ما تزال تحتفظ بواجهتها الجميلة الرائعة لصيق حمام نور الدين الشهيد من الشرق . [٧١٩]

وهكذا نستنتج قلة عدد دور (القرآن والحديث) إذا ما قورنت بباقي أنواع المدارس .

وكان واقفوا الدارين من أصحاب الثروة والنفوذ ، ولحسن الحظ إن إحدى هاتين الدارين – التنكزية – ما تزال بعض ملامحها – الواجهة – موجودة حتى وقتنا الحاضر ، أما الدار الصبابية فقد زالت آثارها ولم يبق منها شيءٌ كما نلاحظ المدة الزمنية المتقاربة جداً بين إنشاء الدارين إذ بنيت الصبابية سنة (٧٣٨ هـ / ١٣٣٧م) والتنكزية بنيت سنة (٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م) . ولم تعرف نيابة دمشق في العصر المملوكي الثاني سوى مدرسة واحدة للقرآن والحديث هي الدار المعبدية ومن هذا نستنتج أن نيابة دمشق عَرفت طوال العصر المملوكي ثلاث دور (للقرآن الكريم والحديث) .

د - مدارس الفقه :

قبل الحديث عن المدارس الفقهية التي عرفتها نيابة دمشق خلال العصر المملوكي لابد أن نتعرف على علم الفقه تعريفاً ومن هم أشهر أصحاب المذاهب الفقهية . [٧٢٠]

علم الفقه : هو علم أحكام التكاليف الشرعية العلمية كالعبادات والمعاملات وما يتصل بالأمور الدنيوية من قضائية وسياسية وحربية .

إلاّ أن اختلاف أئمة الفقه في فهم بعض النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها أدّى إلى تعدد المذاهب . واشتهر من هذه المذاهب أربعة هي :

١– مذهب مالك إمام [٧٢١] أهل الحجاز ، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث .

٢– مذهب أبي حنيفة النعمان [٧٢٢] إمام أهل العراق ، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأي والقياس .

٣– مذهب الإمام الشافعي[٧٢٣] كان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز، ثم جعل مذهبه وسطاً بين الطريقتين السابقتين.

٤– مذهب أحمد بن حنبل [٧٢٤] وكان من كبار المحدّثين ، ومذهبه يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد المتمسكين بمذهبه . [٧٢٥]

---

(٧١٨) – كرد علي : المرجع السابق - ج٦ ص٧٤ .

(٧١٩) – العلبي : المرجع السابق - ص٦٣ .

(٧٢٠) – (سابق) : سيد (فقه السنة) مكتبة الآداب – القاهرة – ١٣٦٥ هـ - ج١ – ص١٢ .

(٧٢١) – مالك بن أنس ولد سنة (٩٣ هـ/ ٧١١ م) قضى حياته بالمدينة المنورة ، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة ، وكان الإمام مالك أول من كتب في العلوم الدينية في العصر العباسي ، ومن أشهر كتبه " الموطأ " ، وهو أول كتاب ظهر في الفقه الإسلامي . توفي سنة (١٧٩ هـ/٧٩٥ م) / أبو الفداء : المصدر السابق ج١ ص٣١٦-٣١٧ / الذهبي : الإعلام ص٨٢ / الذهبي : السير ج٨ ص٤٣ وما بعد .

(٧٢٢) – أبو حنيفة النعمان بن ثابت ولد في الكوفة سنة (٨٠ هـ/ ٦٩٩ م) وشهد عبد الله بن الحارث أحد الصحابة يحدّث بما سمع عن رسول الله ، وكان إلى جانب العلم يحترف التجارة ببيع الخزّ ، ويجلس في الأسواق مما أكسبه شهرة عظيمة ، وتلقى تعليمه في الفقه في مدرسة الكوفة . ولم يصل إلينا أي كتاب في الفقه لأبي حنيفة ، توفي سنة (١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م) / ابن النديم : محمد بن اسحاق (الفهرست) – طبعة القاهرة – ١٣١٨ هـ - ج١ ص٢٨٥ / الذهبي : السير ج٦ ص٣٩٠ وما بعد.

(٧٢٣) – هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ، ولد في غزة سنة (١٥٠ هـ/ ٧٦٧ م) وحُمِل منها إلى مكة ، كان ذكياً ، وله تصانيف أشهرها : (الأم) ، (المسند) ، (أحكام القرآن) ، (السنن) ، (الرسالة) . توفي سنة (٢٠٤ هـ/ ٨١٩ م) . (الخطيب البغدادي) : أحمد بن علي (تاريخ بغداد) دار الكتب العلمية – بيروت – بدون تاريخ – ج٢ – ص٢٦ وما بعد . الذهبي : تذكرة الحفاظ – ج١ ص٣٦١-٣٦٣ / ابن العماد : الشذرات ج٣ ص٦٩ وما بعد .

(٧٢٤) – أحمد بن حنبل ولد سنة (١٦٤ هـ/ ٧٨٠ م) ، تتلمذ للإمام الشافعي مدة سنتين ، واعتبره الشافعية أنه واحد منهم ، ولقي الكثير من الشدة أيام الخليفة المأمون، وسجن وعُذّب لعدم اتفاقه مع المعتزلة في القول بخلق القرآن، توفي ببغداد سنة (٢٤١هـ/ ٨٥٥ م) .

ومن ثم ظهرت في ميدان الفقه مدرستان : آ- مدرسة أهل الحديث في المدينة ، وعلى رأسها الإمام مالك الذي كان يأخذ بمبدأ التوسع في النقل عن السّنة .

ب- مدرسة أهل الرأي في العراق ، وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة الذي كان يدين بالرأي.[٧٢٦]

ومنذ عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه أصبح المذهب الشافعي مذهباً رسمياً للدولة ، ولكن بيبرس كان أول من اعترف بالمذاهب الأخرى، إذ عيّن قاضي قضاة لكل من المذاهب الأربعة في القاهرة ثم في دمشق.[٧٢٧]

ووجدنا أن التخصص في المدارس الفقهية أصبح سمة واضحة خلال العصر المملوكي من خلال المدارس الموقوفة على المذاهب باختلاف أنواعها .

وقد حذر العلماء من التصرف في وثيقة الوقف ، أكثر مما نصت عليه ، فقد حذر السبكي من أن " مدارس وقفها واقفوها على الفقهاء والمتفقهة ، والمدرس من الشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنابلة ، فيلقي المدرس في هذه المدرسة تفسيراً أو حديثاً أو نحواً أو أصولاً أو غير ذلك إما لقصوره عن الفقه أو غير ذلك ، وعندي أن الذمة لا تبرأ في المدرسة الموقوفة على الفقهاء ، إلاّ بإلقاء الفقه ، فإن كان هذا المدرس لا يلقي الفقه رأساً فهو آكل حرام " . [٧٢٨]

وإذ علمنا أن الدولة في ذلك العصر لم يكن لديها سياسة تعليمية تتبنى إنشاء المدارس والإنفاق عليها ، فقد ترتب على ذلك أن جميع المؤسسات التعليمية هي أوقاف تبرع بها مشجعو العلم والتعليم ، وتحديد العلوم التي تدرس ، حتى أضحت المدارس الفقهية من أبرز مظاهر الحياة العلمية في ذلك العصر .

بناءً على ما سبق . فقد عَرفتْ نيابة دمشق خلال العصر المملوكي أربعة أنواع من المدارس الفقهية (الشافعية- الحنفية – المالكية – الحنبلية) وسنبدأ أولاً بعرض المدارس الأكثر انتشاراً ألا وهي المدارس الشافعية .

أولاً : المدارس الشافعية :

١- المدرسة القوصية الشافعية :

منشئها : الشيخ شهاب الدين القوصي، أبو العرب إسماعيل بن حامد القوصي المصري. قدم الشام سنة(٥٩١هـ/١١٩٤م) وتوفي سنة (٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) [٧٢٩] .

موقعها : هي زاوية بالجامع الأموي ، وعلى الرغم من أنها ليست مدرسة مستقلة إلاّ أننا آثرنا ذكرها كونها زاوية تخصصت بالفقه الشافعي . [٧٣٠]

وذكر العلموي في مختصره أنه : " رأى السيد كمال الدين حمزة ، يدرّس في الحلقة القوصية بالأموي بالقرب من ضريح يحيى بن زكريا عليهما السلام " [٧٣١] .

ابن النديم : المصدر السابق ج١ ص٣٠٣-٣٠٥ / ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص١٧ / الذهبي : الإعلام ص١٠٨ .
الذهبي : السير ج١١ ص١٧٧ .
(٧٢٥) – ابن خلدون : المقدمة ج٢ ص٣٩١ – ٣٩٢ .
(٧٢٦) – حسن : تاريخ الإسلام ج٢ ص٢٧١ .
(٧٢٧) – زيادة : دمشق في عصر المماليك ص١٧٦ .
(٧٢٨) – السبكي : معيد النعم ص١٠٧ .
(٧٢٩) – أبو شامة : المصدر السابق ص ٢٩١ / الذهبي : السير ج٢٣ ص٢٨٨ .
ابن العماد : المصدر السابق ج٥ ص٢٦٠-٢٦١ / حاجي خليفة : كشف الظنون ج٢ ص٢١٣ .
(٧٣٠) – النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٣٣٣ / العلبي : المرجع السابق ص١٥٤ .

ولكن هذه الزاوية شأنها شأن باقي الزوايا في الجامع الأموي قد اختفت في وقتنا الحاضر . [٧٣٢]

٢- المدرسة البادرائية الشافعية :

منشئها : القاضي نجم الدين أبو محمد عبد الله البادرائي الفرضي ، والاسم البادرائي – ليس بالذال كما ذكر بعضهم [٧٣٣] ، بل بالدال نسبة إلى بادرّيا من أعمال واسط بناءً على ضبط السمعاني للاسم . [٧٣٤]

ولد البادرائي سنة (٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م) وتلقى علومه في بغداد ، وبرع في مذهبه ، ودرّس بالنظامية، ثم اختاره الخليفة المستعصم رسولاً إلى ملوك المسلمين وأمرائهم عشية اجتياح المغول لديار الإسلام والخلافة . وقد تردد كثيراً إلى مصر والشام ، فبنى مدرسته في دمشق سنة (٦٥٤ هـ /١٢٥٦ م) وكان أول من درّس فيها . توفي سنة (٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م) [٧٣٥] .

وذكر ابن شداد من جهته أن البادرائي درّس بالبادرائية وتوفي في المدرسة الجاروخية بدمشق لفالج أصابه .[٧٣٦]

موقعها : داخل باب الفراديس والسلامة ، شمالي جيرون ، وشرقي المدرسة الناصرية الجوانية ، وكانت قبل ذلك داراً للأمير أسامة الجبلي (٦٠٩ هـ / ١٢١٢م) . [٧٣٧]

وكانت الدار أصلاً داراً للأسقفية أيام الرومان ، وقد بقيت جدرانها قائمة على مدى الأيام ، ولا تزال إلى اليوم، كما قال القساطلي . [٧٣٨]

وقد ساهم الملك الناصر الأيوبي في بناء هذه المدرسة ، وأطلق للبادرائي خمسمائة حمل خشب من غيضة جسرين ، وحضر حفل افتتاحها ، وتلا البادرائي شروط الوقف ، ومنها ألا تدخل إليها إمرأة ، ولا يَدْرس فيها متزوج ، ولا يجمع بينها وبين غيرها من المدارس ، ولذلك (لم يتخرج منها عالم فالح) على حد قول ابن قاضي شهبة ، لأن العالم فيها عندما يتكامل علمه ويلمع اسمه ، يجد في نفسه الرغبة في الزواج ، وهذا يؤدي إلى ترك المدرسة كما اشترط الواقف . وممن تركها لهذا السبب الشيخ إبراهيم بن عيسى الذي غادرها سنة (٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م) وأقام في المدرسة الشافعية ، بعد أن تزوج . [٧٣٩]

---

(٧٣١) – العلموي : المصدر السابق ص٦٩ .
(٧٣٢) – العلبي : خطط دمشق - ص١٥٤ .
(٧٣٣) – ابن شداد : الأعلاق – قسم دمشق ص٢٤٥ .
(٧٣٤) – (السمعاني) : عبد الكريم بن محمد (الأنساب) ، تح : عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني – الناشر محمد أمين ومج – ط٢ – بيروت – ١٩٨١ - ج٢ ص٢٣ .
(٧٣٥) – أبو شامة : ذيل الروضتين ص٣٠٣ / ابن العماد : الشذرات - ج٧ ص٢٦٩ .
(٧٣٦) - ابن شداد : المصدر السابق ص٢٣٠ .
(٧٣٧) – النعيمي : الدارس - ج١ ص١٥٤ .
(٧٣٨) – (القساطلي) : نعمان (الروضة الفناء في دمشق الفيحاء) – بيروت – ١٩٨٢ ص١٠٨ .
(٧٣٩) – ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٣ ص١٤٠ .

وقد زارتها لجنة الشيخ الإسطواني سنة (١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م) فوجدت فيها أربع عشرة غرفة أرضية مشغولة ، وست غرف علوية فارغة ، وعدد طلبتها ستة ، وشيخها – آنذاك – الشيخ أحمد الجوبراني.[٧٤٠]

ذكرها وايتسنجر وقال : " إن أرضية الغرف مفروشة بقطع الرخام رصفاً هندسياً [٧٤١] " واتُخذت المدرسة بعد الأربعينيات من القرن الماضي مقراً لبعض طلبة العلم والفقراء . وحالياً هي مركز لقسم من طلاب معهد الفتح الإسلامي .

وعلى العموم فإن المدرسة ما تزال ثابتة الأركان ، ويعرف الحي باسمها وباسم حمام سامي أيضاً [٧٤٢] ، في الوقت الذي سنلاحظ فيه تلاشي مدارس كثيرة أنشئت بعدها بقرون كثيرة .

٣- المدرسة القيمرية الكبرى الشافعية :

منشئها : الأمير ناصر الدين الحسين بن عبد العزيز بن أبي الفوارس الكردي القيمري . كان من أكابر الأمراء في دولة الملك الناصر يوسف الأيوبي في الشام وأحسنهم سيرة ، وهو الذي سلّم دمشق لسيده الناصر، يوم قتل تورانشاه في مصر سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) .

وانتقل إلى مصر ، فقدّمه الملك الظاهر وجعله مرابطاً في الساحل مقابل الفرنج ، وبقي مرابطاً حتى توفي سنة (٦٦٥ هـ /١٢٦٦ م) وعُملَ عزاؤه بالجامع الأموي ، وكأنَّه ملك .[٧٤٣]

أما كلمة قيْمر : فهي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط ، وإليها ينسب جماعة من أعيان الموصل ، وخلاط هم أكراد ويقال لصاحبها أبو الفوارس [٧٤٤] . وقد كان لهؤلاء شأن بارز في الأحداث السياسية التي شهدتها مصر والشام بين (٦٤٧ – ٦٦٠ هـ / ١٢٤٩-١٢٦١م) ثم بدأ نفوذهم يتلاشى حتى انتهى تماماً بوفاة الملك الظاهر بيبرس (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م) [٧٤٥] .

موقعها : تقع هذه المدرسة بالحريمين [٧٤٦] شمال البلد من جهة الشرق وهذه المدرسة ، شأن العصرونية والخضيرية ، أطلق اسمها على اسم الحي بأكمله على كبره وامتداده . [٧٤٧]

وقد وهم الدكتور " عيسى اسكندر المعلوف " عندما ذكر بأن اسم القيمرية أطلق على المنطقة قبل بناء المدرسة القيمرية بزمان ، نظراً لوجود الكنيسة المريمية فيها ، وهذا الكلام غير صحيح لأن أحداً من المؤرخين لم يذكر اسم القيمرية على أنه سوق وحي قبل قيام القيمرية فيه . [٧٤٨]

وعُمِلَ على باب المدرسة ساعات لم يُسبَق إليها ، كلفت أربعين ألف درهم صنعها البديع الساعاتي المتوفى سنة (٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م) وتعطّلت بعد مدة ، فأصلحت وتمَّ ذلك سنة

---

(٧٤٠) – نشر تقرير اللجنة في مجلة المجمع العلمي العدد ٤٨ ص٣١٦ وما بعد .
(٧٤١) – وايتسنجر : الآثار الإسلامية - ص١١٩ .
(٧٤٢) – العلبي : خطط دمشق – ص١٥٤ .
(٧٤٣) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص٢٣١ / النعيمي : الدارس - ج١ ص٣٣٥ / ابن العماد : الشذرات - ج٥ ص٢٤١ .
(٧٤٤) – الحموي : معجم البلدان - ج٤ ص٤٢٤ .
(٧٤٥) – العلبي : المرجع السابق - ص١٥٦ .
(٧٤٦) – النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٣٣٦ .
(٧٤٧) – العلبي : المرجع السابق - ص١٥٦ .
(٧٤٨) – مجلة المجمع العلمي العدد ٣ - ص ١٨١ .

(٧٨٨ هـ /١٣٨٦ م) [٧٤٩] واستمرت المدرسة طوال العصر المملوكي والعثماني ، وعندما زارتها لجنة الشيخ الإسطواني (١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م) وَجَدت فيها إحدى عشرة غرفة أرضية وكان الناس يسمونها آنذاك بالمدرسة العتيقة ، أو مدرسة القطاط ، ولا يزال هذا الاسم يطلق عليها حتى الآن ، بحيث كاد الناس ينسون اسمها الأصلي ، الذي عمّ الحي كلّه . [٧٥٠]

وما تزال هذه المدرسة على حالها اليوم ، فيها مصلّى شتوي وآخر صيفي ، وباحة وبركة ماء، ويحيط بالمدرسة من الشرق والغرب غرف الطلبة ، التي أصبحت خالية من طلاّب العلم، وتلقى الدروس في هذه المدرسة . [٧٥١]

٤- المدرسة الناصرية الجوانية الشافعية :

منشـــئها : الملـك الناصـر صـلاح الـدين ، آخـر ملـوك الأيـوبيين فـي الشـام ، تـوفي سـنة (٦٥٩ هـ /١٢٦١ م) . [٧٥٢]

موقعها : تقع إلى الشرق من القيمرية الصغرى ، وإلى الغرب من " البادرائية " وافتتحت سنة (٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦ م) في زقاق الفرفور ، نسبة إلى القاضي شهاب الدين أحمد بن فرفور الذي اتخذ هناك لنفسه داراً [٧٥٣] توارثها أحفاده حتى أوائل القرن [٧٥٤] ، وحدث الافتتاح بحضور واقفها السلطان الناصر ، ودرس فيها القاضي صدر الدين بن سناء الدولة ، وحضر عنده الأمراء والأعيان والعلماء [٧٥٥] .

وذكرها الشيخ بدران باسم " حبس الأموات " لأنه كان يحبس فيها المدين المتوفى ، حتى يتطوع الناس لدفع دينه . [٧٥٦]

وكذلك فإن وايتسنجر ذكرها بنفس الاسم – حبس الأموات – وقال : إن جدرانها مشيدة بالحجارة النحتية التي جرى قطعها من حجارة معبد جوبتير القريب منها . [٧٥٧]

وبقي منها إلى يومنا هذا جدارها الشمالي الضخم ، ولوحة متواضعة لمديرية الآثار ، وهي بحاجة إلى ترميم .

٥- المدرسة الشومانية الشافعية :

منشـئها : السيدة خاتون بنت ظهير الدين شومان ، أحد مماليك بني أيوب ، وقد سميت فيما بعد بالمدرسة الطيبة تيمناً . [٧٥٨]

موقعها : تقع قبلي المدرسة النورية ، وشرقي تربة زوجة تنكز، في المدخل الشرقي لزقاق المحكمة اليوم[٧٥٩]. وقد تعرضت سنة (٨٠٣ هـ /١٤٠٠م) للتدمير على يد تيمورلنك وجنوده ، فأعيد بناؤها ،

---

(٧٤٩) – ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٣ ص١٨١ .
(٧٥٠) – العلبي : خطط دمشق - ص١٥٧ / وايتسنجر : الآثار الإسلامية - ١٢٨ .
(٧٥١) – العلبي : المرجع السابق ص١٥٨ .
(٧٥٢) – سبقت ترجمته أثناء الحديث عن دار الحديث الناصرية .
(٧٥٣) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج٣ ص١٩٣ / النعيمي : الدارس - ج١ ص٣٥١ .
(٧٥٤) – العلبي : المرجع السابق ص١٦٥ .
(٧٥٥) – ابن كثير : المصدر السابق - ج١٣ ص١٩٤ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٣١٥ .
(٧٥٦) – كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص٨٧ .
(٧٥٧) – وايتسنجر : المرجع السابق ص١٢٧ .
(٧٥٨) – ابن رافع : الوفيات ج٢ ص٣٠٥ / النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٢٣٨ .
(٧٥٩) – العلبي : المرجع السابق - ص١٢٩ .

وتحوّلت اليوم إلى محلاّت تجارية [٧٦٠] . أما تاريخ بنائها فهو في حدود سنة (٦٦٠ هـ /١٢٦١ م) ، لأن ابن شداد ذكر اثنين من مدرسيها حتى سنة (٦٧٤هـ /١٢٧٥م) [٧٦١] . وذكرها النعيمي مرتين : مرة باسم الشومانية ، والمرة الثانية باسم الطيبة ، ونعتقد أنه لا داعي لذلك . [٧٦٢]

٦- المدرسة الساروجية الشافعية :

منشئها : جمال الدين الساروجي التاجر ، سنة (٦٦٥ هـ /١٢٦٦ م) ، وأوقفها على الشريف كمال الدين حمزة الطوسي . هذا كل ما أورده عنها ابن شداد والنعيمي ، ولم يذكرها الإربلي وتجاهلها بدران وكرد علي. وكل ما استطعنا معرفته عن موقعها أنها كانت خارج السُّور. [٧٦٣]

٧- المدرسة الأصفهانية الشافعية :

منشئها : بناها تاجر من أصفهان في " حارة الغرباء " مكان سوق الأروام اليوم تقريباً .

وقد ذكرها ابن شداد ، ولم يذكرها الإربلي ، وقال ابن قاضي شهبة : " إنها كانت قائمة حتى أواخر القرن الثامن " [٧٦٤] . وكذلك أهملها العلموي ، الذي قال : " وهذه المدرسة مجهولة عندي ، اللهم إلاّ أن تكون موضع تكية أحمد باشا " . [٧٦٥]

وعلى كل الأحوال ، فإن المنطقة التي كانت فيها هذه المدرسة ومناطق أخرى كثيرة مجاورة لها قد أحرقت ، جرّاء ضرب دمشق بالقنابل في تشرين الأول سنة (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥ م) إبّان الثورة السورية الكبرى . [٧٦٦]

٨- المدرسة النجيبية الشافعية :

منشئها : الأمير آقوش بن عبد الله النجيبي أبو سعد الصالحي ، أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل وجعله من أكابر الأمراء ، وولاّه إستدراية [٧٦٧] ، ثم استنابه بالشام تسع سنين، فاتخذ فيها المدرسة النجيبية ، كان كثير العلم ، محباً للعلماء ، محسناً إليهم ، حسن الاعتقاد ، شافعي المذهب . توفي بالفالج سنة (٦٧٧ هـ /١٢٧٨م) وقد قارب السبعين . [٧٦٨]

ومعنى آقوش : العصفور الأبيض [٧٦٩] . ومن الأوقاف التي أوقفها على المدرسة : بساتين واسعة قرب الجامع الكريمي بالميدان ، وجعل النظر فيه لابن خلكان . [٧٧٠]

---

(٧٦٠) – بدران : منادمة الأطلال ص١٠٩ .
(٧٦١) – ابن شداد : الأعلاق – قسم دمشق ص٢٤٦ .
(٧٦٢) - النعيمي : الدارس - ج١ ص٢٣٨ ، ٢٥٤ .
(٧٦٣) – ابن شداد : المصدر السابق ص٢٥٣ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٢٧٦ .
(٧٦٤) – ابن شداد : المصدر السابق ص٢٤٢ / ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٣ ص٢٥٣ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص١١٨.
(٧٦٥) – العلموي : مختصر تنبيه الطالب - ص٢٤٤ .
(٧٦٦) – (الشهابي) : قتيبة (دمشق تاريخ وصور) – وزارة الثقافة – دمشق – ١٩٨٦ ص٢٧٧ . حيث أورد صورة المنطقة وهي مدمرة من قبل الفرنسيين .
(٧٦٧) – الإستدار : بكسر الهمزة : لقب يطلق على من يتولى قبض المال السلطاني وصرفه ، وتمثيل أوامر السلطان فيه ، وهو مركب من لفظين فارسين : إسْتَدْ : ومعناه الآخذ . ودار : الممسك . وقد أدغمت الذال الأولى مع الدال من كلمة دار ، فصارت إستدار. والمعنى : المتولى للأخذ ، وترد في الكتب أحياناً أستاذ الدار / دهمان : معجم الألفاظ : ص١٥ .
(٧٦٨) – الذهبي : العبر ج٣ ص٣٣٥ / ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٨٨ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٣٥٨-٣٥٩. دهمان : ولاة دمشق ص٦٢ .
(٧٦٩) – العلبي : خطط دمشق - ص١٦٦ .
(٧٧٠) – ابن العماد : الشذرات - ج٦ ص١٤ .

موقعها : كانت لصيق المدرسة النورية الكبرى ، وضريح نور الدين من جهة الشمال ، وكان بناؤها سنة (٦٧٠ هـ /١٢٧١م) قبل عزل واقفها ، لكنها لم تكتمل ، وتوقف العمل فيها جرّاء المصادرات التي تعرض لها الواقف .

وفي رجب سنة (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) توفي ابن خلكان في هذه المدرسة ، ودفن بقاسيون. وممن أقام فيها ، المؤرخ ابن كثير ، ودفن فيها الشيخ محمود بن دقيق العيد ، وتاج الدين الكيلاني ، كما هو مدون على لوحة المدرسة . [٧٧١]

وقد اقتطع قسم كبير من شمالي هذه المدرسة ، مثلما حلَّ بأختها النورية نتيجة شق الشارع، وقد رممت القبة سنة (١٣٩٧هـ/١٩٧٦م) وبقيت مع الواجهة الشرقية للمدرسة. [٧٧٢]

٩- المدرسة الطبرية الشافعية :

منشئها : مجهول الهوية ، وغير معروف . [٧٧٣]

موقعها : في باب البريد . وقد ذكر كلٌّ من ابن رافع والنعيمي أن من مدرسيها الإمام شرف الدين الحسين بن أُلَّهْ (أي العقاب) ، المتوفى سنة (٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م) [٧٧٤] ، كما ذكرها ابن قاضي شهبة في ترجمة والده أحمد بن محمد المتوفى سنة (٧٩٠ هـ / ١٣٨٨م) . [٧٧٥]

وذكر العلبي : " بما أن ابن شداد لم يذكرها ، وذكرها الإربلي فقد قدر أن بناءها في حدود سنة (٧١٥ هـ / ١٣١٥ م) " ولا أثر لها اليوم . [٧٧٦]

١٠- المدرسة الحمصية الشافعية :

منشئها : لم نعرف شيئاً عنه .

موقعها : اختلفت الآراء حول موقعها ، فقد ذكر ابن كثير أنه : " في يوم الأحد رابع ذي القعدة فتحت المدرسة الحمصية ، تجاه الشامية الجوّانية ، ودرّس بها محي الدين الطرابلسي ، قاضي عكّار " [٧٧٧] .

وذكر النعيمي نقلاً عن ابن كثير : " أنها تجاه الشامية البرّانية " [٧٧٨] .

أما ابن قاضي شهبة ، فقال في أثناء ترجمة سبط القاضي الزهري أنه : " درّس بالحمصية ، تجاه الشامية الجوانية " . [٧٧٩]

ووجدنا مقالة في مجلة الحوليات الأثرية ذكرت كاتبتها أنها : " عاينت في منطقة سوق ساروجا بقايا بناء ، رجَحْتُ أنه هو المدرسة الحمصية ، وليس لنا تعليق على ذلك " [٧٨٠]

١١- المدرسة القواسية الشافعية :

---

(٧٧١) – وايتسنجر : الآثار الإسلامية - ص١٦٨ .
(٧٧٢) – العلبي : المرجع السابق - ص١٦٧ .
(٧٧٣) – النعيمي : الدارس - ج١ ص٢٥٤ .
(٧٧٤) - ابن رافع : الوفيات - ج١ ص٢٦٩ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٢٥٤ .
(٧٧٥) – ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٣ ص٢٥٢ ، ٥٥١ .
(٧٧٦) – العلبي : المرجع السابق - ص١٣٣ .
(٧٧٧) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص١٢٤ .
(٧٧٨) – النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص١٧٤ .
(٧٧٩) – ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ج١ ص٦٧١ .
(٧٨٠) – (لا بيري) : إيرين (ملاحظات حول بناء هدم مؤخراً في سوق ساروجا) – مجلة الحوليات الأثرية السورية – ١٩٨٥ ص٦٢.

منشئها : الأمير عز الدين إبراهيم القوّاس ، حيث أوصى عندما حضره الموت أن تحوّل داره إلى مدرسة للشافعية ، وأوقف لها أوقافاً كثيرة ، وقد توفي سنة (٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م) . [٧٨١]

موقعها : تقع في " العقيبة الصغيرة " عند مسجد الزيتونة ، شمال سوق النحاس . وأول مدرسيها الشيخ عماد الدين الكردي الشافعي وذكر العلموي أنها كانت قائمة سنة (٩٧١ هـ /١٥٦٣ م)[٧٨٢]، وقال بدران : " وقد تأملت في منطقتها فلم أجد لها أثراً سوى حجارة كبيرة في بعض الجدران، وعلى كلٍ فقد صارت دوراً " [٧٨٣] ولا أثر لها اليوم .

١٢- المدرسة الطقطائية الشافعية :

منشئها : لم يعرف على وجه اليقين ، فهناك :

١- طقطاي الناصر الجمدار المتوفى سنة (٧١٨ هـ / ١٣١٨م) وهو معاصر لعهد الإربلي ولو كان هو الباني لذكره الإربلي ، ولكنه لم يذكر المدرسة أصلاً .

٢- طقطاي دوادار يلبغا اليحاوي المتوفى سنة (٧٦٠ هـ / ١٣٥٨م) وقد عاش مع سيده ، صاحب جامع يلبغا المشهور ، في دمشق بين سنة (٧٤٦ – ٧٤٨ هـ / ١٣٤٥- ١٣٤٧م) ولذلك نرجح أنه هو الباني على غلبة الظن .

٣- طقطاي ، حفيد جنكيز خان ، ولا يعقل أن يكون هو الواقف . [٧٨٤]

ولذلك يكون طقطاي الثاني على غلبة الظن – هو باني المدرسة ، وإذا صح هذا فيكون عام (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) هو عام بنائها وذكرها النعيمي باسم " التقطائية " . [٧٨٥]

موقعها : داخل الباب الصغير بنحو مائة ذراع شرقية ، غربي بيت الخواجه قبلي مئذنة الشحم. [٧٨٦]

وقال الشيخ بدران : " وقفت مكانها فلم ينادني شيء من أطلالها ، ولم تخاطبني آثارها بشيء من أخبارها ، فرجعت أسفاً ، وقد تجلى لي كغيرها من المدارس التي سطت عليها يد الاختلاس " . [٧٨٧]

١٣- المدرسة الظبيانية الشافعية :

منشئها : الأمير سيف الدين ظبيان . [٧٨٨]

موقعها : قبلي المدرسة الشامية الجوانية ولصيقها ، وغربي مدرسة أم الصالح في الزاوية الشمالية الغربية لزقاق المحكمة ، على يسار الداخل . [٧٨٩]

وذكر ابن كثير أنه في سنة (٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م) افتتحت المدرسة الظبيانية التي كانت داراً للأمير سيف الدين ظبيان . وحضر التدريس فيها الشيخ عماد الدين الزملكاني بوصية الواقف له بذلك ، وحضر عنده قاضي القضاة السبكي والمالكي وجماعة من الأعيان .

---

(٧٨١) – ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص١٦٤ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٣٣١-٣٣٢ .
(٧٨٢) – النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٣٣٢ .
(٧٨٣) – بدران : المرجع السابق ص١٣٩ .
(٧٨٤) – النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٢٥٢ – ٢٥٣ .
(٧٨٥) – النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٢٥٢ .
(٧٨٦) – النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٥٢ .
(٧٨٧) – بدران : المرجع السابق ص١١٤ .
(٧٨٨) – لم نعثر له على ترجمة في المصادر المتوفرة بين يدينا .
(٧٨٩) – النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٢٥٦ .

ثم ذكر ابن كثير : " أنه وجد بواب المدرسة الظبيانية مذبوحاً وقد سُرقت منه أموال للمدرسة المذكورة " . [٧٩٠]

وأشار العلبي إلى أنه " لا أثر للمدرسة اليوم بعد ما تعرّضت له من قنابل المستعمر الفرنسي ، ومعاول نفرٍ من أبناء الوطن " . [٧٩١]

١٤- المدرسة التدمرية الشافعية :

منشئها : جمال الدين عبد الله بن محمد بن عيسى التدمري ، الذي كان " أستادار " الأمير طاز . [٧٩٢] ومن جهة أخرى ، فقد ذكر ابن قاضي شهبة في ترجمة بدر الدين بن جمال الدين التدمري الواقف المتوفى سنة (٧٨٧ هـ /١٣٨٥ م) : " أنه جاء من القدس مطروداً ، وكان يدّرس بالمدرسة الموقوفة عليه وعلى أقاربه بالقرب من السبعة .... " [٧٩٣]

موقعها : كانت تقع خارج باب توما ، في مكان ما بين باب توما وجامع الأقصاب ، حيث توجد المنطقة المعروفة بالسبعة أنابيب .

وكانت المدرسة أصلاً للشافعية ، فجعل قاضي القضاة الشافعي فيها درساً للحنابلة ، الذين تعرَّضوا على ما يبدو إلى بعض المضايقات من بعض القضاة ، وطُعن في نزاهة الواقف التدمري نفسه ، ونُسب إليه أكل أموال سيده الأمير طاز .

ولم يذكرها الإربلي ، ولا النعيمي ، ولا العلموي ، ولكن لا أثر لهذه المدرسة اليوم . [٧٩٤]

وبعد عرضنا لمدارس الفقه الشافعي في نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول وجدنا أن عددها بلغ (أربع عشرة) مدرسة . وهو عدد أكبر من عدد دور القرآن ودور الحديث . وبلغ عدد المدارس التي بقيت حتى وقتنا الحالي (مدرستين) وخسرت دمشق (اثنتي عشرة) مدرسة من مدارس الفقه الشافعي نتيجة شق الشوارع ، أو الاعتداء عليها من قبل السكان لبناء مساكن ، أو ضرب الفرنسيين لبعضها وتدميرها في أثناء قصف مدينة دمشق عقب الثورة السورية الكبرى .

وهناك (أربع) مدارس لم نتعرف على واقفيها ، وواحدة منها فقط – الطقطائية – استطعنا التوصل إلى واقفها – بأغلب الظن – .

ثانياً – المدارس الحنفية :

١- المدرسة الجمالية الحنفية :

منشئها : جمال الدين يوسف بن بهاء الدين ، الأميري المعظمي الحنفي ، في شهر تموز سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م) [٧٩٥]

---

(٧٩٠) – ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص٢٣٣ ، ٢٣٩ .
(٧٩١) – العلبي : المرجع السابق ص١٣٩ .
(٧٩٢) – ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص٣٠٧ . ولم نتمكن من الوقوف على ترجمة للواقف .
(٧٩٣) – ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ج٣ ص ١٧٧ .
(٧٩٤) - العلبي : المرجع السابق ص١١١ .

موقعها : كانت تقع بأرض السكة ، غربي الصالحية بسفح قاسيون . [٧٩٦]

وهذه المدرسة لم يذكرها ابن شداد ولا الإربلي ، ولا بدران . ولا أثر لها اليوم .

٢- المدرسة المرشديَّةُ الحنفية :

منشئها : خديجة خاتون ، بنت الملك المعظم عيسى ، وهي الأخت الشقيقة للملك الناصر ، توفيت سنة (٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) . [٧٩٧]

موقعها : تقع المدرسة بالصالحية على نهر يزيد ، جوار دار الحديث الأشرفية [٧٩٨] .

أما تاريخ بنائها فقد كان مثار خلاف بين المؤرخين ، فذكر ابن شداد أن بناءها كان سنة (٦٥٤ هـ/ ١٢٥٦)[٧٩٩] ، أما كرد علي فقال : سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) [٨٠٠] ، بينما كان لسوفاجية رأي آخر حيث ذكر أنها بنيت سنة (٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م) معتمداً على نص الوقف ومنه : " هذا ما أوقفته عصمة الدين خديجة خاتون ، ابنة السلطان الملك المعظم ..... في شهر ذي الحجة سنة (٦٥ هـ / ١٢٥٢ م) " [٨٠١] وهذا الأمر دفعنا إلى ترجيح رأي سوفاجيه .

وذكر العلبي أنها رممت من الخارج ، وأُصلحت قبتها ، وهي معروفة ومشهورة . ولها منارة متميزة ، فريدة من نوعها في دمشق [٨٠٢] وما تزال هذه المدرسة صامدة حتى يومنا الحاضر بشكل جيد .

٣- المدرسة الجوهرية الحنفية :

منشئها : الصدر نجم الدين أبو بكر بن محمد بن عيَّاش التميمي الجوهري ، كان له خدمة على الملوك الأيوبيين ، والأمراء المماليك ، توفي عن ثمانين عاماً وذلك سنة (٦٩٤هـ/١٢٩٤ م) [٨٠٣].

موقعها : داخل دمشق بحارة بلاطة ، شرقي تربة أم الصالح [٨٠٤] ، وغرب المدرسة النورية الكبرى فيما يسمى اليوم " زقاق المحكمة " [٨٠٥]

أما المدرسة فكانت داراً للخاتون " عذراء " صاحبة المدرسة العذراوية وقد بوشر ببناء المدرسة سنة (٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) واكتملت سنة (٦٨٠ هـ /١٢٨١ م) وألقي أول درس فيها في السابع من رمضان سنة (٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) [٨٠٦] .

---

(٧٩٥) – الترجمة من كتاب العلبي : خطط دمشق ص١٧٩ . أما النعيمي فقال : عن واقفها : " لم أقف له على ترجمة ، ولا وقفت لها على ترجمة " النعيمي : الدارس ج١ ص٣٧٤ .

(٧٩٦) – (ابن طولون) : محمد (القرئد الجوهرية) دمشق – د . ر . ت . ط - ج١ ص٢٣٥ / العلبي : المرجع السابق – ص١٨٠ .

(٧٩٧) – النعيمي : الدارس - ج١ ص٤٤٣ .

(٧٩٨) – النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٤٤٣ / العلبي : خطط دمشق - ص٢٢٥ .

(٧٩٩) – العلبي : المرجع السابق ص٢١٦ .

(٨٠٠) – كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص٩٥ .

(٨٠١) – وايستنجر : الآثار الإسلامية - ص٢٥٠ .

(٨٠٢) – العلبي : المرجع السابق - ص٢١٦ .

(٨٠٣) – (اليونيني) : موسى بن محمد (ذيل مرآة الزمان) – بعناية وزارة التحقيقات الحكيمة والأمور الثقافية للحكومة الهندية – دار الكتاب الإسلامي – ط٢ – القاهرة – ١٩٩٢ – ج٤ ص٩٨ / ابن كثير : المصدر السابق ج١٣ ص٣١٦ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٣٨١-٣٨٢ .

(٨٠٤) – النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٣٨١ .

(٨٠٥) – العلبي : المرجع السابق ص١٨٢ .

(٨٠٦) – النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٣٨٢ .

وذكر العلبي أنه : " منذ قرنٍ من الزمن قام بعضهم وحوَّلها إلى دور للسكن وبنى عليها مرصداً ، فعمد اثنان من أولاده إلى إعادتها إلى سيرتها الأولى وجعلاها مدرسة ، ثم اغتصبت وعادت دوراً للسكن من جديد ، وقد حوّلها الشيخ عيد السفرجلاني إلى مدرسة أهلية ، ثم باعها ، واشترط أن تقرن باسمه ، فأصبح اسمها الجديد " المدرسة الجوهرية السفرجلانية " ثم تابع قائلاً : " ولقد تلقينا تعليمنا الابتدائي فيها ، وكان قبر الواقف في حديقة صغيرة شمالي الساحة العامة للمدرسة ، وكانت تتخذ (سجناً مؤقتاً) للطلاب المشاغبين ، يحرمون فيها من تناول الغذاء " [٨٠٧] .

وهدمت هذه المدرسة سنة (١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م) لشق طريق ، ولكن بقي منها اللوحة الرخامية المدوَّن عليها تاريخ الوقف ، وهي في المتحف الوطني بدمشق . [٨٠٨]

٤- المدرسة الآمدية الحنفية :

منشئها : عفيف الدين إسحق بن يحيى الآمدي ، ولد سنة (٦٤٠ هـ/١٢٤٢ م) وسمع الحديث، وهو والد فخر الدين ناظر الجيوش [٨٠٩] والجامع الأموي، المتوفى سنة (٧٢٥ هـ / ١٣٢٤م)، ودفن بقاسيون [٨١٠] ، واعتمد العلبي سنة (٧٢٠ هـ /١٣٢٠ م) سنة بنائها دون ذكر أسباب منطقية ، علماً أن المصادر التي ذكرتها لم تذكر سنة بنائها . [٨١١]

موقعها : بالصالحية العتيقة ، جوار الميطورية من الغرب . [٨١٢]

وحدث خلاف حول هذه المدرسة . هل كانت مدرسة للحنفية ؟ أم أنها كانت تربة ؟ فذكر النعيمي نقلاً عن ابن قاضي شهبة ما نصّه : " وغربي الميطورية مدرسة للحنفية ، يقال لها الآمدية ، وقد ذكر لي ذلك من شاهدها وعلى بابها طواشية [٨١٣] " . ثم تابع قائلاً : " وقال لي ناظرها الآن قاضي القضاة يعني الحنفية ، كان محب الدين بن القصيف إنها تربة والله أعلم " [٨١٤] .

أما ابن طولون فرأيُه مختلف إذ أورد : " أنها ربما كانت مدرسة وتربة ، قُصد التمويه عنها خوفاً من الفقهاء على وقفها " . [٨١٥] وذكر بدران : " إن الآمدية قرية ولعلها مدرسة " [٨١٦] .

وأياً كان ، فلا أثر لهذه المدرسة اليوم ، واندرست وانطمست آثارها منذ زمن بعيد [٨١٧]، ويمكن أن يكون في موضعها الآن بستان . [٨١٨]

---

[٨٠٧] – العلبي : المرجع السابق ص١٨٢ – ١٨٣ .

[٨٠٨] – شاهدنا هذه اللوحة في المتحف الوطني، ولكن ما لفت انتباهنا أنه كتب عليها تاريخ بناء المدرسة سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م)، علماً أن اليونيني ذكر أن بناءها كان سنة (٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) واليونيني معاصر للحدث وهو أدق وأوثق . فَلعلّه غيّرت اللوحة الرخامية المؤرخ عليها سنة الافتتاح خلال العصور اللاحقة .

[٨٠٩] - ناظر الجيش : هو الذي يتحدث في أمر الجيوش وضبطها . / دهمان : معجم الألفاظ ص١٥٠ .

[٨١٠] - الذهبي : العبر ج٤ ص٧٤ / ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص١١٤ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٣٦٥ / ابن طولون : المصدر السابق ص١٩٣ .

[٨١١] - العلبي : المرجع السابق ص١٧١ .

[٨١٢] - النعيمي : الدارس - ج١ ص٣٦٥ . ونود أن نشير أن ابن كثير عندما ترجم للواقف لم يذكر أنه قام ببناء أو أوقف مدرسة قبل وفاته أو حتى بعد وفاته .
ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص١١٤ .

[٨١٣] – الطواشية : جمع طواشي، وهم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه / دهمان : المرجع السابق ص١٠٩ .

[٨١٤] – النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٣٦٥ .

[٨١٥] – ابن طولون : مفاكهة الخلان - ص١٩٣ .

[٨١٦] – بدران : منادمة الأطلال - ص١٥٢ .

[٨١٧] – العلبي : المرجع السابق ص١٧١ .

[٨١٨] - بدران : المرجع السابق ص١٥٣ .

٥- المدرسة العلائية الحنفية :

منشئها : الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الناصري .

موقعها : لم نستطع تحديده .

وجعلها واقفها مدرسة للحنفية ، وأقّرَ بها صوفية أيضاً ، ودرَّس بها القاضي علاء الدين التركماني ، واسكنها الفقهاء . وتاريخ إنشائها (٧٣٠ هـ /١٣٢٩ م) [٨١٩] .

وهذه المدرسة لم يذكرها الإربلي ، ولا النعيمي ، ولا ابن طولون ، ولا المراجع اللاحقة، وانفرد ابن كثير بذكرها .

٦- المدرسة الخليلية الحنفية :

منشئها : الأمير سيف الدين طقتمر الخليلي نائب حمص ، الذي توفي فيها ، ونقل إلى دمشق فدفن فيها . [٨٢٠]

موقعها : خارج باب الفرج ، مقابل حمام المحتسب ، ولم نتمكن من الوقوف على موقع الحمام لتثبيت موقع المدرسة . وهذه المدرسة كسابقتها لم تذكر لدى النعيمي ضمن المدارس الحنفية ، ولكن الأمر الذي دفعنا لذكرها هو ما وجدناه لدى ابن كثير حيث فقد في حوادث سنة (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) حقيقة افتتاح هذه المدرسة وواقفها قائلاً : " في شهر ربيع الأول عملت منارة خارج باب الفرج ، وفتحت مدرسة كانت داراً قديمة ، فجعلت مدرسة للحنفية ومسجداً ، وعُمِلَت طهارة عامة ، ومصلّى للناس ، وكل ذلك منسوب للأمير سيف الدين طقتمر الخليلي أمير حاجب ، وهو الذي جدد الدار المعروفة اليوم بالقصاعين " [٨٢١] .

وفي كلام ابن كثير هذا إشارة واضحة إلى كون المدرسة للحنفية وعصره سابق لعصر النعيمي الذي اعتمد على الحسيني في ذيل العبر إذ قال : " في سنة ست وأربعين وسبعمائة، مات بحمص نائبها الأمير سيف الدين بكتمر الخليلي صاحب مدرسة الخليلية بدمشق " [٨٢٢] .

وكلام النعيمي الذي نقله من الحسيني لا توجد فيه إشارات أو إيضاحات حول نوع هذه المدرسة ، الأمر الذي أوهم النعيمي فذكرها ضمن المدارس الشافعية ، ودليل ابن كثير أقوى وأوضح . أما الأستاذ طلس فذهب للقول إن هذه المدرسة : " ربما تكون هي نفسها جامع الخليلي في سوق ساروجة " من دون دليل [٨٢٣] .

٧- المدرسة الطومانية الحنفية :

منشئها : لعلّه طومان النوري بن ملاعب الأنصاري الخزرجي كان شجاعاً جواداً ، محباً للخير كثير الصدقات ، مائلاً إلى العلماء والفقهاء . بنى بحلب المحروسة مدرسة للحنفية . توفي سنة

---

(٨١٩) – ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص١٤٠ .
(٨٢٠) – ابن كثير : المصدر نفسه ج١٤ ص٢٠٠-٢٠١ .
(٨٢١) – ابن كثير : البداية والنهاية .
(٨٢٢) – النعيمي : الدارس - ج١ ص١٧٧ .
(٨٢٣) – طلس : المقاصد ص٢١٣ .

(٥٨٥هـ/١١٨٩م).[٨٢٤] مع أن النعيمي ذكر في بداية الكلام عن المدرسة : " لم أقف على ترجمة واقفها " ثم رجّح أن يكون طومان النوري هو الواقف .

ونود الإشارة لأمر هام ألا وهو : إذ صحَّت نسبة الطومانية إلى طومان النوري – السابق الذكر – فهي من مدارس القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، ولكن الملفت للنظر أن ابن شداد والإربلي لم يتطرقا إلى ذكرها، بل ذكرها ابن قاضي شهبة [٨٢٥] ، الأمر الذي دفعنا للاعتقاد أن تاريخ بنائها هو حوالي النصف الثاني من القرن الثامن .

موقعها : مقابل دار الحديث النورية وغربي الشريفية ، ولكن لا أثر لها اليوم بعد إقامة المباني الحديثة . [٨٢٦]

٨- المدرسة المنجكية الحنفية :

منشـــئها : الأميـر الكبيـر ، سـيف الـدين منجـك اليوسـفي الناصـري ، تـولّى منصـب حجوبيـة دمشق [٨٢٧] سنة (٧٤٨هـ /١٣٤٧ م) ، وتوفي سنة (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤م) . [٨٢٨] وبنى في دمشق الخان الكبير عند باب النصر ، والحمام بالعمارة الجوانية ، قرب المدرسة الرواحية .

موقعها : في منطقة الخلخال ، غربي دمشق [٨٢٩] ، حالياً حيث مشافي الجامعة ، وسنة البناء هي (٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م) [٨٣٠] . وذكر العلموي في مختصره أنها دَرست في عهده وصار مكانها بستاناً ، واستولى الناس على أوقافها . [٨٣١]

وتأسَّف العلبي على المنطقة الممتدة من الحلبوني إلى مشفى المواساة قائلاً : " على كثرة المدارس التي بنيت هناك ، إلاّ أنه لم تسلم مدرسة واحدة من الهدم والاختلاس في كل المنطقة " [٨٣٢] .

وهكذا نستطيع القول إنه وجد في نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول (ثماني) مدارس للفقه الحنفي ، زالت (سبع) مدارس وبقيت واحدة فقط – المرشدية – .

في حين وجد في دمشق في نيابة العصر المملوكي الثاني (ست) مدارس ونلاحظ أن العصر الأول أغنى من العصر الثاني بمدرستين .

ثالثاً : المدارس المشتركة بين الشافعية والحنفية :

وجد في نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول مدرسة واحدة فقط مشتركة بين المذهبين الشافعي والحنفي ألا وهي ، المدرسة الظاهرية الكبرى .

---

(٨٢٤) - النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٤١٧ .
(٨٢٥) – ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة – ج٣ – ص١١٣ .
(٨٢٦) – العلبي : خطط دمشق - ص١٩٩ .
(٨٢٧) – الحجوبية : منصب مملوكي ، ويقوم صاحبه مقام النائب في الولايات ، وإليه يرجع عرض الجند ، فهو يصنّف بين الأمراء تارة ، وتارة بمراجعة السلطان . دهمان : معجم الألفاظ - ص٥٩ .
(٨٢٨) – ابن آيبك : أمراء دمشق ص١٠٣ / المقريزي : السلوك ج٤ ص٣٨٣ / ابن حجر : الدرر ج٤ ص٢٢٠-٢٢١ .
ابن تغري بردي : النجوم ج١١ ص١٠٨ / النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٤٦١ / دهمان : ولاة دمشق ص ٢١٣-٢٣٢ .
(٨٢٩) - النعيمي : الدارس - ج١ ص٤٦١ .
(٨٣٠) – العلبي : خطط دمشق - ص٢٢٣ .
(٨٣١) – العلموي : مختصر تنبيه الطالب - ص١١٠ .
(٨٣٢) – العلبي : المرجع السابق ص٢٢٣ .

١ – المدرسة الظاهرية الكبرى :

منشئها : الملك الظاهر بيبرس البند قداري ، المتوفى سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧م) [٨٣٣] .

موقعها : داخل بابي الفرج والفراديس ، جوار الجامع الأموي ، شمالي باب البريد ، مقابل العادلية الكبرى ، بينهما الطريق . [٨٣٤]

أما المراحل التي مرَّت بها حتى تحولت إلى مدرسة فهي :

١"– في بداية الأمر كانت هذه المدرسة داراً للأمير أحمد بن الحسين العقيقي ، من أمراء سيف الدولة الحمداني الشيعة ، وقد توفي هذا الأمير سنة (٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م) وكان له حمام إلى جانب داره . [٨٣٥]

٢"– وعندما دخل نور الدين دمشق سنة (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م) ، اشترى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين هذه الدار ، وأقام فيها أولاده من بعده . [٨٣٦]

٣"– في سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) اشترى الملك السعيد بن الملك الظاهر هذه الدار بمبلغ ٤٨.٠٠٠ درهم، وأمر أن تُجعل مدرسة للشافعية والحنفية ، وبنى فيها القبة المشهورة ، ودفن فيها والده .

وكان الملك الظاهر بيبرس قد أوصى أن يكون مكان دفنه في منطقة داريا على الطريق العام – كي يدعو الناس له – فخاف الملك السعيد على والده واشترى له هذه المدرسة . [٨٣٧]

وقد وقع النعيمي في وهم ، حيث ذكر أن الظاهر بيبرس اشترى هذه الدار سنة (٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م) وجعلها مدرسة [٨٣٨] ، ودليلنا على ذلك المؤرخ اليونيني ، الأقرب إلى عهد بيبرس ، وكذلك ابن شداد ، وهما ثقة ، فإنهما لم يذكرا ذلك ، وإذا كان كلام النعيمي صحيحاً فلماذا دفن الظاهر بيبرس داخل قلعة دمشق ؟ ثم تم نقله إلى المدرسة ؟ ولو كان كلام النعيمي صحيحاً لدفن بيبرس داخل المدرسة مباشرة . والدليل الثاني هو النقش الموجود حتى يومنا هذا على باب المدرسة والذي يشير بوضوح إلى أن تاريخ الوقف هو سنة (٦٧٦ هـ /١٢٧٧ م).

٤"– وفي صفر سنة (٦٧٧ هـ / ١٢٧٨م) ، ذُكِرَ الدرس الأول في المدرسة الظاهرية ، ألقاه الشيخ رشيد الدين الفارقي ، وذلك قبل اكتمال بناء المدرسة . [٨٣٩]

٥"– في جمادى الآخرة سنة (٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) وَجَّهَ الملك السعيد اثنى عشر ألف دينار لدعم ميزانية المدرسة . [٨٤٠]

٦"– وحمل العام التالي عَزل الملك السعيد ، كما عُزل أخوه من بعده ، وأصبح الحاكم في دولة المماليك السلطان قلاوون الذي استمر بالبناء .

---

(٨٣٣) - مصادر ترجمته عند ابن آيبك : أمراء دمشق ص٣٨ / ابن آيبك : الوافي بالوفيات ج١ ص٣٢٩ وما بعد .
اليونيني : ذيل مرآة الزمان - ج٣ ص٢٩٤ . / ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٢٥٣ وما بعد .
(٨٣٤) – النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٢٦٣ .
(٨٣٥) – النعيمي : المصدر نفسه ج١ ص٢٦٣ – ٢٦٤ .
(٨٣٦) - (الريحاوي) : عبد القادر (روائع التراث في دمشق) دار التكوين ط - دمشق – ٢٠٠٥ ص١٨٥ .
(٨٣٧) – (ابن شداد) : محمد بن علي (تاريخ الملك الظاهر) ، فسبادن – ١٩٨٣ – ص٢٢٤ .
(٨٣٨) – النعيمي : الدارس - ج١ ص٢٦٤ .
(٨٣٩) – اليونيني : ذيل مرآة الزمان - ج٣ ص٢٩٤ .
(٨٤٠) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٢٥٩ .

٧"– وفي سنة (٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م) تكامل معظم البناء ، ونُقشت على بابها رخامة ، جاء فيها أن الذي أمر بالبناء هو السلطان قلاوون . [٨٤١]

٨"– تكامل بناء المدرسة تماماً في سنة (٦٨٠ هـ /١٢٨١ م) .

٩"– في ربيع الأول (٦٨٠ هـ /١٢٨١ م) دفنت أرملة بيبرس ابنها السعيد بجانب أبيه . [٨٤٢]

وقد حدثنا ابن شداد عن نظام المدرسة التي كانت تضم :

أ– مسجداً للصلوات الخمس وقراءة القرآن والاعتكاف . ب– مدرسة للشافعية وهي في جهة الشرق . ج – أما مدرسة الحنفية فكانت في جهة القبلة . د – دار حديث وهي التي قبلي الشافعية ، وقد أوقف لها أوقافاً جزيلة .

وجعل في المدرسة إماماً شافعياً وناظرين ومؤذناً وستة عشر مُقْرئاً يَقرؤون ليلاً ونهاراً ، كل نفرين ثلاث ساعات ، ورتب في كل مدرسة مدرساً ومعيدين وثلاثين فقيهاً . [٨٤٣]

وعندما دخل ابن بطوطة دمشق سنة (٧٢٥ هـ /١٣٢٤م) ذكر أن : " القاضي الشافعي يقيم في المدرسة العادلية مقابل الظاهرية ، فقد اختارها لتكون مقراً لنوابه " [٨٤٤] . وبقيت هذه المدرسة مزدهرة طوال العصر المملوكي ، ولكن ما إن جاء العصر العثماني حتى بدأ الوهن يصيب هذه المدرسة . وقد أمر والي دمشق مدحت باشا سنة (١٢٩٥ هـ /١٨٧٨ م) أن تكون هذه المدرسة مكاناً لتجميع الكتب المبعثرة ، فجمعت هذه الكتب تحت القبة وأصبحت تعرف بالمكتبة الظاهرية [٨٤٥] . ولكن بعد الترميم والإصلاح الذي أُجري لهذه المدرسة ، وهو " خالٍ من كل لمحة فنية على الإطلاق " على حد قول العلبي . أصبح وضع المدرسة يرثى له. فلم يبق منها حالياً إلاّ الواجهة والقبة وما حولهما ، ودخل الإسمنت إلى بنائها . [٨٤٦]

رابعاً – مدارس الفقه المالكي : وهي :

١ – المدرسة الشرابيشية المالكية :

منشئها : نور الدين علي بن أبي المجد بن محاسن الشرابيشي . صاحب همة ، وتودد إلى الناس ، توفي سنة (٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م) ، وفي سنة (٧٣٤ هـ / ١٣٣٣م) دفن إلى جانبه ابنه شهاب الدين أحمد . [٨٤٧]

موقعها : كانت داخل باب الجابية ، بدرب الشعارين لصيق حمام صالح . [٨٤٨] في المنطقة المسماة حالياً

---

(٨٤١) – النعيمي : المصدر السابق - ج١ ص٢٦٥ .
(٨٤٢) – ابن كثير : المصدر السابق - ج١٣ ص٢٧٢ .
(٨٤٣) – لمزيد من المعلومات حول نظام المدرسة راجع : ابن شداد : المصدر السابق ص٢٢٧ وما بعدها .
(٨٤٤) – ابن بطوطة : الرحلة - ص٥٠٤ .
(٨٤٥) – الريحاوي : روائع التراث - ص١٨٥ .
(٨٤٦) – (الريحاوي) : عبد القادر (العمارة الإسلامية) – وزارة الثقافة – دمشق ١٩٩٤ - ص ١٦٧ / وايتسنجر : المرجع السابق ص١١٤/ دهمان : في رحاب دمشق ص١١٢ / العلبي : المرجع السابق ص١٣٨ .
(٨٤٧) - النعيمي : الدارس - ج٢ ص٦ / العلموي : مختصر تنبيه الطالب - ص١١٨ .
(٨٤٨) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص٦ .

بـ " الحريقة " [٨٤٩] ، في حين ذكر كرد علي أن موقعها في منطقة القنوات [٨٥٠]، لكن العلبي رد عليه بقوله : " وهو قول مخالف للواقع ، ولا دليل له عليه " . [٨٥١]

وقد أغفلت المصادر ذكر تاريخ بنائها ، أما العلبي فقد حدد سنة (٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م) معتمداً على ابن شداد الذي ذكر أن الشيخ الزاوي كان أول مدرسيها ، وأنه مستمر بها حتى سنة (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥م) [٨٥٢] ، ثم تابع العلبي قائلاً : " ولا أثر لها اليوم بعدما ضربتها فرنسا بالقنابل سنة (١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) . [٨٥٣]

٢- المدرسة الصمصاميَّة المالكية :

منشـئها : الصاحب شمس الدين غبريال الأسمري ، عبد الله بن صنعية القبطي أسلم سنة (٧٠١ هـ / ١٣٠١ م) وتفقه في الدين ، وتولّى نظر الدواوين بدمشق ، واعتقل سنة (٧٣٣ هـ/١٣٣٢م) ، وصودرت أملاكهُ ، ثم مات في سنة (٧٣٤هـ/١٣٣٣م) في القاهرة.

وقد وصفته المصادر بحسن التدبير ، والحشمة ، وقلة الأذى ، محباً للستر على الناس ، لم يشتك عليه أحد في محنته ، كما جرت العادة . وكان محباً لابن تيمية وأصحابه ، وتصّدى للدفاع عنهم . [٨٥٤]

في حين ذكرت بعض المراجع الحديثة خطأ أن واقفتها : وأشام الخاتونية العصمية الحنفية ، وهنا نقول كيف هي حنفية ، وتوقف مدرسة للمالكية . [٨٥٥]

موقعهـا : ذكر ابن قاضي شهبة أن موقعها بين دار الحديث الأشرفية ، والبيمارستان النوري [٨٥٦] ، وبالقرب من منطقة السليمانية اليوم ، جنوب دار القرآن الصوفية التي كان بابها يفتح من جهة القبلة إلى المدرسة الصمصامية[٨٥٧] ، وافتتحت المدرسة سنة (٧١٧ هـ/ ١٣١٧م) بحضور القضاة والأعيان ، وابن تيمية [٨٥٨] .

وذكر العلموي أن هذه المدرسة لم يوجد لها أي أثر في عهده [٨٥٩] ، في حين أن الغزي صاحب الكواكب السائرة ذكر أن : " سناناً القرماني ، والد أحمد المؤرخ ، باع بُسط الجامع الأموي لما كان ناظراً عليه ، وخرّب مدرسة الصمصامية المالكية بالقرب من البيمارستان النوري . [٨٦٠]

وفي أثناء رحلة ابن بطوطة ذكر أنها : " أكبر مدارس المالكية بدمشق ، وفيها مسكن قاضي القضاة المالكي [٨٦١] ولا أثر لهذه المدرسة في وقتنا ، لأنها خربت منذ القرن الحادي عشر الهجري /

---

(٨٤٩) – العلبي : خطط دمشق - ص٢٥٢ .
(٨٥٠) – كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص٩٦ .
(٨٥١) – العلبي : المرجع السابق - ص٢٥٢ .
(٨٥٢) - ابن شداد : الأعلاق – قسم دمشق – ص٢٥٤ .
(٨٥٣) – العلبي : المرجع السابق – ص٢٥٢ .
(٨٥٤) – الذهبي : الإعلام ص٣١٠ / الذهبي : ذيل العبر ص١٨٢ / ابن حجر : الدرر – ج٢ – ص١٥٩-١٦٠ / العلموي : مختصر تنبيه الطالب – ص١١٨ .
(٨٥٥) – جيدة : المدارس ونظام التعليم – ص١٥٦ .
(٨٥٦) – ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٣ - ص٦٢٤ .
(٨٥٧) – العلبي : خطط دمشق - ص ٣٣٢ .
(٨٥٨) – ابن كثير : المصدر السابق ج٤ ص٧٨ .
(٨٥٩) – العلموي : المصدر السابق - ص١١٨ .
(٨٦٠) – (الغزي) : محمد بن محمد (الكواكب السائرة ، أعيان المائة العاشرة) : جبرائيل جبور – دار الآفاق – ط ، بيروت ١٩٧٩ – ج٢ ص١٤٩ .
(٨٦١) – ابن بطوطة : الرحلة - ص٥٠٥ .

السابع عشر للميلاد ومما لفت نظرنا أن كل مصادر ومراجع الترجمة لم تذكر سبب تسميتها بالصمصامية ، حتى إن الواقف لم يكن في اسمه إشارة إلى كلمة صمصامية ، لذلك رجحنا أن تكون التسمية نسبة إلى لقب للواقف ، أو أحد المدرسين .

إذاً عرفت نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول مدرستين للفقه المالكي وهذا دليل على قلة أتباع المذهب المالكي في دمشق ولم تحظَ دمشق بفرصة بقاء أي مدرسة منهما ، لأنهما اندثرتا منذ زمن بعيد .

في حين لم تشهد نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الثاني بناء أي مدرسة مالكية . إذ حظيت بفرصةِ بنائها فقط خلال العصر المملوكي الأول . أي أن دمشق على طول العصر المملوكي – الأول والثاني – وجد فيها مدرستان للمالكية .

خامساً – مدارس الفقه الحنبلي :

١ – المدرسة الجوزية :

منشئها : الشيخ محي الدين يوسف بن الجوزي ، سفير الخليفة العباسي إلى أمراء الشام ومصر ، شأنه شأن نجم الدين البادرائي .

وكان ابن الجوزي هذا من أقطاب المذهب الحنبلي ، وقد برع في علوم شتى ، وكذلك نبغ في علم القراءات ، وكان كثير الحفظ . ولكنه قتل على يد هولاكو سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) بعد أن قتل الخليفة والوزراء ، ودمر بغداد [٨٦٢] .

موقعها : شرقي المدرسة الفارسية [٨٦٣] ، أسفل سوق البزورية . [٨٦٤]

وتاريخ بنائها هو سنة (٦٥٢ هـ /١٢٥٤ م) وتعرفنا على ذلك من خلال نقش محفوظ في متحف دمشق ، وكذلك أورده سوفاجيه . [٨٦٥]

وظلَّت هذه المدرسة قائمة حتى سنة (١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) ، عندما تعرضت مع ما تعرضت له مدينة دمشق من قصف همجي من قبل الفرنسيين فانهارت المدرسة وصارت ركاماً .

وبذلت مديرية الأوقاف جهوداً سنة (١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م) لترميمها ، ولكن جاء هذا الترميم على الطراز الحديث الغربي ، وجعلت تحتها محلات ومخازن ، ولا تزال حتى اليوم على وضعها الراهن ، وفيها مسجد صغير . [٨٦٦] وكانت مقراً لجلوس القاضي الحنبلي ، يجلس فيها للأحكام . [٨٦٧]

---

(٨٦٢) – الذهبي : العبر ج٣ ص٢٨٥ / ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٢٠٣ / النعيمي : الدارس - ج٢ ص٢٣ .
ابن طولون : مفاكهة الخلان - ج٢ ص٤١ .
(٨٦٣) – النعيمي : المصدر السابق - ج٢ ص٢٣ / ابن طولون : المصدر السابق ج٢ ص٤١ .
(٨٦٤) – العلبي : خطط دمشق - ص٢٣٤ .
(٨٦٥) – سوفاجيه : دمشق - ص٣٩١ .
(٨٦٦) – العلبي : المرجع السابق - ص٢٣٤ .
(٨٦٧) – ابن بطوطة : الرحلة - ص٥٠٥ . حيث أورد اسمها " النجمية " ولم تذكر المصادر أي مدرسة بهذا الاسم ، فلعله تصحيف من المحقق ، أو ربما خطأ من ابن بطوطة .

٢- المدرسة الصدرية الحنبلية :

واقفها : صدر الدين أسعد بن عثمان بن وجيه بن المنجا ، من ذوي المروءات والأموال والصدقات ، المتوفى سنة (١٢٥٩/٦٥٧م) [٨٦٨] وقد عدّ العلبي هذا العام عاماً لبناء المدرسة . [٨٦٩]

موقعها : تقع المدرسة مقابل المدرسة القليجية الحنفية تماماً ، يفصل بينهما الطريق ، عند دار الفلوس ودار الذهب[٨٧٠] ، في الزقاق المسمى اليوم بزقاق معاوية ، شرقي حمام نور الدين ، ودار القرآن والحديث التنكزية.[٨٧١]

ولكن هذه المدرسة تلاشت اليوم تماماً ، وأقيم مكانها طاحون ومعمل للسكاكر . [٨٧٢]

ولم تعرف نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول سوى مدرستين للفقه الحنبلي ووجد فيها في العصر المملوكي الثاني – مدرسة واحدة فقط . بينما نلاحظ أنه خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي عَرفت نيابة دمشق أربع مدارس للفقه الحنبلي .

ونستنتج من هذه الإحصائية تناقص أعداد الناس الذين كانوا يتبعون الفقه الحنبلي ، وربما تحولوا عنه إلى المذهبين الشافعي والحنفي .

سادساً – المدارس الصوفية :

هذه المدارس على ثلاثة أنواع (الخوانق والرُّبط والزّوايا) ولكن يصعب تحديد الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة ، ففي بعض الأحيان نجد بعض المؤرخين يذكرونها مترادفة ، وفي أحيان أخرى ترد بشكل مختلف ولكل منها معنى ، وبعض المؤرخين أطلق على البناء أكثر من اسم ، كما فعل النعيمي عند حديثه عن الخانقاه السمسياطية يذكرها باسم رباط . [٨٧٣]

فعلى هذا نجد ثمة تقارباً في المعنى والوظيفة بين الخوانق والزوايا .

فالخوانق : ومفردها خانقاه أو خانكاه ، كلمة فارسية ، تعني دار تعبد وكانت مخصصة لإيواء الصوفية والمنقطعين للدراسة وخاصة الدينية منها ، حتى لا ينحرف نزلاؤها عن جادة الشرع [٨٧٤] . وكانت الخوانق في مدينة دمشق ، ترتبط بسلطة شيخ شيوخ العارفين ، الذي كان يتخذ من الخانقاه السمسياطية مقرَّاً له ، وذكر ابن طولون أنه : " كان من هؤلاء الشيوخ من يأكل الحشيش ، ومنهم من يخاف الله " [٨٧٥]

---

(٨٦٨) – الذهبي : المصدر السابق ج٣ ص٢٨٦ / أبو شامة : ذيل الروضتين ص٣١٠ / ابن كثير : المصدر السابق ج١٣ ص١٨٠ – ١٨١ / النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص٦٧ / ابن العماد : الشذرات - ج٧ ص٢٨٨ .

(٨٦٩) – العلبي : المرجع السابق ص٢٣٧ .

(٨٧٠) - النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص٦٨ / بدران : منادمة الأطلال - ص١٩٥ / وايتسنجر : الآثار الإسلامية - ص١٤٤ .

(٨٧١) – العلبي : المرجع السابق - ص٢٣٧ .

(٨٧٢) – العلبي : خطط دمشق - ص٢٣٧ .

(٨٧٣) – النعيمي : الدارس - ج٢ ص١١٨ .

(٨٧٤) – (فرغلي) : محمد (الدليل الموجز لأهم الآثار الإسلامية والقبطية في القاهرة) الدار المصرية اللبنانية - ط١ – القاهرة – ١٩٩١ ص٣٨ .

(٨٧٥) – (ابن طولون) : شمس الدين محمد (رسائل ابن طولون) مخطوط مصور في مكتبة الأسد الوطنية – الورقة ٤٨ .

أما **الرُّبط** : فمفردها كلمة رباط : وذكر ابن منظور أنها تعني : " المواظبة على الأمر ، والإقامة على جهاد العدو بالحرب ، أي ملازمة ثغر العدو " . [٨٧٦] وقد انتشرت الربط في العالم الإسلامي ، وتعددت وظائف الربط، وأصبح الرباط بيت الصوفية ومنزلهم . [٨٧٧]

وعدّ د . دهمان أنه في مصطلح أهل دمشق الرباط كالخانقاه ، دار لنزول الصوفية يقيمون فيه عاكفين على العبادة [٨٧٨] ، ويجوز للفقهاء الإقامة في الربط وتناول معلومها ، ولا يجوز للمتصوف القعود في المدارس وأخذ جرايتها . [٨٧٩]

وعلى ذلك يمكن أن نستنتج أن الرباط إذا وجد في مناطق الثغور فهو للجهاد والعبادة ، وإن وجد في العواصم، فهو للعبادة والعزلة ، وهو بذلك لا يختلف عن الخانقاه إلا بالاسم .

والرباط للرجال والنساء ، حيث عرفت دمشق في عصر المماليك (ثلاثة عشر) رباطاً تقريباً.[٨٨٠]

أما مصطلح الزاويا ففيه اختلاف وبحاجة إلى توضيح . فقد أوضح كل من المقريزي والسيوطي أن الزاوية كلمة تطلق على كل مسجد صغير فيه أحد الرجال المشهورين بالتقوى والصلاح والعبادة ، يقوم بوظيفة الوعظ والإرشاد لمن يتردد عليه ، ولا يوجد فيه منبر أو مئذنة ، وقد يوجد فيه محراب . [٨٨١]

بينما ذكر المستشرق بروفنسال : " إن كلمة زاوية ، كانت تطلق على صومعة الراهب المسيحي ، ثم أطلقت على المسجد الصغير أو المصلّى ، حيث يتحلق المريدون حول شيخهم إن كان حياً ، أو حول قبره إن كان ميتاً " بينما شبه المستشرق دوماس الزاوية بالدير في العصور الوسطى ، وأنها مدرسة دينية ودار للضيافة المجانية . [٨٨٢]

وكما هو الحال قائماً في شيوخ الخوانق والربط ، فإن شيوخ الزوايا منهم من يعبد الله ويقيم شعائر الإسلام كاملة ، ويلزم أتباعه بذلك ، ويزهد عن الدنيا ومغرياتها ، ومنهم من كان يخالف الشرع ويزعم أن الناس لا يدركون مغزى أعماله ، وقد يسقط التكاليف عن نفسه ، ويختلي بالمردان والنسوة ويترك النظافة والاغتسال وحلق الشعر . [٨٨٣]

وانتقد أحد الفقهاء وهو إبراهيم بن نصر الشافعي ، شيخ إحدى الزوايا ومريديه ، بعد إقامة حلقة ذكر وسماع لهم ، قائلاً :

متى سمع الناس في دينهم بأن الغُنا سُنَّةٌ تُتَّبَعْ
وأن يأكل المرء أكل البعير ويرقص في الجمع حتى يقعْ

---

(٨٧٦) – ابن منظور : لسان العرب ج٧ ص٢١٣ .
(٨٧٧) – (المقريزي) : أحمد بن علي (الخطط المقريزية) تح : محمد زينهم ، مديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي – ط١ – ١٩٩٧ ج٣ ص٣١٢ .
(٨٧٨) – دهمان : معجم الألفاظ - ص٨١ .
(٨٧٩) – (سبط ابن العجمي) : أحمد بن إبراهيم (كنوز الذهب في تاريخ حلب) – تح : شوقي شعث ، فالح بكور – دار القلم العربي – ط١ – حلب – ١٩٩٦ ج١ ص٣٨٤ .
(٨٨٠) – العلبي : خطط دمشق ص٣٩٠ .
(٨٨١) – المقريزي : الخطط - ج٣ ص٣١٢ / (السيوطي) : جلال الدين عبد الرحمن (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة) تح: محمد أبو الفضل : إبراهيم – المكتبة العصرية – ط١ – صيدا – ٢٠٠٤ – ج٢ ص ١٩٨ / (ابن أبي حجلة) : أحمد (سكردان السلطان) تح: علي عمر – مكتبة الخانجي – ط١ – القاهرة – ٢٠٠١ ص٥٨ .
(٨٨٢) – (الموسوعة الإسلامية) : مؤسسة أعمال الموسوعة – الرياض – ط١ – مادة زاوية – ص٢١٨ .
(٨٨٣) – العلبي : المرجع السابق ص٣٩١ .

وقالوا : سكرنا بحبّ الإله وما أسكرَ القومَ إلاّ القِصع
كذاك الحمير إذا أخصبت يهيجها ريّها والشَّبع [٨٨٤]

ونأسف في عصرنا الحالي من أقوال بعض الكتّاب الذي شبهوا الربط بالمستعمرات الصهيونية في فلسطين [٨٨٥]. ولعب الرباط دوراً مهماً في التاريخ الإسلامي في المغرب العربي وليبيا خاصة . [٨٨٦] ونود الإشارة هنا أنه لم يرد أي ذكر للزوايا في مدينة دمشق ، قبل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي ، وقد بلغ عدد الزوايا في عصر المماليك قرابة عشرين زاوية.
وسنقدم عرضاً للخوانق والربط والزوايا التي كانت قائمة في نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول .

آ- الخوانق :

١- الخانقاه الإسكافية :

منشئها : شرف الدين محمد بن الإسكاف .

موقعها : على نهر يزيد بسفح قاسيون[٨٨٧] . ولا أثر لها اليوم . [٨٨٨]

٢- الخانقاه الشنباشية :

منشئها : أبو عبد الله الشنباشي .

موقعها : بحارة البلاطة [٨٨٩] ، وهذه الحارة عند المدرسة الجوهرية ، في زقاق المحكمة . [٨٩٠]
وذكر العلبي : أن الخانقاه اليوم منزل للسكن فيه آثار واضحة تدل على أنه مغصوب ، وبجانبه من القبلة تقوم المدرسة الطقطائية المعروفة باسم جامع الطفطافية . [٨٩١]

٣- الخانقاه المجاهدية :

منشئها : مجاهد الدين إبراهيم ، أمير جاندار [٨٩٢] الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل [٨٩٣] . وذكر ابن قاضي شهبة في تاريخه أن المجاهد إبراهيم فتح المكان الذي جدّده بالشرف القبلي وجعله خانقاهاً للصوفية. [٨٩٤]
وسنة بنائها هي (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) ، وجعل فيها عشرين صوفياً ، ودفن الواقف في هذه الخانقاه . [٨٩٥]

---

(٨٨٤) – ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٣٨ .
(٨٨٥) – جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص٦٤ .
(٨٨٦) – لمزيد من المعلومات حول الرباط في التاريخ الإسلامي راجع : (أحمد) : علي (أعمال الرباط والمثاغرة في التاريخ العربي الإسلامي) مجلة دراسات تاريخية – العددان / ٧٢ – ٧٣ / آذار – حزيران – ٢٠٠١ ص١١٣ وما بعد .
(٨٨٧) – النعيمي : الدارس - ج٢ ص١١٠ .
(٨٨٨) – العلبي : خطط دمشق - ص٣٩٤ .
(٨٨٩) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٢٨ .
(٨٩٠) – العلبي : المرجع السابق – ص٤٠١ .
(٨٩١) – العلبي : المرجع نفسه - ص٤٠١ .
(٨٩٢) – ذكر النعيمي في الدارس ج٢ ص١٣٢ : : أن وظيفته : " أمير خاندار " ، وليس ثمة وظيفة بهذا الاسم . وإنما هنالك وظيفة أمير جاندار ، وهو المختص بإدخال الأمراء على السلطان ويحيط له في أثناء المواكب . القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٠ ويبدو أن هذا التصحيف من المحقق أو خطأ من الناسخ .
(٨٩٣) – ابن العماد : الشذرات - ج٧ ص٢٦٤ .
(٨٩٤) – العلبي : المرجع السابق – ص٤٠٥ .

موقعها : في الشرف القبلي [٨٩٦] ، مكان مشافي الجامعة اليوم . [٨٩٧]

وقد أخطأ د . جيدة عندما ذكر هذه المدرسة فذكر قولاً نقله عن النعيمي مفاده : " لم أعلم محلها ، وقد اندرست بيقين " . وهذا وهم وخطأ من الباحث جيدة . لأن النعيمي حدد مكان موقعها [٨٩٨] . ولا أثر في يومنا لهذه الخانقاه . [٨٩٩]

٤- الخانقاه الشريفية :

منشئها : الشريف شهاب الدين أحمد بن السيد شمس الدين محمد المعروف بابن الفقاعي ، كان يتردد إليه الفقراء .

موقعها : تجاه الهروية ، شرقي باب قلعة دمشق ، وغربي العادلية الصغرى [٩٠٠] .

وذكر النعيمي : " لم أرَ لها كتاب وقف ، ولا متى بنيت ، ولها دار قرآن وزاوية " .

وأوقف لها عدة حوانيت بمدينة حمص ، ومزرعة بحوران ، وأوقف عليها أحد أولاده ثلث مزرعة في قرية عربيل . [٩٠١]

وحدد العلبي سنة بنائها (٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م) معتمداً على ابن شداد الذي ذكر أول من درّس بها وهو رشيد الدين الفارقي الذي استمر حتى سنة (٦٧٤ هـ /١٢٧٥ م) .

ولا أثر للخانقاه اليوم ، حيث حلَّت محلها أسواق تجارية . [٩٠٢]

٥- الخانقاه الشهابية :

منشئها : الأمير أيدكين بن عبد الله الشهابي ، من خيار أمراء دمشق كان نائب حلب للملك بيبرس ، وكان متصدّقاً على الفقراء ، توفى سنة (٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م) ودفن بقاسيون . [٩٠٣]

موقعها : غربي العادلية الكبرى ، وشمالي المعينية . [٩٠٤]

وقال العلموي : (إن هذه الخانقاه خربت أيام تيمورلنك ، وجعلت بيتاً لآل العدوي) .

ولا أثر لها اليوم . [٩٠٥]

٦- الخانقاه النجيبية :

منشئها : الأمير جمال الدين آقوش النجيبي الصّالحي ، صاحب المدرسة النجيبية . المتوفى سنة (٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) .

موقعها : جانب المدرسة النورية الكبرى [٩٠٦] ، ويقال لها خانقاه القصر لكونها مطلّة على القصر الأبلق ، وكذلك فهي مطلّة على ميدان المرج الأخضر . [٩٠٧]

---

(٨٩٥) – النعيمي : المصدر السابق - ج٢ ص١٣٢ .
(٨٩٦) – النعيمي : المصدر نفسه - ج٢ ص١٣٢ .
(٨٩٧) – العلبي : المرجع السابق ص٤٠٥ .
(٨٩٨) – جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص ١٢٥ .
(٨٩٩) - العلبي : خطط دمشق - ص ٤٠٦ .
(٩٠٠) – النعيمي : الدارس - ج٢ ص١٢٨ / بدران : منادمة الأطلال - ص٢٨١ .
(٩٠١) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٢٨ .
(٩٠٢) – العلبي : المرجع السابق ص٤٠٠ .
(٩٠٣) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٢٦٠ .
(٩٠٤) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٢٦ .
(٩٠٥) – العلموي : مختصر تنبيه الطالب - ص١٢١ .

وذكر ابن كثير أن أوقافها كانت تحت " الحوطة " . [٩٠٨] ولكن هذه الخانقاه لا أثر لها اليوم .

٧- الخانقاه العزية :

منشئها : الأمير عز الدين أيدمر الظاهري ، نائب السلطنة بالشام ، وهو من مماليك الظاهر بيبرس الكبار . وأصبح في آخر عمره دون عمل بسبب اعتقاله من قبل السلطان قلاوون ، ولكن أفرج عنه الأشرف خليل ، وتوفى سنة (٧٠٠ هـ /١٣٠٠ م) . [٩٠٩]

وقد رآه الذهبي في الجامع الأموي وهو يرتدي قباء أبيض وتخفيفة وهي لائقة به ، ويمتاز بالسكون والوقار . فأعجب الذهبي بشكله . [٩١٠]

وذكر الحصني أنها سميت بالعزية نسبة إلى العز بن عبد السلام المدفون فيها ، وهذا كلام غير صحيح لأن العز بن عبد السلام مات في القاهرة ودفن فيها سنة (٦٦٠ هـ/١٢٦١م). [٩١١]

موقعها : جنوب الخانقاه الباسطية [٩١٢] ، في الجسر الأبيض بالقرب من جامع الروضة اليوم . وكانت تضم رباطاً وتربة . [٩١٣]

وقد هدّمت الخانقاه في القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي ، وبقيت التربة التي تحولت مدفناً لآل العمري ، وعرف مسجدها بمسجد العمري . ولكن لا أثر اليوم للخانقاه وكذلك للتربة التي تحولت إلى أبنية حديثة بعد هدم المنطقة كلها . [٩١٤]

٨- الخانقاه الكججانية :

منشئها : هناك " خانقاوان " أولهما من بناء إبراهيم بن صدر الدين الكججي الأب في منطقة الخلخال (الحلبوني) سنة (٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م) والثانية بناها الخواجا محمد بن إبراهيم في منطقة الشرف الأعلى سنة (٧٦١ هـ /١٣٥٩ م) . والاثنتان حملتا اسم (الكججانية) ونقل النعيمي عن ابن شهبة أنه الخانقاه الأولى بنيت سنة (٧٦١ هـ / ١٣٥٩ م) ثم قال بنيت سنة (٧٤٤ هـ /١٣٤٣ م) [٩١٥] ، دون أن يزيل التناقض وذكر ابن قاضي شهبة أن الخواجا محمد الكججي قدم دمشق وبنى بها الخانقاه بالشرف الأعلى ثم قال: " وبالخلخال خانقاه ، منسوبة إلى أبيه إبراهيم " [٩١٦] . ولكن لا أثر لهما اليوم . [٩١٧]

---

(٩٠٦) – ابن آيبك : أمراء دمشق ص٣١ / ابن كثير : المصدر السابق ج١٣ ص٢٦٠ / دهمان : ولاة دمشق ص٦١ .
(٩٠٧) – النعيمي : المصدر السابق ج ص١٣٤ .
(٩٠٨) – العلبي : خطط دمشق - ص٤٠٦ .
(٩٠٩) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٢٢٩ .
(٩١٠) – ابن آيبك : أمراء دمشق - ص٣٤ / ابن كثير : المصدر السابق ج١٤ ص١٧ .
ابن العماد : الشذرات - ج٧ ص٤٥٦ / دهمان : معجم الألفاظ - ص٦٤ .
(٩١١) – الذهبي : العبر ج٣ ص٤٠٧ .
(٩١٢) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٣١ / بدران : منادمة الأطلال - ص٢٨٣ .
(٩١٣) - العلبي : المرجع السابق ص٤٠٢ .
(٩١٤) – العلبي : المرجع نفسه ص٤٠٣ .
(٩١٥) – الذهبي : العبر ج٤ ص١٨٨ / النعيمي : المصدر السابق – ج٢ – ص١٣١ .
(٩١٦) – ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٣ ص٤٩١ .
(٩١٧) – بدران : المرجع السابق ص٢٨٥ .

وبعد هذا العرض للخوانق في نيابة دمشق نستطيع القول إنه بلغ عددها في دمشق خلال العصر المملوكي الأول (ثماني) خوانق والموجود منها حالياً ولكن ليس بصورة خانقاه وإنما جرى عليها تعديل – واحدة – فقط ألا وهي (الشنباشية) .

في حين عرفت نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الثاني (ثلاث) خوانق فقط ، وعلى هذا يكون عددها خلال العصر الأول أكثر من عددها خلال العصر الثاني .

ب– الربط :

١– الرباط التكريتي :

منشئه : وجيه الدين محمد بن علي التكريتي ، تاجر كبير ، صاحب أموال طائلة ، وكان الجميع يعظمونه ، توفي سنة (٦٧٠ هـ /١٢٧١ م) ودفن في تربته في الرباط المذكور[٩١٨]، وقد قبلت مكاتباته عند جميع الملوك ، حتى ملوك الفرنج في السواحل ، وفي أيام التتار وهولاكو .

موقعه : بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون . [٩١٩]

ويجب أن نميّز بين هذا الرباط و (التربة التكريتية) الواقعة أيضاً بسفح قاسيون . [٩٢٠]

ونقل العلبي عن الحسيني الذي عقّب على " الدارس " أنّ هذا الرباط داخل دار الحديث الناصرية ، وهو استنتاج خاطئ ، لأن الرباط الناصري هو الذي في دار الحديث المذكورة ، وليس الرباط التكريتي الذي انعدمت آثاره اليوم . [٩٢١]

٢– رباط زهرة :

منشئته : لم تذكر المصادر من هي ، ولم ندرِ من هي على وجه التحديد ، لكن نعتقد أنها كانت عصمة الدين زهرة بنت الملك العادل الأيوبي ، صاحبة العادلية الصغرى [٩٢٢] . وإذا صح افتراضنا هذا فيكون عام (٦٥٠هـ / ١٢٥٢ م) هو عام الوقف .

موقعه : قرب حمام جاروخ ، جوار دار الأمير مسعود بن الست عذراء صاحبة المدرسة العذراوية [٩٢٣] . ولا نعلم عنه شيئاً اليوم . [٩٢٤]

٣– رباط ستيتة :

منشئته : الخاتون ستيتة بنت الأمير سيف الدين كوكباي المنصوري ، زوجة تنكز نائب الشام، وقد أمرت ببنائه سنة (٧٢٩ هـ /١٣٢٨ م) ، وحجت في نفس العام ، ولكن وافتها المنية سنة (٧٣٠ هـ /١٣٢٨ م) ودفنت في هذا الرباط .

موقعه : قبلي المدرسة النورية . وكان يضم تربة ، ومسجداً ، ومكتباً للأيتام . [٩٢٥]

---

(٩١٨) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٢٤٣ / النعيمي : الدارس - ج٢ ص١٥٠-١٥١ .
(٩١٩) – النعيمي : المصدر نفسه ج٢ ص١٥١ .
(٩٢٠) – انظر النعيمي : المصدر نفسه ج ص١٨٥ .
(٩٢١) – العلبي : خطط دمشق - ص٤١٠ .
(٩٢٢) – انظر ترجمتها عند : النعيمي : المصدر السابق ج١ ص٢٧٨ .
(٩٢٣) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٥١ .
(٩٢٤) – بدران : منادمة الأطلال - ص٢٩٦ .
(٩٢٥) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص١٤٣ .

وقد أغفل النعيمي ذكره ضمن الربط ، وكذلك فعل العلموي ، وبدران وكرد علي ، واستطعنا استخراجه من ابن كثير ، فتفردنا بذلك . ولا يزال هذا الرباط قائماً ، ومعه التربة حتى وقتنا الحالي ، في زقاق المحكمة ، وعُمِلَ في قسمه الغربي محل تجاري .

٤- رباط صفية :

منشئته : الشيخة صفية القلعيَّة بنت قاضي القضاة عبد الله بن عطاء الحنفي المتوفاة سنة (٧٣٣ هـ /١٣٣٢ م) .

موقعه : جوار المدرسة الظاهرية . (٩٢٦)

وقد وقع محقق الأعلاق في خطأ عندما ذكر أن هذا الرباط غير مذكور في الدارس ومختصره ، وهذا ليس صحيحاً فهو مذكور عند النعيمي (٩٢٧) . ولا أثر لهذا الرباط اليوم .

٥- الرباط الناصري :

منشئه : الملك الناصر الأيوبي ، آخر سلاطين الأيوبيين في دمشق .

موقعه : في سفح قاسيون ، شرقي تربة الملك العادل " كتبغا " وغربي جامع الأفرم ، وكان يقع ضمن دار الحديث الناصرية . وسنة بنائه هي (٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) .

ونقل العلبي عن الشيخ دهمان قوله : " إن البستان الذي كان فيه الرباط يدعى (بستان الناصري) وقد هدم الرباط ودار الحديث والجامع الأفرم، واستعملت الحجارة في تشييد أبنية المهاجرين، وتبليط الطرقات".(٩٢٨)

ولم يذكره النعيمي ، ولا العلموي ، ولا كرد علي . وعلى ما يبدو أن كلاً من دهمان والعلبي قد تفردا بذكره .

وهكذا وجد في دمشق خلال العصر المملوكي الأول (خمسة) ربط ما زال اثنان منها (التكريتي وستيتة) بينما فقدت الثلاثة الأخرى .

ومما لفت انتباهنا في الربط أن ثلاثة من خمسة من هذه الربط وهي النسبة الأكبر ، قامت نساء بإنشائها مما يدل على الدور الاجتماعي والحرية التي تمتعت بها النساء خلال العصر المملوكي . وهؤلاء النسوة كنَّ إما من بنات القضاة ، أو زوجات نوّاب ، أو بنات ملوك . يعني من فئة أصحاب الجاه والثروة .

ج – الزوايا :

أما الزوايا التي وجدت في دمشق خلال العصر المملوكي الأول فهي :

١- الزاوية الحريرية الأعقفية :

منشئها : الشيخ أحمد الأعقفِ الحريري ، شهاب الدين بن حامد بن سعيد التنوخي ، ولزم الشيخ نجم الدين بن إسرائيل . وقد " أثنى عليه الجميع " على حد قول ابن كثير ، وتوفي سنة (٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م) بزاويته ، ودفن بمقبرة المزة . (٩٢٩)

موقعها : في المزة ، غربي دمشق . (٩٣٠)

---

(٩٢٦) – النعيمي : الدارس - ج٢ ص١٥١ .
(٩٢٧) – ابن شداد : الأعلاق – قسم دمشق – مقدمة المحقق .
(٩٢٨) – العلبي : خطط دمشق - ص٤١٢ .
(٩٢٩) – ابن كثير : المصدر السابق - ج١٤ ص١٠٣ / النعيمي : المصدر السابق - ج٢ ص١٥٥ .

٢- الزاوية الدهستانية :

منشئها : تنسب للشيخ إبراهيم الدهستاني ، المتوفى سنة (٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م) ودفن بزاويته هذه ، وقد تضاءل شأنها بعد وفاته . [٩٣١]

موقعها : عند سوق الخيل بدمشق ، قرب حمام الناصري . [٩٣٢]

ولكن هذه الزاوية هدّمت سنة (١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م) . [٩٣٣]

٣- الزاوية الرشيدية :

منشئها : اختلف في اسم واقفها ، فنسبها بعضهم إلى الأمير " منكلي بغا " نائب دمشق ، ونسبها البعض الآخر إلى الأمير آقتمر نائب دمشق .

موقعها : في الميدان الفوقاني ، غربي الشارع العام ، مقابل جامع الدقاق .

وهي ما تزال موجودة حتى اليوم ، وقد تفرّد العلبي بذكرها .

وافترض العلبي أنها من بناء الأمير تنكز الناصري ، مؤيداً صدق فرضيته من الكأس المنقوشة على حائط الزاوية والكأس من رمز الأمير تنكز . [٩٣٤]

٤- الزاوية السيوفية :

منشئها : الشيخ نجم الدين عيسى بن شاه أرمن الرومي السيوفي وقد بنى له ولجماعته بيوتاً حولها ، وتوفي سنة (٧١٠ هـ /١٣١٠ م) . [٩٣٥]

موقعها : بسفح قاسيون على نهر يزيد[٩٣٦] ، غربي تربة العادل كتبغا ، قرب ميدان المالكي اليوم.[٩٣٧]

وأوقف عليها واقفها وعلى ذريته قريتي عين الفيجة وير مقرن بحيث يكون الثلثان للذرية ، والثلث للزاوية.[٩٣٨]

وذكر ابن طولون بعد وصفه للزاوية والبيوت التي بناها الواقف بأن نائب الشام (سيباي) خلع كثيراً من حجارتها ونوافذها ونقلها إلى مدرسته . [٩٣٩] ولا أثر لهذه الزاوية اليوم .

٥- زاوية عين الملك :

منشئها : الشيخ الزاهد تقي الدين أبو محمد عين الملك عند قدومه إلى دمشق وذلك سنة (٧١١ هـ /١٣١١م). وأكد العلبي هذا التاريخ ، وأشار إلى أن ابن طولون أخطأ عندما ذكر أن بناءها سنة (٦١١ هـ /١٢١٤ م).

موقعها : بسفح قاسيون[٩٤٠] ، وتسمى الملكية أيضاً .

---

(٩٣٠) - النعيمي : الدارس - ج٢ ص١٥٥ / كرد علي : خطط دمشق - ج٦ ص١٣٦ .
(٩٣١) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص٩٢-٩٣ / النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٥٦ .
(٩٣٢) – النعيمي : المصدر نفسه - ج٢ ص١٥٦ .
(٩٣٣) – العلبي : خطط دمشق - ص٤١٧ .
(٩٣٤) – العلبي : المرجع نفسه - ص٤١٨ .
(٩٣٥) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٥٧ – ١٥٨ / بدران : منادمة الأطلال - ص٣٠٦ / كرد علي : المرجع السابق ج٦ ص١٣٧.
(٩٣٦) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٥٧ .
(٩٣٧) – العلبي : المرجع السابق ص٤٢٠ .
(٩٣٨) – النعيمي : المصدر السابق ج٢ ص١٥٨ .
(٩٣٩) – ابن طولون : القلائد الجوهرية ص٢٨٨ .
(٩٤٠) – العلبي : خطط دمشق - ص٤٢٤ .

وقال عنها ابن طولون : " وهذه الزاوية من محالّ الخير بالصالحية ، يُقرأ فيها البخاري، وتطبخ لها (الهريسة) في العيدين ، ويجتمع فيها الفقراء ، وفي رمضان يزدحم الخلق فيها في صلاة التراويح ، وتشمل على محل للذكر ، ولها مناظر حافلة على دمشق ، وفي شرقيها بيت شيخها " [٩٤١] .

وذكر الشيخ دهمان ضمن مخطط الصالحية " أن هذه المدرسة أصبحت داراً يسكنها أحد الفقراء ويدّعي أنه من ذرية الواقف ، وهي اليوم أكواخ حقيرة لها ساحة كبيرة فيها بضعة قبور منها قبر الواقف وابنه ، وتقع على يسار المتوجه من الجامع الجديد إلى الجبل ، صعوداً، جنوب مسجد " طوطة " تماماً . [٩٤٢]

٦- الزاوية القوامية البالسية :

منشئها : الشيخ الزاهد أبو بكر بن قوام بن علي البالسي ، العابد القدوة ، صاحب الكرامات ، توفي سنة (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م) وتم نقله إلى زاويته التي أنشأها بدمشق في المحرم من سنة (٦٧٠ هـ /١٢٧١ م) ولده الشيخ عمر ، كما هو مدون على الزاوية .

موقعها : غربي تربة الملك العادل كتبغا المتوفى سنة (٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م)[٩٤٣] في ميدان المالكي اليوم ، وكانت الزاوية آيلة للضياع ، فجددها بعض الصالحين وبنى فيها إيواناً وشبّاكاً. وبقى منها اليوم القبور والقبة . [٩٤٤]

إذاً وجد في نيابة دمشق خلال هذا العصر (ست) زوايا ، وبقي حتى يومنا (أربع) زوايا ، في حين وجد خلال العصر المملوكي الثاني (خمس) زوايا .

وكان السبب في كثرة الزوايا والربط والخوانق هو كثرة الشيوخ والمعتقدين ، وكثرة الطرق الصوفية في ذلك العصر ، لأن التصوف كان على أشده ، ويمكن أن نطلق على العصر المملوكي (العصر الذهبي للتصوف) . وسنفرد بحثاً خاصاً عن التصوف لاحقاً في هذه الرسالة .

وقد أسهمت هذه المؤسسات الصوفية بدور تربوي وروحي هامين بجانب المؤسسات التربوية السابقة . على الرغم من اختلاف أساليب هذه المؤسسات إلاّ أنها كانت تصب في معين واحد .

سابعاً – المدارس الطبية :

شهدت دمشق خلال العصر المملوكي تقدّماً واضحاً وكبيراً في مجال الطب ، ودليلنا على ذلك كثرة الأطباء الذين قدّموا أبحاثاً أحدثت ثورة في العلوم الطبية ، الأمر الذي دفع الطبيب الدكتور ألبير زكي اسكندر ليقول : " إذا كان مؤرخو الطب قد أطلقوا اسم (العصر الذهبي) على زمان أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، حق لنا بكل فخر واعتزاز أن نطلق على زمان ابن النفيس (العصر الماسي) للطب العربي " . [٩٤٥]

---

(٩٤١) – ابن طولون : القلائد الجوهرية - ص٢٠٣ .
(٩٤٢) – دهمان : مخطط الصالحية - ص٦٦ .
(٩٤٣) – النعيمي : الدارس - ج٢ ص١٦٢ .
(٩٤٤) – العلبي : خطط دمشق - ص٤٢٨ .
(٩٤٥) – النهار : قراءة في إنجازات عصر المماليك - ص٣٦١ .

وإذا كانت المشافي في عصرنا الحالي هي المكان الطبيعي للتداوي من المرض ، وإجراء العمليات الجراحية ، فإن البيمارستان كان هو المماثل للمشافي خلال العصر المملوكي .

ويعد البيمارستان أيضاً بمثابة الكليات العلمية الطبية الحديثة . فقد " عرف المسلمون ما تمتاز به المستشفيات من صلاحية لتعليم الطب ، حيث الحالات ماثلة أمام أعين المتعلمين ، والأدوية والعلاجات قريبة ، فاتخذوا منها إلى جانب قيامها بمعالجة المرضى ، كليات الطب " . (٩٤٦)

أما معنى كلمة بيمارستان ، وما هو أول بيمارستان بني في دمشق ؟ فالبيمارستان : كلمة فارسية ، وذلك أن البيمار بالفارسية هو المرضى ، وستان هو الموضع ، أي موضع المرضى. (٩٤٧)

وأول السَّباقين في الإسلام لبناء البيمارستان من أجل المرضى كان الوليد بن عبد الملك ، عندما بناه في دمشق(٩٤٨)، أما في مصر فكان البيمارستان الذي بناه أحمد بن طولون بالفسطاط. (٩٤٩)

ووجد في دمشق خلال العصر المملوكي عدد من المدارس الطبية وعلى حد قول أحد المؤرخين : " كما كان يدرس منهج الطب إلى جانب المواد الأخرى في بعض المدارس " (٩٥٠). لكننا لم نعثر على أي مدرسة في دمشق قامت بهذا الأمر .

ونشير هنا إلى أن خدمات البيمارستان لم تقتصر على معالجة المرضى ، بل تعدى الأمر إلى تدريس الطب ، والاهتمام به . ويشبه إلى حد كبير ما يتم في كبرى المشافي في العصر الحديث من إلحاق كليات الطب بالمشافي حيث تتوفر الدراسة العملية ، وممارسة الطب تحت أيدي الأساتذة . (٩٥١)

فقد نصت وثيقة الواقف على مصالح البيمارستان المنصوري في القاهرة على :

" تعيين شيخ للاشتغال بالطب ، يكون من بين أطباء البيمارستان ، وخصّص له الواقف مكاناً محدداً لإلقاء دروس الطب على طلبته " . (٩٥٢)

وقد عرفت دمشق بالإضافة إلى المدارس والبيمارستانات ، مجالس طبية . وهكذا تتسع الحركة التعلمية في عصر دولة المماليك لتضم في صفوفها مجال الدراسات الطبية المتخصصة ، وذلك أمر جيد ، من رجال العصر المملوكي ، لإدراك متطلبات الحياة .

وفيما يأتي البيمارستانات والمدارس الطبية التي وجدت في دمشق خلال العصر– المملوكي الأول – وسنبدأ بالبيمارستانات .

١– البيمارستان القيمري :

---

(٩٤٦) – (غنيمة) : محمد عبد الرحيم (مقدمة لتاريخ التعليم الجامعي في الإسلام) رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب – جامعة القاهرة – ١٩٥٣ ص٦٥ .

(٩٤٧) – (ابن أبي أصيبعة) : أحمد بن القاسم (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) تح : نزار رضا – دار مكتبة الحياة – بيروت – ص٤٧ .

(٩٤٨) – (اليعقوبي) : أحمد بن أبي يعقوب (تاريخ اليعقوبي) دار صادر – بيروت – ج٢ ص٢٩٠ .

(٩٤٩) – القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة - ج٣ ص٣٤٦ .

(٩٥٠) – (البدوي) : أحمد (الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام) دار نهضة مصر – القاهرة – دون رقم وتاريخ الطبع–ص٤١ .

(٩٥١) – النباهين : نظام التربية الإسلامية ص٢٧٤ .

(٩٥٢) – (أمين) : محمد محمد (وثيقة وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري) تحقيق ودراسة - القاهرة – ص٣٠٧ .

منشئه : هذا البيمارستان كان من بناء الأمير الكبير سيف الدين علي بن يوسف من أكابر الأكراد ، وأعظمهم مكانة ، وجميع أمراء الأكراد القيمرية وغيرهم كانوا يتأدبون ويقفون في خدمته إلى أن مات في شعبان سنة (٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م) . [٩٥٣]

موقعه : سفح قاسيون ، منطقة الصالحية [٩٥٤] . وذلك سنة (٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) كما يفهم من نقش وجد في البيمارستان . [٩٥٥]

وقصة بناء هذا البيمارستان طريفة ، ذكرها اليونيني ، وذلك عندما (تزوج الأمير سيف الدين ، كان قد قدم صداقاً كبيراً لزوجته بنت الأمير عز الدين ، تجاوز مائتي ألف درهم ، وحمولة عشرين بغلاً من المتاع الثمين . ولما توفيت ، حُمِلَ صداقها إلى أبيها ، فرفض أخذه وقال : " الأكراد ما جرت عادتهم أن يأخذوا صداقاً ولا ميراثاً " ، فقال سيف الدين : هذا شيء خرجت عنه وما يعود إلى ملكي ، فصرفه جميعه في بناء البيمارستان) . [٩٥٦]

وقد كان البيمارستان على شكل فائق الحسن ، به الأشجار المخضرَّة والمياه والمناظر ، وبه قاعتان ، لصيقهما حاصلان : الشرقي للشرابات والمعاجين والأكحال ، والغربي لتفرقة ذلك كل يوم اثنين وخميس ، وقال ابن طولون : " ولقد رأينا ذلك " . [٩٥٧]

وكان في شرقيه مطبخ للفراريج والمزوّرات (الطعام بدون دهن) وفي غربيه قاعة للمجانين. وفي وسطه بركة عظيمة من ناعورة على نهر يزيد ، وفيه خدام للرجال والنساء ، وكحَّال وطبيب وشرباتي .

أما في العصر العثماني فقد وصفه ابن طولون بقوله : " وفي زماننا صار لا يفرق – الدواء – إلاّ في الخميس " ، وهذا دليل على تراجع أحواله . [٩٥٨]

ولكن جاء عام (١٠١٠ هـ /١٦٠١ م) ليكون عام إعادة الحياة إلى هذا البيمارستان على يد (الكتخدا شوربزة حسن) – الذي أخذ موافقة من قاضي القضاة بدمشق بإعادة إعمار البيمارستان وإعادة وضعه كما كان ، فعمر وقفه وأعاد حاله كما كان . [٩٥٩]

ولكن كما يقال : " لا يفسد العطّار ما أفسده الدهر " فقد انتهى دور البيمارستان القيميري ، وأغلقت أبوابه ، التي ما زالت حتى وقتنا الحالي مغلقة .

ومن اللافت للنظر أن المصادر لم تذكر لنا من الأطباء الذين خدموا في هذا البيمارستان خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، على الرغم من مكانته وعظيم بنائه وأوقافه . لم تصرّح المصادر إلاّ عن طبيبين فقط ماتا في القرن الثامن هما :

الطبيب عثمان بن سيف بن المزين الملقب بالحيوان المتوفى (٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م) [٩٦٠] والطبيب إسماعيل بن القاسم بن هبة الله المقداد القيسي المتوفى (٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م [٩٦١]).

---

(٩٥٣) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص١٨١ / ابن تغري بردي : النجوم - ج٧ ص٣٥-٣٦ / ابن العماد : الشذرات - ج٧ ص٢١٣ . وقد وقع الذهبي في خطأ ، وذلك عندما جعل وفاته سنة (٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) / الذهبي : العبر - ج٣ ص٢٧٠ .

(٩٥٤)- ابن كثير : المصدر السابق - ج١٣ ص١٨١ / ابن تغري بردي : المصدر السابق - ج٧ ص٣٦ .

(٩٥٥) – دهمان : مجلة المجمع العلمي العدد ١٨ ص٦٨ .

(٩٥٦) – اليونيني : ذيل مرآة الزمان - ج١ ص٤٤ .

(٩٥٧) – ابن طولون : القلائد الجوهرية - ج١ ص٤٨ .

(٩٥٨) - ابن طولون : المصدر نفسه - ج١ ص٤٨ .

(٩٥٩) – (المحبي) : محمد (خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر) – القاهرة – ١٢٨٤ – ج٢ ص٢٥ .

٢- بيمارستان الرقة :

موقعه : في مدينة الرقة السورية .

ولم نعرف عن هذا البيمارستان شيئاً سوى ما نقله الدكتور أحمد عيسى عن ابن أبي أصيبعة من أن الحكيم بدر الدين بن قاضي بعلبك خدم بالرقة في البيمارستان الذي بها ، وصنف في خراج الرقة ، وما يغلب عليها وأقام بها سنين . [٩٦٢]

٣- بيمارستان غزة :

منشئه : الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد ، وذلك سنة (٦٥٣ هـ /١٢٥٥ م) .

موقعه : في مدينة غزة حيث بنى فيها قصراً وجامعاً وحماماً ومدرسة للشافعية ، وخان السبيل والبيمارستان والميدان . [٩٦٣]

وهكذا عرفت نيابة دمشق (ثلاثة) بيمارستانات . أما المدارس الطبية التي وجدت في نيابة دمشق فهي :

١- المدرسة اللبودية :

منشئها : الحكيم العالم يحيى بن محمد اللبودي ، كان مفرط الذكاء ، فصيح العبارة ، نادراً في العلوم الحكمية، ولد بحلب سنة (٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م) ، ودخل مع والده إلى دمشق ، وقرأ على المهذّب الدخوار ، واشتغل عليه بصناعة الطب ، وخدم الملك المجاهد الأيوبي بحمص ، وأصبح من المقربين إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ووضع مؤلفات في الطب منها " إيضاح الرأي السخيف من كلام الموفق عبد اللطيف " ، وقيل إنه ألَّفه وهو في الثالثة عشرة . وتوفي سنة (٦٧٠ هـ /١٢٧١ م) ، ودفن بتربته عند المدرسة اللبودية [٩٦٤] .

موقعها : خارج البلد ، وملاصقة لبستان الفلك ، قرب مستشفى المجتهد اليوم ، وكانت متهدمة منذ حوالي سنة (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) [٩٦٥] كما قال الصفدي .

وذكر النعيمي أن هذه المدرسة تحولت في سنة (٩٤٩ هـ / ١٥٤٢ م) إلى تل تراب ، ثم جعل محله مسجداً برسم تأديب الأطفال عل يد الشيخ محمد بك الرومي . [٩٦٦]

ومن أهم المدرسين (الأطباء) الذين تولوا التدريس فيها :

١- الشيخ موفق الدين أحمد بن القاسم الخزرجي ، الطبيب المعروف بابن أبي أصيبعة ، له تاريخ الأطباء في عشر مجلدات . [٩٦٧]

٢- الطبيب بهاء الدين القاسم بن محمود بن عساكر ، توفى سنة (٧٢٣ هـ /١٢٢٣ م) [٩٦٨].

---

(٩٦٠) – (الذهبي) : محمد بن أحمد (معجم الشيوخ) تح : محمد الحبيب الهيلة ، مكتبة الصديق – ط١ – القاهرة – ج٢ ص٤١٠.
(٩٦١) – ابن حجر : الدرر ج١ ص٨٢ .
(٩٦٢) – (عيسى) : أحمد (تاريخ البيمارستانات في الإسلام) دار الرائد العربي – بيروت – ١٩٨١ ص٢٠١-٢٠٢ .
(٩٦٣) – جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص٢٠٢ – ٢٠٣ .
(٩٦٤) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٢٤٣ / النعيمي : الدارس - ج٢ ض١٠٦ .
(٩٦٥) - كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص١٠١ ، وقد نقل كرد علي عن الصفدي .
(٩٦٦) – النعيمي : المصدر السابق - ج٢ ص١٠٧ .
(٩٦٧) – وقد صدر هذا الكتاب بتحقيق د . نزار رضا عن دار مكتبة الحياة في بيروت . وكذلك صدرت طبعة عن دار الثقافة في بيروت سنة ١٩٨١ .

٢- المدرسة الدنيسيرية :

منشئها : الطبيب الحاذق عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عباس الربعي ، ولد بدنيسر سنة (٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م) ، وبرع في الشعر علاوة على الطب ، ووصفه ابن أبي أصيبعة بأنه : " ذو أدب وفقه ، وهو كامل الأوصاف " [٩٦٩] ، وقد توفي سنة (٦٨٦ هـ /١٢٨٧م) ودفن بدمشق.

موقعها : غربي البيمارستان النوري إلى الجنوب . [٩٧٠]

وباعتبار أن ابن شداد لم يذكرها في أعلاقه ، ووفاة الواقف كانت سنة (٦٨٦ هـ/١٢٨٧م)، لذلك نرجح أن يكون بناؤها في هذه المدة أي بين عام (٦٨٠ – ٦٨٦ هـ/١٢٨١–١٢٨٧م)[٩٧١] وقد درست وضاعت معالمها[٩٧٢]. وعلى ما يبدو أن تسميتها بالدنيسرية جاء من اسم المدينة التي ولد بها الواقف دنيسر . [٩٧٣]

وهكذا عَرَفَتْ نيابة دمشق خلال العصر المملوكي الأول (ثلاثة) بيمارستانات ، و (مدرستين) للطب . وهو عدد قليل بالنسبة إلى باقي المدارس التي وجدت – الفقهية – ولم يبق من هذه الصروح الطبية سوى – البيمارستان القيمري – وهو في حالة يرثى لها ، وبحاجة لمن ينفض عنه غبار الزمن لإعادته إلى الحياة .

المجالس الطبية :

كانت المجالس العلمية المنتظمة التي يعقدها الأطباء لتعليم الطب ، ويرتادها الكثير من طلبة الطب من الوسائل المهمة في دمشق لتعليم الطب .

ومن خلال ما ذكرته المصادر عن هذه المجالس لم تحدد الأماكن التي كانت تعقد بها ، ولكنه من المرجح أنَّ أغلب تلك المجالس كانت تُعقد في منازل الأطباء إذ ليس هناك ما يشير من خلال تراجم الأطباء إلى أنها كانت تعقد في المساجد ، أو المدارس أو البيمارستانات . ودليلنا على ذلك أنه كانت بعض منازل العلماء بمثابة مدارس متخصصة لتدريس بعض العلوم التي لا يتيسر تدريسها في المدارس العامة . ومنها علم الطب الذي حظي باهتمام كبير من عدد من الأطباء الذين فتحوا منازلهم لاستقبال طلبتهم وتدريسهم فيها ، وقد عقدت في تلك المنازل الحلقات الطبية التي حرص على حضورها طلبة العلم الملازمون لأساتذتهم لتعلّم الطب.

وقد وصف لنا ابن أبي أصيبعة واحداً من هذه الدروس الطبية التي يعقدها الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي الدخوار المتوفى سنة (٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م) وكان أستاذاً له ، وقال : " وكان

---

(٩٦٨) – النعيمي : الدارس ج٢ ص١٠٧-١٠٨ .
(٩٦٩) – ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ص٧٦٠ .
(٩٧٠) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص٢٨٧ / النعيمي : المصدر السابق - ج٢ ص١٠٥ .
(٩٧١) – العلبي : خطط دمشق - ص٢٥٧ .
(٩٧٢) – جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص١٩٧ .
(٩٧٣) – دُنيسرُ : بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة ، قرب ماردين . ولها اسم آخر هو (قوج حصار) / الحموي : معجم البلدان - ج٢ ص٤٧٨ / (ابن قاضي شهبة) : تقي الدين أحمد (طبقات الشافعية) عني بتصحيحه وعلق عليه د . الحافظ عبد العليم خان – دار الندوة الجديدة – بيروت – ١٩٨٧ – ج٢ ص٢١٥ .

الشيخ مهذب الدين إذا تفرغ من البيمارستان ، وافتقد المرضى من أعيان الدولة وأكابرهم وغيرهم ، يأتي إلى داره ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة .

ولابد له مع ذلك من نسخ ، فإذا فرغ منه أذن للجماعة فيدخلون إليه ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين ، وكان يقرأ كل واحد منهم درسه ويبحث معه فيه ، ويفهمه إياه بقدر طاقته ، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الوضع يحتاج إلى فضل بحث ، أو فيه إشكال يحتاج إلى تحرير . وكان لا يفارقه إلى جانبه – مع ما يحتاجه من الكتب الطبية – ومن كتب اللغة . فكان إذا فرغت الجماعة من القراءة يعود إلى نفسه فيأكل شيئاً ، ثم يشرع بقية نهاره في الحفظ والدرس والمطالعة يسهر أكثر ليله في الاشتغال " . (٩٧٤)

ومن أبرز الأطباء الذين أشارت المصادر إلى عقدهم لمجالس الطب في العصر المملوكي الأول :

١- مجلس الطبيب أبي العباس أحمد بن أبي الفضل أسعد بن حلوان المعروف بابن العالمة المتوفى (٦٥٢هـ/١٢٥٤م) ، قال عنه ابن أبي أصيبعة إنه : " أتى إلى دمشق وأقام بها ، واشتغل عليه جماعة بصناعة الطب " . (٩٧٥)

٢- مجلس الطبيب أبي يوسف موفق الدين يعقوب بن غنائم المتوفى (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، " كان يشتغل عليه جماعة من المتطببين وقد انتفعوا به كثيراً " . (٩٧٦)

ومما يمكن استنتاجه – أخيراً – عن الطريقة المتبعة في هذه الدروس أنها كانت تقوم – كما يقول ابن أبي أصيبعة – " على الحفظ والاستشراح " من قبل الطالب ، والشرح المستوفى اعتماداً إما على أقوال السابقين أو على مذهب المدرس نفسه ، أما محتوى الدراسة فيقوم على الكتب الطبية أساساً ، ومن الأساتذة من يكون له اختصاص في كتب عالم بعينه . (٩٧٧)

(٤)- المكتبات :

اشتهرت بلاد الشام منذ أيام سيف الدولة الحمداني بالمكتبات ، واستمرت هذه الشهرة فيما بعد ذلك ولاسيما في عصر الدولة الفاطمية ، ولما تولّى نور الدين محمود الشام أنشأ المدارس في مدائنها ، وجعل فيها خزائن للكتب تعرف بالخزائن النورية . (٩٧٨)

وكان في دمشق مكتبات صغيرة ملحقة بالجوامع والمدارس وقد أتى الحريق ويد النهب والسلب على أكثرها ، ولاسيما بعد قدوم المغول وتدميرهم لمدن الشام الرئيسية . (٩٧٩)

---

(٩٧٤) – ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء - ص٧٣٢ – ٧٣٣ .
(٩٧٥) – ابن أبي أصيبعة : المصدر نفسه - ص٧٦٧ .
(٩٧٦) – لمزيد من المعلومات راجع (مراد) : إبراهيم (من مظاهر تطور الطبّ في بلاد الشام في القرنين السادس والسابع الهجريين) – مجلة التراث العربي – دمشق – العدد (١٩) – ١٩٥٨ – ص١٠٢ .
(٩٧٧) – مراد : المرجع السابق – ص١٠٤ .
(٩٧٨) – زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي - ج٢ ص٢٣١ .
(٩٧٩) – (الرفاعي) : أنور (الإسلام في حضارته) دار الفكر - ط١ – دمشق – ١٩٧٣ ص٥٤٦ .

أما في العصر المملوكي فقد تجمع لدينا أسماء ١٣٥ عالماً قضوا حياتهم ، أو جزءاً منها في بلاد الشام ، وكان غالبهم يعيشون في دمشق ، مصنفين على الشكل التالي :

١- الفقهاء	٢٦
٢- المفسرون والمحدثون	٢٣
٣- المتصوفة	٥
٤- أهل النحو والأدب والشعراء	٣٢
٥- المؤرخون والجغرافيون	٢٨
٦- الأطباء والعلماء والمفكرون	١٤
٧- الموسوعيون	٤
٨- مؤلفون متفرقون	٣

وإذا انتقلنا إلى الكتب التي وضعوها خلال هذا العصر وجدناها (٩١٨) مجلداً ، موزعة على المواضيع التالية :

الفقه	٢٧١
التفسير والعقيدة والحديث	١٦٤
التصوّف	١٥٨
اللغة والأدب والشعر	١٣٥
التاريخ والجغرافية	١٢٣
الطب والعلوم والفلك	٥٢
الموسوعات	٤
مؤلفات متفرقة	١١

ومن خلال هاتين الإحصائيتين [٩٨٠] يحق لنا أن نتساءل :
أين أودع هؤلاء المفكرون كتبهم ، وهل عرف العصر المملوكي نظام المكتبات ؟
وما هي أنواع هذه المكتبات ؟

لقد كان من ثمار النهضة الثقافية والتعليمية في عصر دولة المماليك الاهتمام بالمكتبات والعناية بالكتب وجمعها ، وقد ساعد على ذلك كثرة المؤلفات العلمية ، وانتشار أسواق الكتب وتجارتها وصناعة الكتب .

فقد اهتم سلاطين المماليك وأمراؤهم ، وذو اليسر ، بتأسيس مكتبات المدارس ، ومكتبات المساجد والخوانق وغيرها من المؤسسات التعليمية في هذا العصر الزاهر .

---

(٩٨٠) – زيادة : دمشق في عصر المماليك - ص١٨٥ – ١٨٦ .

وكانت المكتبات بمثابة مدارس للتعليم – في شتى العصور الإسلامية – ومؤسسات ينفق عليها السلاطين والأمراء والأثرياء والعلماء لينتشر العلم بين الناس . خصوصاً في ذلك الزمن الذي لم تكن فيه الطباعة موجودة . وكانت الكتب تنسخ على أيدي نسّاخ متخصصين في هذا العمل ، مما جعل ثمن الكتاب مرتفعاً جداً، فيتعذر على طالب العلم أو العالم الفقير شراؤه ، فكيف إذا أراد أن تكون له مجموعة من الكتب في الفن أو العلم الذي يُتَخَصص فيه ؟ ومن هنا كان قيام المكتبات الإسلامية بشكل عام منبعثاً من عاطفة إنسانية ، وكذلك عن نزعة علمية في وقت واحد . (٩٨١)

وقد أدرك رجال العلم وسلاطين العصر المملوكي دور المكتبة التربوي فقد ذكر عبد اللطيف إبراهيم هذا الأمر مؤكداً أنه : " لم يقتصر وجودها على المدرسة وحدها باعتبارها جزءاً ضرورياً وحيوياً في تكوينها ، بل وجدت في المساجد والجوامع والخوانق والزوايا حزانات عامرة ، فيها كتب قيمة كذلك وجدت مكتبات أو خزانات خاصة كثيرة في ذلك العصر ، منها في مقر بعض السلاطين المماليك ، وعند الكثير من الأمراء المماليك في قصورهم ، وكذلك لدى أغلب العلماء والأدباء والفقهاء ، وبعض المماليك الذين اشتهروا بحبهم للكتب ، والذين كانوا يتسابقون في جمع المخطوطات النادرة ، والمصاحف والتحف ، وعنوا بالكتب والمصنفات عناية كبيرة جعلتهم ينشئون لها الخزانات الكتبية ، يبذلون في جمعها الأموال ، وييسرون انتفاع الطلاب والعلماء بها " . (٩٨٢)

ومن هنا نستطيع القول بأن المكتبة في العصر المملوكي قامت بدور عظيم في إرساء قواعد النهضة الثقافية الكبرى في ذلك العصر ، إذ قدمت خدمات مكتبية ممتازة ، مما ساعد على زيادة فرص التعليم التلقائي باعتبار المكتبة جزءاً أساسياً في المدرسة وضرورياً للتعليم والتعلّم في ذلك العصر .

وقد احتوت مكتبات المدارس المملوكية على كتب كثيرة في مختلف العلوم والفنون التي كانت تُدَّرس في ذلك الوقت " لتخدم القرّاء من الفقهاء والعلماء والأدباء والدارسين للفقه وأصوله على المذاهب الأربعة ، وعلوم القرآن والتفسير والحديث والقراءات والتاريخ والأدب، والتوحيد والفرائض واللغة والطب والمنطق والهندسة والحساب والجبر وغيرها من العلوم " (٩٨٣) .

وكما هو الحال في عصرنا تماماً عَرَف العصر المملوكي نظام الإعارة ، ولم تكن لمن يشاء ، بل وجدت قواعد وقيود لضمان تنظيم الاستفادة منها على أوسع نطاق من جهة ، وللمحافظة على محتويات المكتبة من التلف والضياع من جهة أخرى .

ففكرة أخذ ضمان من المستعير كانت من تقاليد المكتبات في العصر المملوكي إذ كثيراً ما كان " يشترط الواقف ألاّ يخرج الكتاب إلاّ برهن يحرز قيمته ، وهو شرط صحيح معتبر ، فليس للخازن (أمين المكتبة) أن يعير إلاّ برهن . (٩٨٤) ووافق ابن جماعة الكناني على إعارة الكتب واستحبها : " لمن لا

---

(٩٨١) – (السباعي) : مصطفى حسني (من روائع حضارتنا) مكتبة دار السلام – دمشق – ١٩٥٩ - ص١٧٧ .
(٩٨٢) – (علي) : عبد اللطيف إبراهيم (المكتبة المملوكية) مطابع الشعب – القاهرة – ١٩٦٢ - ص١١-١٢ .
(٩٨٣) – علي : المرجع نفسه مقدمة الكتاب - ص٩ .
(٩٨٤) – السبكي : معيد النعم - ص٨٨ .

ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها " [٩٨٥] ورأى أن إعارة الكتب فيه : " من الإعانة على نشر العلم وإفادة الناس ونيل الأجر والثواب عند الله " .

وقد أيده في ذلك العلاّمة الغزّي حيث رأى " أن يُشكر للمعير ذلك لإحسانه ويجزيه خيراً " .

وكتب الشافعي قائلاً :

قل لمن لم ترَ عيناً من رآه مثله ومن كان من رآهُ قد رأى من قبله

العلم ينهى أهله أن يمنعوه أهله لعلّه يبذله لأهله لعلّهُ [٩٨٦]

وقد نصح ابن جماعة طالب العلم أن : " يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراؤها، وإلاّ فإجارة ، أو إعارة ، لأنها آلة التحصيل . ولا يجعل تحصيلها وكثرتها حظّه من العلم وجمعها نصيبه من الفهم " . (٩٨٧)

وفضّل الغزي لطالب العلم شراء الكتب " إذا أمكن تحصيلها " وعدم العمل والاشتغال بالنسخ إلاّ في حالة " تعذّر عليه تحصيله لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه " . (٩٨٨) والسبب في ذلك عدم إضاعة الوقت في عملية النسخ ، قدر الإمكان ، ويتيح ابن جماعة فرصة الإعارة للطلبة الفقراء ، وذلك من خلاله نهيه عن استعارة الكتب ، إذا كان في الإمكان شراؤها أو إجارتها [٩٨٩] . أما الإعارة في المكتبات في العصر المملوكي فقد كانت على نوعين :

١- داخلية : أي داخل المكتبة ، ولا يخرج الكتاب خارج المكتبة .

٢- خارجية : ولكن بشروط ، على الرغم من أنها كانت مفيدة إلاّ أنها لا تتم بدون دفع رهن، وربما كان الرهن نقداً أو كتاباً ، وهذا النوع من الإعارة يتم إذا توفّر عدد من النسخ للكتاب المراد إعارته ، أو القليل التداول . أما في بعض المدارس فإنها منعت الإعارة الخارجية ، لا برهن ولا بغيره . [٩٩٠]

وإذا تمت الإعارة الخارجية ، فإنه يتوجب على المستعير عدم الإطالة في بقائه عنده . [٩٩١]

وكذلك وضعت قواعد للاستعارة بنوعيها الداخلية والخارجية تمثلت في :

١- الحذر من الكتابة على حاشية الكتب المستعارة .
٢- حفظ جلود الكتب المعارة .
٣- عدم وضع الكتب على الأرض ، كي لا تتندى أو تبلى .
٤- وضع الكتاب المعار بين كتابين ، أو فوق الكتب وذلك لمنع تسريع تقطيع خياطته .
٥- المحافظة على الكتاب ، وألاّ يجعل مخدة أو مروحة أو مسنداً أو متكأ ولا مقتلة للبق.
٦- عدم إصلاح الكتاب المستعار أو المستأجر إلا بإذن صاحبه .

---

(٩٨٥) - (ابن جماعة) : محمد بن إبراهيم (تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلّم) تح : محمد هاشم الندوي – دار الكتب العلمية – ط١ – بيروت – ٢٠٠٥ - ص١٥٤ .

(٩٨٦) – (الغزي) : محمد بن محمد (الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد) تح : عبد الله الكندري – دار البشائر الإسلامية – ط١ – بيروت – ٢٠٠٦ - ص٢٥١-٢٥٢ .

(٩٨٧) – ابن جماعة : المصدر السابق - ص١٥٤ .

(٩٨٨) – الغزي : المصدر السابق - ص٢٥١ .

(٩٨٩) – ابن جماعة : المصدر السابق - ص١٥٤ .

(٩٩٠) – علي : المرجع السابق - ص٦٢ ، ٦٤ .

(٩٩١) – ابن جماعة : المصدر السابق - ص١٥٥ .

٧- تفقّد الكتاب عند أخذه وردّه ، لكي لا يكون فيه عطب أو تلف . [٩٩٢]

وهكذا يبدو لنا الحرص الكبير الذي أبداه الواقفون للحفاظ على الكتب الموقوفة ربما لقيمتها العلمية أو لندرة وجودها أو لقلّة نسخها أو بهدف تعميم الفائدة لأكبر عدد من رواد المكتبة ، ونرى أن هذا الحرص له ما يبرره في ذلك العصر ، لعدم وجود المطابع مما أدى إلى قلة عدد نسخ الكتاب ، وارتفاع ثمنه ، وكذلك ندرة عدد من الكتب .

وعُرِفَ القائم على أعمال المكتبة في ذلك العصر باسم (خازن الكتب) ويقابل في عصرنا (أمين المكتبة)، ومن خلال صك وقف دار الحديث الأشرفية تعرفنا إلى راتب هذا الخازن ، ووظيفته ، حيث نصت على أن يصرف له ثمانية عشر درهماً في كل شهر ، وعليه الاهتمام بترميم الكتب ، وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من مغلّ الوقف ما يفي بذلك ، وإذا مسَّت الحاجة إلى تصحيح كتاب أو مقابلته . وكذلك فإنه على الناظر (في المدرسة) أن يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء ، ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها . [٩٩٣]

وكانت المكتبات الملحقة بسائر المراكز العلمية – السابق الإشارة إليها – كانت متفاوتة الأحجام والمحتوى، اشتملت في معظمها على كتب نفيسة ونادرة ، ومتنوعة ، بصرف النظر عن العلوم المنصوص في حجج وقفها على تدريسها فيها . [٩٩٤]

هذا ما كان بشأن ما عُرِفَ (بالمكتبات العامة) ، أما المكتبات الخاصة فقد وجد عدد كبير منها لدى العلماء نذكر منها :

١- مكتبة الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني ، المتوفى (٦٥٥ هـ/١٢٥٧م) امتلك مكتبة ضخمة ، وأكثر مجاميعه وكتبه كتبها بخطه ، وقد أوقفها بعد موته لخزانة المدرسة الفاضلية بالكلاّسة . [٩٩٥]

٢- مكتبة شمس الدين محمد بن محمد البعلي المتوفى (٧٧٢ / ١٣٧٠ م) [٩٩٦] ، الذي كتب بخطه المليح شيئاً كثيراً ، وحصَّل كتباً جليلة . [٩٩٧]

٣- مكتبة عمر بن مسلّم بن عمر الدمشقي المتوفي (٧٩٢ هـ / ١٣٨٩م) وقد جمع في مكتبته من نفائس الكتب شيئاً كثيراً ، وكان كثير العمل والاشتغال بها لا يمل منها ، كثير المساعدة بها لطلبة العلم . [٩٩٨]

٤- مكتبة أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري المتوفى (٧٤٩ هـ / ١٣٨٩ م) وكانت مكتبة عامرة بالكتب.[٩٩٩]

---

(٩٩٢) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص ١٥٤-١٥٨ / الغزي : الدر النضير - ص٢٥١-٢٥٤ .
(٩٩٣) – كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص١٩٠ .
(٩٩٤) – عز الدين : الحركة العلمية - ص٧٦ .
(٩٩٥) – أبو شامة : ذيل الروضتين ص٣٠٠ / اليونيني : ذيل مرآة الزمان - ج١ ص٧٦ / ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٣ ص١٨٣ / ابن العماد : الشذرات - ج٦ ص٢٦٩ .
(٩٩٦) – أخطأ كرد علي في وفاته حيث ذكرها سنة (٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م) . كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص١٨٨ .
(٩٩٧) – (ابن العراقي) : أحمد بن عبد الرحيم (الذيل على العبر في خبر من عبر) تح : مهدي صالح عباس – دار الرسالة – ط١ – بيروت– ١٩٨٩ - ج٢ ص٣٢٤ / ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة - ج٢ ص٣٩٥ / ابن حجر : الدرر ج٤ ص١١٥ .
(٩٩٨) – ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة- ج٣ ص٣٦٠ / ابن حجر : الدرر - ج٣ ص١١٤ .
(٩٩٩) – ابن قاضي شهبة : المصدر السابق - ج١ ص٥٧٠-٥٧١ / ابن حجر : المصدر السابق ج١ ص١٩٤-١٩٥ .

٥- مكتبة ابن كثير المؤرخ الدمشقي ، توفي (٧٧٤ هـ/١٣٧٢م) وقد حوت على المئات من الكتب ، في شتى المجالات (الحديث الشريف ، الفقه ، العقيدة ، التاريخ ، التراجم العامة،.....) [١٠٠٠] وغيرهم كثير الكثير .

ولكن للأسف كان اهتمام الدولة ، وكذلك اهتمام الأدباء والعلماء بالمكتبات خلال العصر المملوكي قد ذهب أدراج الرياح ، والسبب في ذلك المصائب التي حلّت بها على أيدي المغول، كما حدث في بغداد سنة (٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م) ، وفي غزو تيمورلنك سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) إذ بقيت النار تأكل في دور دمشق ومدارسها وجوامعها في الفتنة التيمورية ثلاثة أيام، فذهب في غزوة غازان وتيمورلنك وغيرهما آلاف الكتب التي لا يمكن تعويضها وقدرت الكتب التي حملها هولاكو من دمشق سنة (٦٥٨ / ١٢٦٠ م) بأربعمائة ألف مجلد . [١٠٠١]

ويبقى سؤال هو أين كانت تباع الكتب في دمشق خلال هذا العصر ؟

لقد كان سوق الكتب سوقاً مشهوداً ، حتى إن المقريزي أوصى بالمثابرة إلى سوق الكتب وارتياده دائماً قائلاً :

مجالسة السوق مذمومة ومنها مجالس قد تُحتسبْ

فلا تقربنْ غير سوق الجياد وسوق السلاح وسوق الكتبْ

فهاتيك آلة أهل الوعى وهاتيك آلة أهل الأدبْ [١٠٠٢]

ووجدت في بلاد الشام عدة أسواق للكتب كان من أهمها وأشهرها ما هو بدمشق تحت شبّاك المدرسة الفاضلية بالكلاّسة قرب الجامع الأموي ، كما في جواره سوق لبيع الكتب يقال له سوق الكتبيين في باب البريد بدمشق . [١٠٠٣]

(٥) - وسائل التثقيف العامة :

لم تكن الكتاتيب والمدارس والمساجد والمكتبات هي الوحيدة في نشر الثقافة والعلم بشكل علمي منهجي ومنظم ، بل تعدى الأمر إلى وجود وعي تربوي وثقافي شمل قسماً كبيراً من طبقات المجتمع وذلك من خلال ظهور وسائل تربوية تثقيفية تصل إلى عامة الشعب، وتنير لهم الطريق .

وهذا الأمر ينسجم مع المبدأ الذي أكده بعض الباحثين بأن: " التربية المستمرة في الإسلام التي تتعدد أبعادها بحسب حالة كل إنسان . فمن كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، كان عليه أن يتعلمها ، ومن كان على بعض علم كان عليه أن يستزيد من علمه ، ومن كان على علم كثير، فعليه أن يستزيد أيضاً من علمه ، وأن ينشر ذلك العلم ، باللسان والكتابة " . [١٠٠٤]

[١٠٠٠] – (حسين) : خليل (جوانب من حركة التأليف التاريخي في العصر المملوكي). رسالة دكتوراه غير منشورة – إشراف أ . د . إبراهيم زعرور – قسم التاريخ – جامعة دمشق – ٢٠٠٨ - ص٢٧٨-٢٨١ .

[١٠٠١] – كرد علي : خطط الشام - ج٦ ص١٩١-١٩٢ / جيدة : المدارس ونظام التعليم : ص٧٣ .

[١٠٠٢] – المقريزي : الخطط - ج٣ ص١٨٥ .

[١٠٠٣] – (كحالة) : عمر رضا (العلوم العملية في العصور الإسلامية) مطبعة الترقي – دمشق – ١٩٧٢ – ق١ – ص٢٨٠ .

[١٠٠٤] – (عبود) : عبد الغني (في التربية الإسلامية) دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٧٧ – ص١٦٣ .

ومن خلال قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلاّ أتى به يوم القيامة ملجماً بلجام من نار " [١٠٠٥] نستنتج أن منهج التربية الإسلامية يُلزم المسلم بتبليغ ما لديه من علم إلى من لا يعلم وإلاّ كان مقصراً معرضاً نفسه للعقاب .

وأعجبنا بكلام السبكي الذي أمر فيه نواب السلطنة في الأقاليم " بإقامة فقيه في كل قرية لا فقيه فيها ، ليعلم أهلها أمر دينهم " . [١٠٠٦] وكذلك أوضح أن الهدف من رسالة العلماء هي : " إرشاد المتعلمين وافتاء المستفتين ، ونصح الطالبين ، وإظهار العلم للسائلين ، وألا يقصدوا بالعلم الرياء والمباهاة والسمعة ، ولا جعله سبيلاً إلى الدنيا " [١٠٠٧] .

ورأينا خلال العصر المملوكي مؤشرات تدل على اهتمام أصحاب الأمر في أمر إيصال العلم لغير المتعلمين ومن ذلك ما رواه الصيرفي في حوادث سنة (٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م) أنْ: " أَمَرَ المحتسب حفظة القرآن الكريم ، أن يعلموا الناس ما لابد منه ، من قراءة القرآن لأجل الصلاة ، فاستمر ذلك ، وقرر لكل معلم على حانوت ، فلسين في كل يوم " . [١٠٠٨]

ومن أهم وسائل – التثقيف الشعبي – التي عرفها ذلك العصر :

١"– **درس الميعاد** : وهو درس ديني ، للوعظ والإرشاد ، والحث على التقوى ، ومن أهم موارد هذا الدرس الحديث الشريف ، والآيات الوعظية في القرآن الكريم [١٠٠٩] ، وغيرهما من العلوم الشرعية . وكانت هذه الدروس يحضرها عامة الناس ، وبعض ممن يؤدون صلاة الجماعة .

وقد خصص لدرس الميعاد وظيفة لها مرتب معلوم ، وفي بعض الأحيان باشر هذه الدروس كبار العلماء الذين ربما استمع إليهم وحضر حلقاتهم هذه علماء كبار أيضاً بالإضافة إلى عامة الناس . [١٠١٠]

٢"– **الواعظ** : وهي وظيفة هامة قال عنها السبكي : " وعليها نحو ما على الخطيب ، فليذكر بأيام الله ، وليخِف القوم من الله تعالى، وينبئهم بأخبار السلف الصالحين، وما كانوا عليه، وأهم ما ينبغي له وللخطب أن يتلو على نفسه قوله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ [١٠١١].

ويتذكر قول الشاعر : **لا تنه عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيم**

واعلم أن الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب ، فكل خطيب وواعظ لا يكون عليه سيما الصلاح قلّ أن ينفع الله به " [١٠١٢] .

٣"– **القاص** : وهو من يجلس في الطرقات يذكر شيئاً من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأخبار السلف، ومن واجبه ألا يتكلم إلاّ ما يفهمه العامة كالترغيب في الصلاة والصوم وإخراج الزكاة والصدقة

[١٠٠٥] – (ابن ماجة) : محمد بن يزيد القزويني (سنن ابن ماجة) تح : فؤاد عبد الباقي – مكتبة عيسى البابي الحلبي – القاهرة – ص٩٦.
[١٠٠٦] – السبكي : معيد النعم - ص٢٤ .
[١٠٠٧] – السبكي : المصدر نفسه - ص٥٧ .
[١٠٠٨] – (الصيرفي) : علي بن داود (نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان) تح : حسن حبشي – مطبعة دار الكتاب – القاهرة – ١٩٧٠– ج١ ص١٦٨ .
[١٠٠٩] – المقريزي : السلوك - ج١ ص١٦٨ .
[١٠١٠] – (السخاوي) : محمد بن عبد الرحمن (الذيل على رفع الأصر) تح : جودة هلال ، محمد صبيح – الدار المصرية للتأليف – القاهرة - ص١٦١ .
[١٠١١] – سورة البقرة : الآية (٤٤) .
[١٠١٢] – السبكي : معيد النعم - ص٨٩ .

ونحو ذلك ، وليس من وظيفته الخوض في أصول الدين وفنون العقائد وأحاديث الصفات ، لأن ذلك فوق مستوى العامة . [١٠١٣]

٤"- قارئ الكرسي : وهو من يجلس على كرسي ، يقرأ على العامة شيئاً من الرقائق [١٠١٤] ، والحديث الشريف والتفسير ، فيشترك هو والقاص في ذلك ، ويفترقان في أن القاص يقرأ من صدره وحفظه ، ويقف ، وربما جلس ، ولكن جلوسه ووقوفه في الطرقات ، وأما قارئ الكرسي فيجلس على كرسي في جامع أو مسجد أو مدرسة أو خانقاه ، ولا يقرأ إلاّ من كتاب . [١٠١٥]

ومن خلال المقارنة بين قارئ الكرسي والقاصي ، تبين أن قارئ القاص كان أعلى مستوى ، لأن مقر قارئ الكرسي هو دور العلم التي يؤمها المتعلمون والأقل تعليماً منهم ، ولأن قراءته من كتاب تجعله أكثر تركيزاً ، كما تسهل على المستمع فرصة الأخذ والرد ، كما أن الجلوس على الكرسي تتيح له الراحة بخلاف مستمع الطريق الذي ربما يصيبه الملل ، أو لا يطيل الاستماع بسبب الحر أو البرد أو التعب أو ما شابه ذلك .

٥"- المنشد : وتقوم هذه الوظيفة على ذكر شيء من الأشعار مما هو واضح اللفظ ، صحيح المعنى ، مشتمل على المدائح النبوية ، وعلى ذكر الله تعالى وآلائه وعظمته ، وخشية مقته وغضبه ، وذكر الموت وما بعده.[١٠١٦] وربما يكون هذا النوع من الوعظ القائم على الأوزان الشعرية أكثر جذباً لعامة الناس ، مما يسهل عليهم الحفظ والفهم .

وهكذا نستطيع أن نستخلص من العرض الذي قدمناه عن وسائل التثقيف العامة –الشعبية– أنها كونت فكراً وفهماً مشتركاً بين أفراد الشعب في مستوى ثقافي معين ، استطاع أن يحقق قدراً جيداً من التربية الشعبية انعكست آثارها على سلوك الناس وتصرفاتهم اليومية بصورة إيجابية .

النتائـــج :

رأينا من خلال هذا الفصل أنه كان لدى المسلمين في العصر المملوكي الأول حياة علمية كاملة نبعت من المساجد ، وبلغت ذروتها في المدارس بأنواعها المختلفة ، وكانت المدارس الكبرى تمثل الكليات الجامعية في مصطلحنا الحديث . فقد كانت مراكز هامة للحياة الفكرية ، إذ نشأت بين جدرانها العلوم الإسلامية ، ورسّخت أصولها وامتدت فروعها ، وإلى أساتذتها وطلابها يرجع الفضل في وجود هذا التراث الضخم الذي صار إلينا من الثقافة والفكر الإسلامي وأهم النتائج التي توصلنا إليها :

(١٠١٣)- السبكي : المصدر نفسه - ص٨٩ .

(١٠١٤) – الرقائق : جمع رقيقة ، وهي لفظ اصطلاحي يطلق في كتب الحديث الكبرى على باب من أبواب الحديث النبوي الشريف ، وسميت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه ما يجعل القلب رقيقاً رحيماً / المقريزي : السلوك – ج١ – ص٥٥٧ – هامش رقم (١) .

(١٠١٥) – السبكي : المصدر السابق - ص٨٩-٩٠ .

(١٠١٦)- السبكي : المصدر نفسه - ص٨٦ .

١- إن العصر المملوكي كان عصر ازدهار ورقي حضاري وعلمي ، ولم يكن عصر انحطاط كما أطلق عليه بعض الباحثين . ولم يكن عصر غزوات أو عصر أعاجم بل هي تسميات خاطئة لأن العصر ليس الحكام بل هو الشعب ، لأن النتاج الفكري كان نتاج أبناء المنطقة العربية التي حكمها المماليك ، والشعب هو من قدّم الإفرازات الفكرية .

٢- وجد عدد من العوامل الداخلية والخارجية ساهمت في دفع النشاط الفكري باتجاه التطور . وقد لعب سلاطين المماليك دوراً بارزاً في ذلك ، بالإضافة إلى الأرضية الصالحة التي شكلت النواة الأساسية لهذا التطور (علماء – مدارس – مكتبات – مساجد – مؤلفات ...) .

٣- عرفت دمشق خلال هذا العصر الكثير من الأبنية العلمية ، من كتاتيب ومدارس ومساجد ومكتبات .

٤- لعبت الأوقاف دوراً هاماً في تنشيط الحركة الفكرية ، حيث أسهم فيها الأمراء والشعب على حدٍ سواء ، وتم من خلال هذه الأوقاف الإنفاق على المؤسسات التعليمية ودور الثقافة والمشافي والمصحّات . وقد وجدت وظيفة ارتبطت بالأوقاف ألا وهي (نظر الأحباس) . ومعظم الذين أوقفوا الأوقاف كانوا من ميسوري الحال والأغنياء .

٥- تمتع رجال الفكر خلال العصر المملوكي بحرية كبيرة في التنقل والإقامة والأخذ والعطاء والتأثر والتأثير. حيث استطاع العلماء أن يضعوا مؤلفاتهم في كل بلدٍ نزلوا به . ومما شجعهم على التنقل التسهيلات التي تمتعوا بها في كل بلدٍ حطوا فيه من إقامة وطعام وإكرام ودراسة وتدريس وتوظيف .

٦- تعددت مراكز النشاط الفكري في دمشق خلال هذا العصر حيث وجد في دمشق (٣٩٧) مسجداً فضلاً عن سائر قراها . أما المساجد التي بنيت خلال العصر المملوكي الأول (١١) مسجداً . حيث أدت وظيفتها التعليمية إلى جانب ما كان يؤدى فيها من شعائر العبادة . وبقي حتى يومنا هذا من هذه المساجد (٧) بالإضافة إلى الأموي ، وهي بحالة مزرية – باستثناء الأموي – وبحاجة إلى إصلاح وترميم .

٧- حَفَلَت دمشق بوجود عدد من المكاتب (الكتاتيب) سواء الخاصة أو العامة . وكذلك أوقفت لها الأوقاف ، وعرف القائم عليها باسم (المؤدب) ، وتمتع الأيتام بأخذ نصيب كبير من مقاعد هذه الكتاتيب حيث وجدت كتاتيب خاصة بهم عرفت بمكاتب الأسبلة . وحددت شروط وواجبات على الأطفال الذين يقيمون داخل هذه المكاتب ، وتبيّن لنا أن هذه المكاتب حوت الأطفال من ذكور وإناث . وكذلك خصصت المكاتب للأطفال الذين هم دون سن البلوغ، ومتى بلغ الطفل سن البلوغ عليه مغادرة المكتب.

٨- أما بالنسبة للمدارس فقد كانت مخصصة لدراسة أحد المذاهب الفقهية (شافعية – حنفية – مالكية – حنبلية) ، وكذلك هناك مدارس مشتركة (شافعية وحنفية) . في حين أننا لم نعثر على مدرسة مشتركة بين أي مذهبين آخرين باستثناء المذهبين الشافعي والحنفي . فلم نجد مدارس (شافعية –

مالكية) أو (شافعية – حنبلية) أو (حنفية – مالكية) أو (مالكية – حنبلية) . فكان الاشتراك فقط بين (الشافعية والحنفية) . وكذلك لم نجد أية مدرسة درّست جميع المذاهب .

٩- حظي المذهب الشافعي بوجود أكبر عدد من المدارس تلاه الحنفي ثم الحنبلي والمالكي . حيث كان التخصص في المذهب سمة واضحة خلال العصر المملوكي . وبما أن الدولة لم يكن لديها سياسة تعليمية واضحة فقد كانت جميع المؤسسات التعليمية هي أوقاف تبرع بها مشجعو العلم والتعليم . لذلك نرى أن الغالبية العظمى من سكان دمشق كانوا على المذهب الشافعي .

١٠- كان عدد المدارس الشافعية (١٤) مدرسة ، والحنفية (٨) مدارس ، والمالكية (مدرستان) ، والحنبلية (مدرستان) . وقد أوصى واقفوا هذه المدارس أن تخصص على مذهب محدد يقوم الواقف بتحديده . وقد رغب الناس بالدراسة في المدارس الفقهية لأن أصحاب المناصب والوظائف كانوا من خريجيها .

١١- أما بالنسبة لدور القرآن الكريم فقد كان عددها قليل خلال هذا العصر حيث بلغ عددها (٧) مدارس . وعلى ما يبدو أن الإقبال على هذه المدارس كان قليلاً لأن تدريس القرآن الكريم كان يتم في كل مكان تقريباً .

١٢- وفيما يخص مدارس الحديث الشريف فكان عددها (٩) مدارس . وكان توزعها الجغرافي متوزعاً على كافة أنحاء مدينة دمشق حتى أن بعضها كان في حي الصالحية . على عكس دور القرآن التي انحصرت داخل سور المدينة . وكذلك الأمر فقد وجدت مدرستان مشتركتان للحديث والقرآن معاً .

١٣- وجد عدد كبير من المدارس الصوفية (خوانق) بلغ عددها (٨) خوانق ، وأما الزوايا فقد بلغ عددها (٦) زوايا ، والربط (٥) ربط . وكانت هذه المدارس تقوم بالدور نفسه التي قامت به مدارس الفقه والحديث والقرآن .

١٤- أما البيمارستانات فوجد (٣) بيمارستانات ، ووجد (مدرستان) للطب . وكان هناك المجالس الطبية التي عقدها الأطباء في منازلهم .

١٥- ومما يؤسف له أننا لم نعثر على مدرسة للنحو أو الرياضيات أو الفلك أو التاريخ أو الجغرافية أو الفلسفة. كذلك لم نعثر على مدارس لأصحاب المذاهب غير السنية . والمدارس التي وجدت لم يكن لها ديوان خاص بها ينظم عملها . لذلك نرى بعد مدة من الزمن كيف ينتهي العمل بهذه المدارس أو يتم الاستيلاء عليها، كما حدث لها في عصرنا الحالي وتحولت إلى دور للسكن .

١٦- إذا قارنا عدد مدارس الفقه بغيرها من المدارس نجد أنه الأكبر والسبب في ذلك تشجيع السلاطين للمذاهب السنية والإكثار منها لمحو أثار المذهب الفاطمي وتثبيت المذهب السني . وكذلك التعصب المذهبي دفع بعض المتحمسين لهذا المذهب أو ذاك من مذاهب الفقه إلى إقامة المدارس الفقهية وكانت المدارس الفقهية تخرج القضاة والفقهاء وأصحاب الوظائف لذلك أقبل عليها الطلاب لأنها تدر عليهم الأموال . كما هو الحال عصرنا مع الكليات الطبية ، التي نرى الإقبال الكبير عليها .

١٧- قام السلاطين والأمراء ببناء المدارس والإنفاق على طلبة العلم استجلاباً لدعائهم ، ووجد الكثير من المدرسين والطلبة في هذه المدارس بيوتاً يؤون إليها . حيث هيأت لهم كل وسائل العيش ، للدراسة والبحث من غير أن يصرفه شاغل من شواغل الحياة . ولو أنه حفظ هذا النظام ونقي مما فيه من عيوب حتى وقتنا الحاضر لكان المثل الأعلى للنظام المدرسي الصحيح .

١٨- كانت دمشق غنية جداً بالمكتبات ، والدليل على ذلك كثرة المؤلفات التي وضعت خلال العصر المملوكي والتي بلغ عددها (٩١٨) مجلداً . والتي كان مركز وجودها هو المكتبات حيث زودت دور العلم (الكتاتيب- المدارس - المساجد) بالمكتبات .

وأين نحن اليوم من المكتبات المملوكية ؟ فبينما أصبحنا في القرن الحادي والعشرين ، نرى أن مدارسنا الابتدائية والإعدادية والثانوية وفي بعض الأحيان الجامعات وهي عماد التكوين التربوي والعلمي والوطني ، ليس فيها مكتبات بالمفهوم السليم لهذا اللفظ ، فكثير من هذه المدارس لا يوجد فيها مكتبات إطلاقاً ، وما وجد منها لا يتوفر له الكتاب المناسب ، أو المكان المناسب ، أو الأثاث النموذجي ، أو المدّرس المدرب على الخدمة المكتبية .

١٩- في ذلك العصر وضع قواعد لإعارة الكتب ، مما يعني أن نظام الإعارة في عصرنا اليوم ليس وليد العصر ، بل وليد العصور السابقة .

ووجد نوعان من المكتبات : الخاصة التي كان أصحابها علماء مشهورين ، أو المكتبات العامة الملحقة بالمدارس والمساجد . ولكن للأسف أن تلك المكتبات قد أصابتها عدة نكبات مع هجوم المغول في غزوات متعددة . حيث أبادوا هذه الكتب ، وسرقوا قسماً كبيراً منها إلى بلادهم .

٢٠- تعددت وسائل التثقيف العامة ، حيث أسهمت بدور تربوي مهم في محو الأمية لدى عامة الشعب . وقد أشرف على تلك المؤسسات عدد كبير من العلماء والمثقفين الذين اعتبروا تلك المهمة جزءاً من واجبهم ، تمليه عليهم الأمانة ، وحبهم في نشره على أوسع نطاق . وإذا نظرنا إلى واقعنا اليوم وجدنا أن الأمية العلمية والثقافية متفشيتان بين الشعوب العربية والإسلامية وذلك لأن الجهود المبذولة في محو الأمية متواضعة جداً بالقياس إلى حجم المشكلة وخطورتها .

الفصل الثالث

أولاً – هيئة التدريس والطلاب في دمشق المملوكية :

وطّد العلماء لأنفسهم منزلة سامية في نفوس الحكام والمحكومين في مجتمعهم – على حد سواء – استناداً إلى ما للعاطفة الدينية من أثر جيّاش في نفوس هؤلاء وهؤلاء فنجد مثلاً السمهودي ينعت من لا يقومون بحق العلماء ، شكراناً لنعمة العلم ، منّزلاً إياهم منزلة متسفلة عن منزلة البهائم ، قائلاً :

" ... وينشأ عن هذا أن بني آدم أولى بذلك في حق علمائهم ، لأنهم أحوج إلى العلم ، ويعود عليهم من فوائده ما لا يعود على غيرهم من الحيوانات ، فيستفاد من ذلك الإشارة إلى حثّهم على الاشتغال بمثل ذلك ، وأعلى منه في القيام بحق العلماء ، شكراً لنعمة العلم ، فأقل رتبتهم أن يتشبهوا بالحيوانات العجماوات في هديهم ، وإلاّ فليسوا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً " . (١٠١٧)

(١٠١٧) – (السمهودي) : علي بن عبد الله (جواهر العقدين في فضل الشريفين) تح : موسى العليلي – دار الأوقاف – بغداد – ١٩٨٧ ق١ – ص٧٦-٨٧ .

بل نجده يصف أولي الأمر في قوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ [١٠١٨] ، فيقول: " فالراجح في هذه اتفاقاً أن المراد بأولي الأمر العلماء ، على أنه لو سُلِّمَ أن المراد من أولي الأمر فيهما ولاة الأمور ، فالشرط فيهم العلم ، ولا طاعة لهم إلاّ فيما وافق العلم ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " . [١٠١٩]

وقد حظي المدرسون في ظل التربية الإسلامية بمكانة لم يحظَ بها المدرس في ظل أي نظام آخر من الاحترام والتقدير وعلو المرتبة وسمو المكانة . فقد كان المدرسون هم المحور الذي تدور في فلكه العملية التعليمية ، سواء في تقديم المادة العلمية لتلاميذه ، أو بناء العلاقات الإنسانية ، وكان الدافع لكل هذا التقدير والتبجيل هو القدسية الخاصة التي منحها الإسلام للعلم، وإجلاله للعلماء [١٠٢٠]. ونعني هنا بعبارة (هيئة التدريس) كل من عمل بمهنة التعليم بدءاً بالكتّاب (المرحلة الابتدائية) ، وانتهاءً بالتعليم العالي ، ويشمل ذلك معلم الكتاب ، والعلماء المتخصصين (المدرسين) والمعيدين .

والواضح أن مهنة التدريس كانت مباحة لكل من تؤهله قدراته العقلية والعلمية لممارستها على أي مستوى من المستويات ، فلم توجد مؤسسات خاصة لإعداد المعلمين ، فالجميع يتلقون علومهم ومعارفهم في مؤسسة تعليمية أو أكثر من تلك المؤسسات التعليمية التي سبق ذكرها (المدارس – الزوايا – المساجد ....) . وكانت المناهج موحدة – تقريباً – في المدارس المختلفة ، حيث كان الجميع ينهلون من معين واحد . وسنفصّل في أعضاء الهيئة التدريسية .

١ – **معلّم الكتاب** : وكان اسم (المؤدب) هو الشائع لمعلم الكتاب خلال العصر المملوكي ، وبالإضافة إلى لقب (الفقيه) و (المعلم) المعروف . [١٠٢١]

٢ – **العريف** : وهي وظيفة معروفة في العصر المملوكي ، شبيهة بوظيفة المعيد ، وقد نصت حجة الوقف على أن " يرتب الناظر شخصاً يكون عريفاً ، مساعداً للمؤدب ، يصرف له في كل شهر مرتباً . وهو من جملة الأيتام في المكتب ، ويستمر فيه ولو كان بالغاً " . [١٠٢٢]

ويتم تعيين العريف في عمله من قبل المؤدب ، وهو يقوم محله في أثناء غيابه ويساعده في تعليم الأطفال ، إذ يعرضون ألواحهم عليه ويستمع إلى قراءاتهم . وكان من أنبغ الأطفال في المكتب ، ويشترط فيه من الشروط ما يجب توافرها في المؤدب . ويبدأ عمله عندما ينتهي عمل المؤدب لمعاونة المتخلفين من الأطفال الذين تتفاوت أعمارهم الزمنية أو العقلية ، كما يقوم بحفظ النظام والإشراف على تعليمهم في غيبة المؤدب.[١٠٢٣]

(١٠١٨) – النساء : الآية (٥٩) .
(١٠١٩) – السمهودي : المصدر السابق ق١ - ص١٢٠ – ١٢١ .
(١٠٢٠) – (الأزرق) : أبو عبد الله (بدائع السلك في طبائع الملك) تح : علي سامي النشار – بغداد – وزارة الإعلام العراقية – ١٩٧٧ – ج١ ص٢٤٧.
(١٠٢١) – راجع الفصل الثاني – حيث فصلنا فيه في أثناء حديثنا عن الكتّاب .
(١٠٢٢) – إبراهيم : نصان من وثيقة الأمير صرغتمش ص١٥٣ .
(١٠٢٣) – إبراهيم : دراسات تاريخية - ج١ ص١٤٧ .

٣- المعيد : وهي وظيفة معروفة قبل ظهور التربية الحديثة بمئات السنين ، أي أن نظام الإعادة في الجامعات اليوم ليس من مستحدثات عصرنا . فقد سبقت إليه الجامعات الإسلامية – في العصر المملوكي – إذ أشارت معظم وثائق الوقف إلى تحديد عدد المعيدين بجانب المدرسين ، في أية مدرسة تقام . (١٠٢٤)

وإن المراجع لكتاب القلقشندي يجد أنه قد حدد مقام المعيد بأنه يأتي " بعد رتبة المدرس ، وأصل موضوعه أنه إذا ألقى المدرس الدرس ، وانصرف ، أعاد للطلبة ما ألقاه عليهم ، ليفهموه ويحسنوه " . (١٠٢٥)

وأوضح السبكي أن المعيد هو واحد من الطلاب ، وقال : " المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم ، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة ، وإلا فهو والفقيه – أي الطالب – سواء ، فما يكون قد شكر الله تعالى على وظيفة الإعادة " . (١٠٢٦)

ومما زاد الأمر وضوحاً ما ذكره ابن جماعة من صفات خلقية ووظيفية للمعيد ، فيشترط على المدرس أن يكون معيده : " من صلحاء الفضلاء ، وفضلاء الصلحاء ، صبوراً على أخلاق الطلبة ، حريصاً على فائدتهم وانتفاعهم به ، قائماً على وظيفة أشغالهم ... " . (١٠٢٧)

ثم يضيف إلى جانب ذلك أيضاً : " وينبغي للمعيد بالمدرسة أن يقدم أشغال أهلها على غيرهم في الوقت المعتاد أو المشروط إن كان يتناول معلوم الإعادة ، لأنه معين عليه ما دام معيداً ، وأشغال غيرهم نفل أو فرض كفاية ، وأن يُعلم المدرس أو الناظر بمن يرجى فلاحه ليزداد ما يستعين به ، ويشرح صدره وأن يطالبهم بعرض محفوظاتهم إن لم يعين لذلك غيره، ويعيد لهم ما توقف فهمه عليهم من دروس المدرس ، ولهذا يسمى معيداً " (١٠٢٨). وحدد ابن جماعة مكان جلوس المعيد على يمين أو يسار المدرس ، ونجباء الطلبة أمام وجه المدرس . (١٠٢٩)

ومن خلال وثائق الوقف يتضح أن ناظر الوقف هو الذي يقوم بتعيين المعيد في وظيفته : " ويرتب الناظر في هذا الوقف شخصاً من الفقهاء الحنفية تكون فيه أهلية الاشتغال بمذهبه ، ... ويرتب معه من الفقهاء الحنفية ثلاثة معيدين " . (١٠٣٠)

وبما أن ناظر الوقف شخص إداري فقط وليس لديه معرفة أو علاقة مباشرة بالطلبة ليعرف مستوياتهم العلمية كي يختار المعيد ، بل ربما أنه لا يكون من أهل العلم ، ولذلك لابد أنه كان يستعين بالمدرسين في المدرسة لترشيح من يصلح للإعادة .

وقد أخطأ أحد الباحثين عندما جعل وظيفة المعيد هي نفسها " نقيب الطلبة " (١٠٣١) ، فقد ثبت لدينا أن وظيفة المعيد تختلف عن وظيفة نقيب الطلبة، وذلك بناء على ما ذكره " ابن جماعة " من وظيفة نقيب

(١٠٢٤) – إبراهيم : نصان من وثيقة الأمير صرغتمش ص١٤٧ .
(١٠٢٥) – القلقشندي : صبح الأعشى - ج٥ ص٤٦٤ .
(١٠٢٦) – السبكي : معيد النعم - ص٨٥ .
(١٠٢٧) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص٢٠١ .
(١٠٢٨) – ابن جماعة : المصدر نفسه - ص٢٠٤ .
(١٠٢٩)- ابن جماعة : المصدر نفسه - ص١٥٠ .
(١٠٣٠) – إبراهيم : نصان - ص١٤٧ .
(١٠٣١) – إبراهيم : المرجع نفسه - ص٦٠ .

الطلبة ، فهي " ترتيب الحاضرين ومن يدخل عليهم على قدر منازلهم، ويوقظ النائم ، ويشير إلى من ترك ما ينبغي فعله ، وفعل أمر ما ينبغي تركه ، ويأمر بسماع الدروس والإنصات إليها " [١٠٣٢] . ومعنى هذا أن وظيفة نقيب الطلبة هي وظيفة تنظيمية وليست تعليمية كما هي وظيفة المعيد .

ومما يؤكد صحة رأينا ما ذكره المقريزي في شرحه لأوقاف المدرسة الناصرية سنة (٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م) حيث قال : " ... ويصرف لكل واحد من المدرسين ولمعيديه وطلبته والداعي عنده والنقيب في كل شهر من شهور الأهلية ، ألف درهم " [١٠٣٣] . وذكر في موضع آخر " ... صرف منها لمعيدين ، لكل منهما في كل شهر ثلاثون درهماً ، وصرف للطلبة والنقيب والداعي في كل شهر ثلاثون درهماً ، وصرف للطلبة والنقيب والداعي في كل شهر مائتي درهم وسبعين درهماً " [١٠٣٤] كما أن المعيد يعينه الناظر ، أما النقيب فيختاره المدرس. [١٠٣٥]

وهكذا يتضح لنا أنه هناك فرق بين المعيد ونقيب الطلبة ، كما يتضح أن المعيد موظف بالمدرسة وله راتب شهري ، وهو في مرتبة أقل من مرتبة المدرس .

٤- **المدرس** : حفل العصر المملوكي بعدد كبير من المدرسيين المتخصصين في مختلف المواد الدراسية، كالحديث والتفسير، والفقه وأصوله، واللغة العربية، والطب، وعلوم أخرى كثيرة.

والمدّرس في العصر المملوكي هو أستاذ المادة الذي يقوم بالتعليم العالي في المساجد والمدارس العالية . وحرص السلاطين والأمراء وواقفو المدارس على اختيار المدرسين المعروفين بالفضل ، والسبب في ذلك أن مركز (سُمْعَة) المدرس أو الأستاذ أو الشيخ في ذلك الوقت كان فوق مركز المدرسة ، ولأن الطلاّب كانوا يرتحلون إليه بالذات أينما كان ، ويحصلون منه على الإجازات العلمية [١٠٣٦] .

هذا ولم تكن هناك ميزة بين العلماء والمدرسين ، والمدرسين الآخرين الذين اتخذوا من التدريس مهنة ، إذ كان الجميع يعملون بأجر ، أو تطوعاً ، من أجل تثقيف الناس وتعليمهم عن طريق التدريس تارة ، أو عن طريق الكتب ونشرها طوراً آخر . [١٠٣٧]

وكان أخذ العلم من المدرس محل الاهتمام عند المسلمين الذين كانوا يكرهون كما ذكر أخذه عن الكتب الأخرى وحدها ، لدرجة أنهم كانوا يقولون : " إن أعظم البلية هو تشيخ الصحيفة " . [١٠٣٨]

ونود الإشارة هنا إلى أن المدرسين في ذلك العصر لم يعرفوا التخصص بمعناه الضيّق اليوم ، إذ كان كل واحد منهم يجيد عدة علوم ، رغم امتيازه في واحد منها أو أكثر . ولعلّهم أدركوا خطورة التخصص وأثره في ضيق الأفق التربوي ، قبل أن تدركه التربية الحديثة ، فقد جعلت إحدى الباحثات "

(١٠٣٢) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص٤١ .
(١٠٣٣) – (المقريزي) : أحمد بن علي (السلوك لمعرفة دول الملوك) تح : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف – القاهرة -ط٢ – ١٩٥٦ – ج١ ص١٩٤٦ ملحق رقم ص١٧ .
(١٠٣٤) – المقريزي : المصدر السابق - ج١ ص١٠٥٠ .
(١٠٣٥) – المقريزي : المصدر نفسه - ج١ ص١٠٤٦ .
(١٠٣٦) – إبراهيم : المرجع السابق - ص١٥٩ .
(١٠٣٧) – عاشور : مصر والشام - ص١٣٣ .
(١٠٣٨) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص٨٧ .

تيار التخصص الجارف اليوم خطراً يعرقل تقدم التربية الحديثة، وتهديداً للبشرية بالتمزق بالنسبة لأولئك الذين يحيطون بالطفل لأنه يحول دون التعرف على الصورة الحقيقية للطفل " . [١٠٣٩]

الشروط والمهمات التي تقع على المدرس :

اشترط كثير من الواقفين صفات خاصة يجب أن تتوافر في المدرسين على اختلاف تخصصاتهم ومنها :

١- أن يكون من أهل العلم والصلاح .

٢- حسن الهيئة والمظهر لما لذلك من تأثير في شخصية المدرس في نظر طلبته .

٣- أن يكون عالماً بالمذهب ، حافظاً لنقول الفقهاء ، وأقاويل العلماء ، واختلاف المذهب.[١٠٤٠]

٤- أن يحسن إلقاء الدرس وتفهيمه للحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل يدربهم ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق .

٥- عليه أن يدخل الطلاب في مشكلات الفقه ويخوض بهم عبابه الزاخر .

٦- معرفة أنواع متعددة من العلوم ، كالتفسير والحديث وغيرهما ، وذلك استعداداً للأجوبة عن الاعتراضات التي لعلَّها تعترضه . [١٠٤١]

٧- أن يحمل عن آباء الصبيان مؤونة تأديبهم ، ويُبصِّرهم استقامة أحوالهم ، وما يُنَمّي لهم في الخير أفهامهم ، ويبعد عن الشر ما لهم ، وهذه عناية لا يكثر المتطوعون بها.

٨- لا يجوز للمدرس أن يشتغل عن الصبيان إلا أن يكونوا في وقت لا يعرضهم فيه لضياع وقتهم . [١٠٤٢]

٩- إذا مرض أو كان عليه شغل ، فهو يستأجر لهم من يكون فيهم بمثل كفايته لهم ، إذا لم تطل مدة ذلك.[١٠٤٣]

١٠- عليه أن يقوم بإظهار السنن ، وإخماد البدع ، ويقوم لله في أمور الدين وما فيه من مصالح المسلمين على الطريق المشروع .

١١- أن يحافظ على القيام بشعائر الإسلام ، وظواهر الأحكام كإقامة الصلوات في مساجد الجماعات ، وإفشاء السلام للخواص والعوام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصبر على الأذى، صادعاً بالحق عند السلاطين باذلاً نفسه لله ، لا يخاف فيه لومة لائم.

١٢- أن يلزم نفسه الخوف والحزن والإنكسار والصمت ، ويظهر الخشية على هيئته وكسوته ، لا ينظر إليه ناظر إلاّ يكون نظره مذكراً له بالله . وتكون صورته دليلاً على علمه .

[١٠٣٩] – (ميديسي) : أنجيلا (التربية الحديثة) ترجمة : محمد سليمان – دار الفكر العربي – القاهرة – ١٩٦٤ ص١٦ .

[١٠٤٠] – أمين : تاريخ الأوقاف في مصر – ج١ ص٣١٠ .

[١٠٤١] – السبكي : معيد النعم - ص٨٣ – ٨٥ .

[١٠٤٢] – (القابسي) : علي (الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين) تح : أحمد خالد – الشركة التونسية – ط١ – تونس– ١٩٨٦ - ص٩٨ ، ١٤١ .

[١٠٤٣] – القابسي : المصدر نفسه - ص١٤٢ .

١٣- تطهير نفسه من الخبائث الباطنة ، ومن مساوئ الأخلاق ، ومذموم الأوصاف كالحسد والرياء والإعجاب واحتقار الناس والغل والبغي والغضب لغير الله والغش ، إلى غير ذلك من تعدد أوصاف خبائث النفس .

١٤- أن يكون منقبضاً عن السلاطين والأمراء وأبناء الدنيا ، لا يدخل إليهم صيانة للعلم كما صانه علماء السلف . (١٠٤٤)

١٥- التفاعل مع علمه ، وعدم زجر السائل مهما كان السؤال وأن يصبر على سوء أدبه .

١٦- أن يمتحن أذهان الطلاب عن طريق الأسئلة ، وأن يضرب الأمثلة ويصوّر المعاني لترسخ في الأذهان .

١٧- عليه التبشير مرة والتخويف مرة أخرى . (١٠٤٥)

١٨- لا يذكر الدرس وبه ما يزعجه ، كمرض أو جوع أو مدافعة الحدث أو شدة فرح وغم .

١٩- لا يطوّل مجلسه تطويلاً يملهم ، أو يمنعهم فهم بعض الدروس أو ضبطه ، لأن المقصود إفادتهم وضبطهم ، فإذا صار إلى هذه الحالة فاته المقصود .

٢٠- أن يكون مجلسه واسعاً ، ولا يرفع صوته زيادة على الحاجة ، ولا يخفضه خفضاً يمنع بعضهم كمال فهمه . (١٠٤٦)

وعلى الرغم من المكانة العلمية التي وصل إليها المدرس في العصر المملوكي ، لم يخل الأمر من وجود بعض الذين كانوا يتطفلون على مهنة التدريس – وهم ليسوا أهلاً لذلك – وربما كان ذلك في المدارس الخاصة، مما جعل بعض العلماء الكبار يتصدون لهم ، فأفتوا بعدم أهليتهم لممارسة مهنة التدريس .

ومن ذلك ما استنكره تاج الدين السبكي حيث قال : " من أقبح المنكرات مدرس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب ، ويجلس يلقيها ثم ينهض ، فهذا إن كان لا يقدر إلاّ على هذا القدر فهو غير صالح للتدريس ، ولا يحل له تناول معلومة وقد عطل الجهة ، لأنه لا معلوم لها . وينبغي ألا يستحق الفقهاء المنزلون معلوماً ، لأن مدرستهم شاغرة عن مدرس ، وإن كان يقدر على أكثر منه ، ولكنه يسهّل ويتأوّل فهو أيضاً قبيح ، فإن هذا يدفع العوام إلى رَوم هذه المناصب ، فقل أن يوجد عامي لا يقدر على حفظ سطرين ، ولو أن أهل العلم صانعوه ، وأعطى المدرس منهم التدريس حقّه ، فجلس وألقى جملة صالحة من العلم ، وتكلّم عليها كلام محقق عارض ، وسأل وسُئِل ، واعترض وأجاب ، وأطال وأطاب ، بحيث إذا حضره أحد العوام أو المبتدئين أو المتوسطين فهم من نفسه القصور عن الإتيان بمثل ما أتى به ، وعرف أن العادة أنه لا يكون مدرس إلاّ هكذا والشرع كذلك لم تطمح نفسه في هذه المرتبة ، ولم تطمح

(١٠٤٤) – (العلموي) : عبد الباسط (المعيد في أدب المفيد والمستفيد) تح : أحمد عبيد – المكتبة العربية – ط١ – دمشق – دون تاريخ - ص٢٦-٣٢ .

(١٠٤٥) – (أحمد) : محمد (العلم فضله – طلبه من آداب العالم والمتعلم) – دار المطبوعات الحديثة – ط١ – جدة – ١٩٨٧ . ص١٢٧-١٢٨ .

(١٠٤٦) – (النووي) : يحيى بن شرف (آداب العالم والمتعلم والمفتي – والمستفتي وفضل طالب العلم) مكتبة الصحابة – مصر – ط١ – بدون تاريخ - ص٣٤-٣٧ .

العوام بأخذ وظائف العلماء . فإذا رأينا العلماء يتوسعون في الدروس ولا يعطونها حقها، ويعطلون كثيراً من أيام العمالة ، وإذا حضروا اقتصروا على مسألة أو مسألتين من غير تحقيق ولا تفهم ، ثم رأيناهم يقلقون من تسلّط من لا يصلح على المدارس ، ويعيبون الزمان وأولياء الأمور ، فالرأي أن يقال لهم : أنتم السبب في ذلك بما صنعتم ، فالجناية منكم عليكم " . (١٠٤٧)

وهكذا نستطيع أن نرى كيف قوّم السبكي بمنظوره الخاص المادة العلمية لدى بعض المدرسين في زمانه، وطريقة عرضها ، وتوصيلها إلى التلاميذ كما أننا وجدناه يوجه اللوم لأولئك الذين لديهم الكفاءة العلمية ولكنهم لا يخلصون في أداء عملهم كما ينبغي ، ونراه يقرر أن هؤلاء وأولئك لا يستحقون مرتباً لهذا الإهمال .

ثم ذهب ليحّمل المدرسين المؤهلين مسؤولية تسرب مثل أولئك الذين لا يصلحون للمهنة وتسلطهم على المدارس ، وبذلك نرى كيف دافع السبكي عن قدسية مهنة التدريس .

كما أنه هناك بعض العلماء والمؤرخين خاطبوا الضمير الإنساني ، ورّوضوا النفس على الاستجابة له ، لكي لا يتصدى للتدريس إلاّ من وجد في نفسه المقدرة العلمية الكافية للقيام بذلك . ومن هؤلاء العلماء كان الماوردي الذي قال : " ... وأما جلوس العلماء والفقهاء في الجوامع والمساجد والتصدي للتدريس والفتيا ، فعلى كل واحد منهم زاجر من نفسه أن لا يتصدى لما ليس له بأهل ، فيضّل به المستهدي ، ويزل به المسترشد " . (١٠٤٨)

ونرى بعضهم الآخر يطالب المحتسب أن يقوم بمراقبة الذين يتصدون للتعليم وهم غير أهل له ، " فلا يمكّن أحداً ممن يتصدى لهذا الفن ، إلاّ من اشتهر بين الناس بالدين والخير والفضيلة ، وأن يكون من العلماء".(١٠٤٩)

ونتيجة لهذا النقد وغيره للمدرسين المتطاولين على مهنة التدريس نجد أنه طرأت وظهرت قيود وضوابط لم تكن موجودة من قبل وبالأخص بعد أن تطورت فكرة الإجازة وتحوّلت إلى شهادة علمية . وهذا ما أوضحه القلقشندي قائلاً : " فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدّرس ويكتب له بذلك " . (١٠٥٠)

ومن كلام القلقشندي نعرف أن تعيين المدرسين لا يتم قبل حصولهم على الإجازة بالتدريس ، وهو ما يشابه الشروط الموضوعة لاختيار المدرسين وتعيينهم في عصرنا الحالي.

أما عن المستوى المعيشي للمدرسين فقد اختلف من فئة إلى أخرى ، فقد ذُكِرَ أن المدرسين المعينين من قبل الدولة كانوا يتناولون مرتبات شهرية منتظمة من الخزانة العامة للدولة ، أما المدرسون الذين كانوا يعينون من قبل أصحاب الأوقاف بنص مكتوب فقد كانوا يأخذون مرتباتهم من إيرادات

(١٠٤٧) – السبكي : معيد النعم - ص٨٣ – ٨٤ .

(١٠٤٨) – (الماوردي) : علي بن محمد (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) – مكتبة مصطفى البابي – ط٢ – القاهرة – ١٩٦٦– ص١٨٨ .

(١٠٤٩) – ابن الأخوة : معالم القربة - ص٢٧١ .

(١٠٥٠) – القلقشندي : صبح الأعشى - ج١٤ - ص٣٢٢ .

الأوقاف ، وكانت هذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرّس من جهة ، وريع الوقف من جهة ثانية ، ولكنها على العموم كانت كما ذُكر تميل إلى السخاء والجود .

أما المدرسون الذين كانوا يجرون عقوداً مع الطلاّب أو مع أوليائهم ، فإن مرتباتهم كانت تتأثر بمستوى هؤلاء الطلاّب المادي والخلقي ، فإذا كان ولي الأمر ميسوراً وكريماً ، فإنه كان يغدق على المدرّس ، وإذا كان شرهاً وشحيحاً فإنه كان يقلل من المرتب الذي يمنحه للمدّرس أياً كان مركزه العلمي[١٠٥١] . وكان يضاعف من قيمة مرتبات بعض المدرسين ما يتلقونه من وظائف أخرى بالإضافة إلى وظيفة التدريس . فنرى بعضهم قد جمع بين وظائف القضاء ونظر الجيوش ومشيخة إحدى المدارس . [١٠٥٢]

ونرى البعض قد جمع بين التدريس في مدرستين ، وكان السبب في جمع المدرس لأكثر من وظيفة يعود إمّا لشهرة المدرّس أو ندرة تخصصه ، أو لجشع بعض المدرسين ، واستئثارهم بأكبر عدد من الوظائف ، وكان ذلك قد حدث فعلاً [١٠٥٣] . ونرى أنه ربما يعود تعدد الوظائف لأسباب سياسية .

وبذلك نستطيع القول بأن الوضع المالي للمدرسين كان جيداً ، فقد تمتعوا بمركز مالي جيد . في حين أننا نرى في عصرنا الحالي أن المدرس هو من أفقر أصحاب المهن في أكثر بلاد العالم .

أما الألقاب التي عرف بها المدرسون في العصر المملوكي فهي : الشيخ ، المدرس ، الأستاذ ، الفقيه ، المحدّث ، المقرئ . وهي الألقاب الشائعة تقريباً في حق المدرسين ، ولكن أكثرها شيوعاً هو لقب " الشيخ ".[١٠٥٤]

الشروط المطلوبة لتعيين المدّرس :

١- مراعاة الانتساب للمذهب الفقهي ، للمدرسة التي سيدّرس بها .

٢- **مراعاة السن :** وقد تتطلب بعض المدارس أو بعض الواقفين حدوداً معينة للسن والنضج، ومع هذا رأينا من يدرس وهو صغير السن (وإن كانوا قلة) ولكن الأكثرية هم من الناضجين سناً وعلماً ، لأن التدريس ليس بالأمر السهل ليتصدى له من ليس أهلاً لذلك ، فهو يتطلب معرفة في المادة التي يدرسها ، وخبرات هي نتيجة ممارسة للعملية التربوية لفترة طويلة من الزمن لتكسبه المهارة في التعليم ، ولذلك لجأ بعضهم إلى وظيفة الإعادة قبل أن ينتقل للتدريس، فهي أشبه بفترة تدريب أو حالة من حالات الانتظار لشغور وظيفة التدريس .

٣- **التخصص في مادة التعليم :** اشترط فيمن يتولى التدريس مواصفات ينبغي أن تتوفر فيه ، وفي مقدمتها الديانة والورع والتقوى والتخصص في المادة التي يدرسها ، فعندما بنى الأمير سيف الدين شيخو العمري خانقاه شيخو سنة (٧٧٥ هـ / ١٣٥٦ م) اشترط في شيخها أن يكون " عارفاً بالتفسير والأصول " . [١٠٥٥]

(١٠٥١) ــ شمسياني : مدارس دمشق في العصر الأيوبي - ص٤٤-٤٥ .
(١٠٥٢) ــ الصيرفي : نزهة النفوس - ج١ ص٤٥٠ .
(١٠٥٣) ــ الصيرفي : المصدر نفسه ــ ج٢ ص٢٣٥ .
(١٠٥٤) ــ النباهين : نظام التربية الإسلامية - ص٣٠٤ .
(١٠٥٥) ــ السيوطي : حسن المحاضرة - ج٢ ص٢٦٦ .

٤- **العزوبية** : اشترط على المدرس أن يكون عازباً غير متزوج ، حتى لا تزداد مشاغله عن التدريس " فقد شرط على المقيم بالمدرسة البادرائية بدمشق العزوبية وأن لا يكون الفقيه في غيرها من المدارس ، وإنما أراد بذلك توفير خاطر الفقيه ، وجمعه في طلب العلم " . [١٠٥٦]

٥- **العروبة** : حيث اشترط بدر الدين الخروبي في المدرسة الخروبية أن لا يلي فيها أحد من العجم وظيفة من الوظائف ، فقال في كل وظيفة فيها يكون العرب دون العجم .[١٠٥٧]

٦- **عدم الجمع في التعليم بين أكثر من مدرسة** : حيث " سئل ابن تيمية رحمه الله وقف مدرسة شرط من يكون له بها وظيفته ألا يشتغل بوظيفة أخرى بغير مدرسة " [١٠٥٨] وربما هذا كان مؤشراً على أن هذا الشرط قد يكون وارداً في لوائح المدرسة الداخلية. ومع ذلك فقد جمع بعض المدرسين التدريس بين مدرستين كما ذكرنا سابقاً .

٧- **أسلوب الاستنابة** : الاستنابة أحد الأساليب للوصول إلى منصب التدريس والتي أتاحت لكثير من الشيوخ المعلمين فرصة الحصول على وظيفة تدريسية دون أن يدخلوا في منازعات وانتزاعات ، ودون مزيد انتظار لتصدر بشأنهم قرارات تعيين في وظائف مستقلة ، ودون أن يتعرضوا لتحمل أعباء التصور بشكل شخصي وقد لا يحصلون منه على أجور مادية مجزية .

والاستنابة قرار حر للمدرس يتخذه بإسناد وظيفة التدريس التي يشغلها إلى من يراه أهلاً للقيام بهذه المهمة سواء أكان من ذريته أم أقاربه ، أم من معارفه ، وقد تطول فترة الاستنابة قائمة ، ولم يصدر المستناب ما يدل على قصور أو تقصير من جهته . [١٠٥٩]

وقد تكون الاستنابة جزئية للمعاونة في وظيفة واحدة . أو ربما تكون لأكثر من واحد في الوظيفة الواحدة . فالقاضي جمال الدين الحرستاني (ت٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) كان يدرس بدمشق وعمره ٩٢ سنة ، ويقوم بالقضاء ، فأناب بالمدرسة المجاهدية ابنه ثم عزل واستناب شمس الدين الشيرازي (ت ٦٣٥ هـ/١٢٣٣ م) ، وشمس الدين بن سني الدولة (ت٦٣٥هـ/ ١٢٣٣ م) ، وشرف الدين الحنفي ، وتعين لكل واحد منهم مكان في المدرسة . [١٠٦٠]

وهناك الاستنابة المستمرة لبعض الشيوخ : قد تعلو المكانة العلمية لبعض الشيوخ ويكون من أصحاب الكفاءات ومع هذا فإنهم لا يتمكنون من الحصول على الوظيفة إلاّ بالاستنابة فهذا " محمد بن عبد الله الصرخدي (ت ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م) تفنن حتى صار أجمع أهل دمشق للعلوم ... وكان متقللاً ، لم يتفق له شيء من المناصب إلاّ أنه تصدر بالجامع وناب في عدة مدارس ، وكان شديد التعصب للأشعرية ، كثير المعاداة للحنابلة " . [١٠٦١]

٨- **أسلوب الاحتكار للوظيفة** : أسلوب الاحتكار يعني حبس الوظيفة في إطار خاص لا ينتفع به إلا فرد أو أفراد يستأثرون بالوظيفة دون غيرهم . وهذا يعني احتكار التدريس في ذرية الواقف أو المدرس

(١٠٥٦) – النعيمي : الدارس - ج١ ص٢٠٦ .
(١٠٥٧) – المقريزي : الخطط - ج٢ ص٣٦٩-٣٧٠ .
(١٠٥٨) – (ابن تيمية) : أحمد بن عبد الحليم (الفتاوى الكبرى) دار المعرفة – بيروت – ج١٣ ١٥ .
(١٠٥٩) – (قمبر) : محمود (دراسات في التربية الإسلامية) – دار الثقافة – ط١ – الدوحة – ج٢ – ص٢١-٢٧ .
(١٠٦٠) – قمبر : المرجع نفسه – ج٢ - ص١٧٢ .
(١٠٦١) – السيوطي : بغية الوعاة ج١ ص١٥١ .

" فقد بنى عبد الله بن أبي عصرون (٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م) لنفسه مدرستين بدمشق وحلب " . فواقف المدرسة في دمشق كان قد اشترط أن يكون المدرس من " ذريته فإن لم يكن أهلاً استناب ، وهكذا درّس بها ولداه نجم الدين ومحي الدين ، فابنه شهاب الدين ثم سبعة عشر مدرساً جاؤوا من بعده كلهم من ذرية الواقف أو من أقربائه " [١٠٦٢]، وهذا بهاء الدين السبكي الذي قدم نقداً للمدرسين وقدم شروطاً لهم نراه " يبخل بالوظائف على مستحقيها ويخص بها أولاده " . [١٠٦٣]

ومع ذلك وُجِدَت حالات أخرى لأصحاب مدارس واقفين لها اشترطوا احتكار الوظائف في ذريتهم أو ذرية مدرسين مختارين على أن يليها منهم أولو الأهلية وإلاّ خرجت عنهم ، فاشتراط الكفاءة والأهلية أساسي وحافز لتولي الوظيفة . فواقف المدرسة القيمرية بدمشق الأمير ناصر بن الحسين القيمري " فوّض تدريسها إلى علي بن محمد السهروردي (ت٦٧٥هـ / ١٢٧٦ م) وإلى أولي الأهلية من ذريته وهو أبو مدرسها الصلاح " . [١٠٦٤]

وقد وجد من الواقفين من يشترط عدم اشتراك ذريتهم في العمل في المدرسة حيث رأينا في المدرسة الآقبغاوية التي أنشأها علاء الدين آقبغا عبد الواحد الذي قتل سنة (٧٤٤ هـ / ١٣٤٣ م) و " واشترط في كتاب وقفه ألاّ يلي النظر أحد من ذريته " . [١٠٦٥]

وهناك أسلوب الجمع بين عدة مدارس ، مثل تقي الدين بن الصلاح (٦٤٣ هـ / ١٢٤٥م) " فقد انتقل إلى دمشق وتولى تدريس المدرسة الرواحية ودار الحديث بدمشق فوض تدريسها إليه ، ثم تولى تدريس مدرسة ست الشام خاتون بنت أيوب فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث من غير إخلال منها إلاّ لقدر ضروري لابد منه " . [١٠٦٦]

وأضيفت إلى شمس الدين بن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) " مع القضاء نظر الأوقاف والجامع ، والمارستان ، وتدريس سبع مدارس : العادلية ، الناصرية (بالقدس) ، والعذراوية ، والفلكية ، والركنية ، والأقبالية ، والبهنسية (بدمشق) " . [١٠٦٧]

وتفادياً للمشكلات والأعذار التي تحدث نتيجة تدريس الشيوخ العلماء في عدة مدارس ، وبخاصة انعكاساتها على العملية التعليمية في المدارس ، رأينا بعض الواقفين يشترطون أن تتجاور المدارس كالمعظمية والعزيزية في دمشق كما ظهر في كتاب وقفها : " أن مدرسها يكون مدرس المعظمية " [١٠٦٨] ومثل هذا الأمر يسهّل على الشيخ المدرس عمله إذا جمع بين مدرستين متجاورتين . وهناك أسلوب الشراكة في التدريس : حيث يشارك بعضُ المشايخ زملاءَهم في التدريس في مدرسة واحدة ، فهذا محمد بن عبد القادر بن مقلة بن الصايغ (ت ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م) " ولي تدريس الشامية

(١٠٦٢) – قمبر : المرجع السابق ص١٨٤ .
(١٠٦٣) – السيوطي : المصدر السابق ج١ ص١٥٣ .
(١٠٦٤) – بدران : منادمة الأطلال ص١٤١ – ١٤٢ .
(١٠٦٥) – المقريزي : الخطط ج٢ ص٣٨٤ .
(١٠٦٦) – ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٢٤٤ .
(١٠٦٧) – جيدة : المدارس ص٣٥٧ .
(١٠٦٨) – العلموي : مختصر تنبيه الطالب ص٩٦ .

البرائية مشاركاً للقاضي شمس الدين بن المقدسي، ثم اشتغل بها ابن المقدسي وانفصل ابن الصايغ " . (١٠٦٩)

ملابس المدرسين في العصر المملوكي :

ذكر القلقشندي تفاصيل زي القضاة والعلماء منذ عهد الأيوبيين فقال : " أنهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة (١٠٧٠) تلحق سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل فوق الذؤابة الطيلسان الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقاً (جبّة) متسع الأكمام طويلاً ، مفتوحاً من الأمام ، سابلاً على قدميه ، أو يلبس بدل الدلق فرجية من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار ، وليس فيهم من يلبس الحرير ولا من غلب فيهم الحرير، ولباسهم أبيض اللون ، ولا يلبسون الملون إلاّ في بيوتهم " . (١٠٧١)

وكان الاهتمام زائداً بتوحيد الزي للمدرسين لأن المدرس (كما هو اليوم) قدوة ولأن أنظار التلاميذ تتجه له وترنو إليه ، فيجب أن تقع على شيء مستحسن ومحمود ، ونتيجة لذلك فقد اشتهر بعض العلماء بالأناقة وحسن المظهر في ذلك العصر . (١٠٧٢)

٥- الطلاب :

غصت المدارس المملوكية بطلبة العلم على كثرتها ، حيث لم يكن هناك قيد يحد من دخولهم المدارس ، إذ لم تكن هناك شروط خاصة بسن الالتحاق بالمدرسة ، سوى الاستعداد النفسي والعقلي .

وقد برهن الطالب في هذا العصر على حماسة منقطعة النظير في طلب العلم ، وكان قوي العزم والإرادة، فذلّل العقبات التي قامت في طريقه ، وتغلّب على الصعوبات التي اعترضته ، ولم يكن الطريق ممهداً ، ولا الحياة سهلة ، ولكن الطالب لم يكترث بالأشواك ولم يبال بالمخاطر ، وألقى بنفسه إلى هدفه دون تردد أو فتور.

ولابد لنا من التساؤل ما هو الدافع القوي الذي كان يدفع الطلاب للتعلّم ؟ وكيف كانت أوضاع الطلبة في المؤسسات التعليمية ؟ وما هي شروط قبولهم في المدارس ؟ وما هي واجباتهم ؟ وما هو دورهم ؟ وكيف كانوا يعاملون ؟

لقد كان الإسلام دين علم ، وأول آية نزلت على الرسول العربي صلى الله عليه وسلم كانت : ﴿ اقرأ ﴾ (١٠٧٣). ثم نجد الكثير من الآيات القرآنية التي حضّت على العلم ﴿ يرفع الذين آمنوا ، والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (١٠٧٤). ﴿ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (١٠٧٥) . ﴿ وقل ربِّ زدني علماً ﴾ (١٠٧٦) . ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (١٠٧٧) .

(١٠٦٩) ــ السبكي : طبقات الشافعية ج٥ ص٣١ .
(١٠٧٠) ــ الذؤابة : هي طرف العمامة الذي يسترسل بين الكتفين . ماير : الملابس المملوكية ص٩٠ .
(١٠٧١) ــ القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٤١-٤٢ .
(١٠٧٢) ــ شلبي : تاريخ التربية الإسلامية ص٤٧٩ .
(١٠٧٣) ــ سورة العلق : الآية (١) .
(١٠٧٤) ــ سورة المجادلة : الآية (١١) .
(١٠٧٥) ــ سورة الزمر : الآية (٩) .
(١٠٧٦) ــ سورة طه : الآية (١١٤) .
(١٠٧٧)- سورة النحل : الآية (٤٢) .

ومن الأحاديث الشريفة التي تحضّ على العلم وطلبه :

(غدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة) [١٠٧٨]. (من يرد الله به خيراً يفقهه بالدين)[١٠٧٩]. (العلماء ورثة الأنبياء) . (أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد) . (اطلبوا العلم ولو في الصين) [١٠٨٠] .

وقال الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : " يا كميل ، العلم خيرٌ من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق " . [١٠٨١]

يستطيع الإنسان أن يقرر دون تردد ولا هوى أن فرص التعليم في المدارس المملوكية كانت مكفولة للغني والفقير على حدٍ سواء ، والفقر لم يقف عائقاً أما الراغب في العلم أو السعي لارتشاف المعرفة . [١٠٨٢]

وقد طلب من الطلبة أن يكونوا " مستعدين لطلب العلم ، الصالحين للتفهم " وطلب منهم " الحذق والفطنة والذكاء والنباهة والأهلية ، وتلقي ما يفيده شيخهم من الفوائد الجليلة ، ويلقيه من المسائل الخفية ، وفهم الغوامض من ذلك " [١٠٨٣] .

وفي بعض الأحيان تدخل الواقف باختيار طلبة مدرسته على ضوء مقاييس ومعايير وضعها بنفسه ، فقرر من يشاء وصرف من لم يصلح في نظره . [١٠٨٤]

وربما اشترط بعض الواقفين أن يكون طلبة مدرسته من الغرباء : " ويرتب الناظر منهم (أي المعيدين) من الطلبة الحنفية الغرباء ستين نفساً " . [١٠٨٥] وقصد الواقف من هذا هو خدمة الطلبة الذين لم تتيسر لهم فرص الدراسة في بلدانهم .

ولقد لقي الطلاب معاملة خاصة ، ولهم جراية معلومة على قرائهم ، وللأيتام منهم دار (هي شبه ما يسمى بدار الأيتام) ، وكان لهم وقف عظيم ، يتناول منه المعلم أجراً معلوماً وما تبقى كان ينفقه على متطلبات الطلاب من طعام وكساء وغير ذلك .

وشملت هذه الرعاية غالبية الطلبة في البلاد بمختلف أعمارهم ومراحل تعليمهم وهذا ما أشار إليه ابن جبير لدى وصفه لحلقات التعليم في المسجد الأموي بدمشق . [١٠٨٦]

وقد طلب من الطلبة التحلي بعدد من الصفات والتأدب بمجموعة من الآداب ومنها :

١- عدم سؤال المعلم وهو مشغول بغيره أو مشغول بأمر هام وعليه أن يتحين الفرص المناسبة لذلك .

(١٠٧٨) – (مسلم) : ابن الحجاج (صحيح مسلم) تح : خليل شيحار – دار المعرفة – بيروت – ط١٢ –٢٠٠٦ – ج١٣ ص٣١ .
(١٠٧٩)- البخاري : صحيح البخاري ج١ ص٢٨ .
(١٠٨٠) – الغزالي : إحياء علوم الدين ج١ ص٥ .
(١٠٨١) – ابن عبد ربه : العقد الفريد ج١ ص٢٦٥ .
(١٠٨٢) – شلبي : التربية الإسلامية - ص٢٩١ .
(١٠٨٣) – عبد العاطي : التربية الإسلامية - ص٢٣٦ .
(١٠٨٤) – ابن حجر : أنباء الغمر – ج٣ ص٢٠١ .
(١٠٨٥) – إبراهيم : نصان : ص١٤٧ .
(١٠٨٦) – ابن جبير : الرحلة - ص٢١٧ .

٢- التحلي بالحياء ما لم يؤدِّ ذلك إلى تفويت مصلحة أو جلب ضرر .

٣- الجلوس حيث ينتهي به المجلس ، وألا يتخطى الجالسين خوفاً من إيذاء رقابهم ، وعليه أن يملأ الفرج إن وجدت .

٤- ألا يتشاغل في أثناء الدرس بشيء وأن ينصت لكي لا يوغر صدور العلماء ويزهدهم فيه.

٥- الاجتهاد والتشمير والمثابرة في طلب العلم .

٦- عليه الصبر وتحمّل المشقة في طلب العلم .

٧- عدم الإلحاح على العالم وألا يشقّ عليه .

٨- مراجعة الشيخ حتى يفهم . (١٠٨٧)

٩- اجتماع الطلبة في جهة واحدة ليكون نظر الشيخ إليهم جميعاً عند الشرح ، ولا يخص بعضهم في ذلك دون بعض .

١٠- التأدب مع رفقاء المجلس ، والترحيب بالقادم ، والحذر من الحركات المذمومة .

١١- عدم الاستحياء من السؤال ، لما في ذلك من أثر سلبي على التعلّم . (١٠٨٨)

١٢- ينبغي للطالب أن يتواضع للعلم والمعلم فبتواضعه يناله . وعليه النظر إلى معلمه بعين الاحترام ، والاعتقاد بكمال أهليته ورجحانه .

١٣- عدم الدخول إلى المعلم بدون إذن ، وإذا دخلوا جماعة قدّموا أفضلهم وأسنّهم . وأن يدخلوا متطهرين، متنظفين بسواك ، وقص الشوارب والأظافر ، وإزالة الرائحة الكريهة.

١٤- عدم السبق إلى شرح مسألة أو جواب سؤال إلاّ أن يعلم من حال الشيخ إيثار ذلك ، ليستدل به على فضيلة المتعلم . (١٠٨٩)

ونعتقد أن هذه أهم الآداب التي تقع على عاتق الطالب ، وعليه القيام بها في أثناء درسه .

أما عدد المدرسين بالنسبة للطلبة في المدارس فكان يوجد مدرس أو معيد لكل خمسة عشر طالباً ، وهذه النسبة كانت تساعد الشيخ أو المدرس بالوقوف على القدرات العلمية لدى طلابه ومساعدتهم بإزالة كل ما يعترضهم من صعوبات أثناء دراستهم ، والأخذ بيدهم إلى الأفضل .

وكان للطالب حرية اختيار شيخه الذي يود الأخذ عنه ، ولذلك أهمية توقفت على شهرة من أخذ عنهم من الأئمة الذين كانوا يوجدون في المدارس الكبرى ذات الشهرة العظيمة كمدرسة الغزالي في الجامع الأموي ، ودار الحديث النورية ، والمدرسة العادلية الكبرى بدمشق . (١٠٩٠)

ولكن تفاوت عدد الطلاب في المدارس ولم يتساو ، والسبب في ذلك أن الواقف كان يزيد في عدد طلبة المذهب الذي يتبعه هو طبعاً لميوله الشخصية، ويقلل من عدد طلبة المذاهب الأخرى.(١٠٩١)

(١٠٨٧) – أحمد : العلم فضله ص١٧١ – ١٧٧ .

(١٠٨٨) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص١٣٩ – ١٤٤ .

(١٠٨٩) – النووي : آداب العالم - ص٤٥ – ٤٩ .

(١٠٩٠) – (أبو الفضل) : سميحة (المدارس والحركة العلمية في حلب أيام نور الدين محمود) . المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام – دمشق – ٢٠٠١ - ص٦١٠ .

(١٠٩١) - النباهين : نظام التربية الإسلامية - ص٣١٥ .

ولما كانت المؤسسات التعليمية بحاجة إلى دخل ثابت للإنفاق كي يضمن للأئمة والطلبة مستوىً كريماً من العيش ، ولكي يتفرغوا إلى البحث والدراسة والعطاء ، لجأ أرباب البلاد إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف الكبيرة التي أوقفوها عليها كالقرى ، والمزارع ، والطواحين ، والحمامات ، والدكاكين وغير ذلك [١٠٩٢] . وكانت هذه الأوقاف تعدّ الأساس في واردات هذه المؤسسات ، كما كانت الأموال تدفع من خزانة الدولة على شكل رواتب وهبات للطلاب . [١٠٩٣] وقد وجدت دور خاصة للعلم ، فكانت نفقة الطلبة فيها تقع على عاتق أولياء هؤلاء الطلبة. [١٠٩٤]

وقد أطلق على المرتبات الشهرية للطلبة اسم (المعاليم) ، بالإضافة إلى أنه كانت هناك منح سنوية ، مما هيأ للطلاب فرص تلقي العلم ، وتوفير البيئة المادية المناسبة ، والتفرغ الكامل للدراسة .

واختلفت قيمة المرتبات الشهرية لطلبة كل مدرسة باختلاف دخل الوقف المخصص لكل منها ، والجدير ذكره أن المرتبات قد اختلفت بين طلبة أصحاب مذهب وآخر . [١٠٩٥] ، وقد أدى هذا التفاوت في مرتبات طلبة المذاهب إلى تحول الطلبة من مذهب إلى آخر طمعاً بمال إضافي . والدليل على ذلك ما ذكره المقريزي من أن " الأمير يلبغا الناصري ، حدد درساً بجامع ابن طولون سنة (٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م) فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وقرر لكل فقيه من الطلبة في الشهر أربعين درهماً ، وأردب قمح ، فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية " [١٠٩٦] .

وقد تأثرت مرتبات الطلاب بما كانت تصاب به الأوقاف أحياناً من الاعتداء عليها ، وامتداد أيدي السوء إليها في أواخر عصر دولة المماليك بشكل خاص ، مما أدى إلى خلو المدارس أحياناً من المدرسين واقتصارها على المعيدين . [١٠٩٧]

ولابد الإشارة إلى أن بعض وثائق الوقف لم تحدد معلوم كل طالب ، وإنما كانت تصرف مبلغاً لطلبة كل درس ، يقوم المدرّس بصرفها بينهم على حسب درجة الطالب عنده ، بما يكون دافعاً لطلبته على الاجتهاد والمواظبة وحسب سلوكهم في أثناء الدرس ، ولكن بحد أقصى ثلاثين درهماً ، وبحد أدنى عشرة دراهم . [١٠٩٨]

ثانياً - المناهج وأساليب وطرق التعليم :

وصف أحد الباحثين المنهج التعليمي المتبع لدى المدرسين بأنه : " المنهج الذي لا تكون له فلسفة اجتماعية واضحة المعالم ، يستهدف في ضوئها أهدافه ومحتواه ، ويتم في ضوئها تقويمه ، يكون منهجاً فاشلاً ، لا يحقق ما تصبو إليه التربية " [١٠٩٩] . والمقصود بذلك أن المنهج هو ترجمة لأهداف

(١٠٩٢) – ابن جبير : الرحلة - ص٢٢٠ .
(١٠٩٣) – أبو الفضل : المرجع السابق - ص٦١٢ .
(١٠٩٤) – أبو شامة : ذيل الروضتين - ص٣٧ ، ٧٢ .
(١٠٩٥) – النباهين : المرجع السابق - ص٤١٣ .
(١٠٩٦) – المقريزي : السلوك- ج٣ ص١٤٩ .
(١٠٩٧) – علي : دراسات تاريخية – ج١ ص١٥٣ .
(١٠٩٨) – النباهين : المرجع السابق ص٤١٤ .
(١٠٩٩) – (مجاور) : محمد صلاح الدين (المنهج المدرسي وبعض المشكلات التربوية) دار القلم – ط٣ – الكويت – ١٩٩٢ – ص٩٢ .

المجتمع ، ومن خلاله يعبر المجتمع عن فلسفته وأهدافه وأمنياته ، ومن خلاله يتاح للتلاميذ ممارسة القيم والمبادئ المتضمنة في فلسفة المجتمع .

بينما يوضح لنا باحث آخر معنى فلسفة المجتمع بأنها : " ذلك الجزء من الثقافة الذي يتصل بالمبادئ والأهداف والعقائد التي توجّه نشاط كل مواطن ، وتمدّه بالقيم التي ينبغي أن يتخذها مرشداً لسلوكه " . (١١٠٠)

ثم يتابع قائلاً : " ولما كانت المدرسة تشتق فلسفتها التربوية من فلسفة المجتمع الذي توجد فيه ، والذي تعمل جاهدة لتحقيق رسالته ، فعلى المدرسة أن تبني منهجها ، وأن تصوغ طرقها التربوية ، بحيث تؤدي رسالتها في خدمة المجتمع " (١١٠١) .

ومن خلال هذه المعطيات يمكننا مناقشة مناهج التربية في عصر المماليك . فقد كان النظام الإسلامي هو الإطار الفلسفي الشامل الذي يوجّه حياة المجتمع المملوكي ويحكم طريقة حياته ، ومنه نشأت فلسفة التربية واشتقت أهدافها . وعلى هذا الأساس كانت المناهج الدراسية تعالج واقعاً حياً يلامس حياة المجتمع اليومية . فنستطيع القول بأن نظام الحكم والعلاقات الدولية والمعاملات التجارية والاقتصادية وقوانين الأحوال الشخصية والآداب الاجتماعية والسلوك اليومي للأفراد وغير ذلك ... كلها كانت مستمدة من تعاليم الإسلام ، وكانت مناهج التربية في العصر المملوكي بعيدة عن " أساليب الحذف والإضافة والقص واللصق " ، التي تمارس اليوم في معظم الدول النامية ، مما ترتب عليها أفدح الأضرار (١١٠٢) .

وقد كان للعلوم الشرعية بأنواعها من الفقه والحديث وعلوم القرآن وعلوم اللغة و ... المكان الأول في المناهج الدراسية ، وذلك لارتباطها الوثيق بالدين من ناحية وبالدولة وحياة الناس من ناحية أخرى ، وكذلك لأن معرفة الشريعة الإسلامية من أسمى ما تهدف إليه التربية في ذلك الوقت ، باعتبار أن الإسلام كان هو الإيديولوجية المهيمنة على المجتمع .

ونتيجة لذلك ينظر بعض الباحثين المعاصرين إلى أن العلوم الشرعية الإسلامية هي دراسات دينية محضة لا علاقة لها بشؤون الدنيا ، ولا رابط بينها وبين العلوم الوضعية وأحوال المادة ، وربما ألصقت الشبهة بوحي من الثقافة الغربية التي فصلت بين الدين والدنيا فصلاً يكاد يكون تاماً .

ولكن واقع الحال يؤكد أن معرفة العلوم الإسلامية تحتم دراسة كثير من العلوم العقلية كالرياضيات بفروعها ، فالمعاملات مثلاً وهي باب من أبواب الفقه ، تستخدم كما قال ابن خلدون " الحساب في المبيعات والمشتروات والمزكوات و سائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات ، يصرف في ذلك صناعة الحساب في المجهول والمعلوم والكسر والصحيح والجذور وغيرها " . (١١٠٣)

(١١٠٠) – (الدمرداش ، كيال) : سرحان ، منير (المناهج) . مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – ١٩٧١ – ص٧٥ .

(١١٠١) – دمرداش ، كيال : المرجع السابق - ص٧٥ .

(١١٠٢) – (كاظم) : أحمد خيري (أسلوب النظم وتطوير مناهج التعليم) – مقالة في صحيفة المكتبات – القاهرة – العدد الثالث – ١٩٧١ - ص٢٣ .

(١١٠٣) – ابن خلدون : المقدمة ص٣٥٨ .

وهكذا – كما هو واضح – لا غنى عن دراسة العلوم الكونية ، بل إن الشريعة الإسلامية تحتم دراستها لأن الحياة لا تستقيم إلاّ بها . حيث تنوعت المناهج الدراسية في المؤسسات التربوية المملوكية حسب المراحل التعليمية ، وقد عُرفت مرحلتان تعليميتان في العصر المملوكي هما :

آ- <u>مرحلة التعليم الابتدائي :</u>

وفيها يتلقى التلاميذ في سن مبكرة في المكاتب أو في المساجد أو في أي مكان يحدده منشئ المؤسسة التعليمية ، وتنتهي هذه المدرسة عند سن البلوغ .

أما بالنسبة لمناهج هذه المرحلة ، فقد كانت موروثة عن العصور السابقة وخاصة الأيوبي، والعامل المشترك بينها جميعاً هو تعليم القرآن الكريم وحفظه ، وتعاليم الإسلام وآدابه، والحساب والهجاء والشكل والخط الحسن والقراءة الحسنة والترتيل والشعر ، وفقه الصلاة ، وتعليم الخطابة لمن شاء[١١٠٤] . وقد ذكر ابن الأخوة المناهج نفسها التي كانت مستخدمة في وقته . [١١٠٥]

وفضّل السبكي أن " يتعلم تلاميذ المكتب حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد القرآن الكريم " [١١٠٦] . ويبدو أن حفظ القرآن الكريم بالذات لم يكن إلزاماً بالنسبة لتلاميذ بعض المكاتب خلال المرحلة كلها ، ما دام الأمر موكولاً إلى طاقاتهم واحتمالهم وهذا ما أكده ابن عربي " ومنهم – من يؤخر حفظ القرآن ، ويتعلم الفقه والحديث وما شاء الله ، فربما كان إماماً وهو لا يحفظه وما رأيت بعيني إماماً يحفظ القرآن ، ولا رأيت فقيهاً يحفظه ، إلا اثنين ، ذلك لأن المقصود تعليم حدوده لا حروفه " . [١١٠٧]

وكانت وظيفة تعليم الخط تعرف بـ " وظيفة التكتيب " والذي يقوم بالعمل " المكتّب " [١١٠٨]. ولهذه الوظيفة أهمية تربوية كبيرة تدلنا عليها الاهتمام بالخط العربي كلون من ألوان التربية الجمالية يحسّ الأطفال بقيمتها الفنية فيألفونها ويقبلون على تعلمه .

ونظراً لأهمية هذه الوظيفة كان ينال المكتِّب (إجازة) في الخط ، تسمح له بتدريس الأنواع المختلفة من الأقلام للطلبة في المدارس فضلاً عن تلاميذ المكاتب وغيرهم ممن يرغب في ذلك في الموضع الذي يحدده له الناظر [١١٠٩]. وقد استفاض القلقشندي كثيراً في الحديث عن موضوع الخط وأدواته . [١١١٠]

ب – <u>مرحلة التعليم العالي :</u>

وهي مرحلة متداخلة بين مستويين هما المرحلة الثانوية ، والمرحلة الجامعية في مصطلحاتنا الحديثة لمراحل التعليم ، ولا يستطيع أحد أن يميز بينهما إلاّ من داخل العملية التعليمية ذاتها ، وذلك لأن المكان الذي يتلقى فيه الطلبة علومهم يشمل جميع أفراد المجموعة، ويقوم بالتدريس لهم مدرس واحد ، يعرف مستوياتهم ويمكنه أن يميز بينها .

(١١٠٤) – (ابن سحنون) : محمد (آداب المعلمين) : دار الكتب الشرقية – تونس – ١٩٧٢ – ص١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٠.
(١١٠٥) – ابن الأخوة : معالم القربة - ص١٣٠ .
(١١٠٦) – السبكي : معيد النعم - ص١٠١ .
(١١٠٧) – ابن سحنون : المصدر السابق - ص١٤٠ .
(١١٠٨) – إبراهيم : دراسات تاريخية - ج٢ ص٥٥ .
(١١٠٩) – إبراهيم : المرجع نفسه - ج٢ ص٥٥ .
(١١١٠) – القلقشندي : صبح الأعشى - ج٢ ص٤٤٠-٤٨٨ ، ج٣ ص٢٢٢ .

أما بالنسبة لمناهج التعليم في هذه المرحلة ، فقد كانت تحدد من قبل الواقفين الذين يقومون بإنشاء المدارس ، كذلك فإنهم عينوا الأساتذة لتدريس تلك المواد ، وتركوا الحرية أحياناً للمدرسين في اختيار الكتب الدراسية التي تحقق أهداف المنهج . [١١١١] وأحياناً أخرى حدد الواقفون كتباً معينة لتدريسها في مدارسهم ، ومثال ذلك ما جاء في وثيقة السلطان برسباي : " .... أن يكون المدرّس قادراً على إلقاء الدروس على الطلبة من (الكشاف) للزمخشري في التفسير ومن (المفتاح) للسكاكي في البلاغة ، ومن (الهداية) في فقه مذهب الإمام أبي حنيفة ، ومن (البردوي) في أصول الفقه " . [١١١٢]

كما أكدت وثائق السلطان حسن على مدرس الحديث أن يقوم بالتدريس من كتب الحديث المعتمدة ، ومن كتب الرقائق . ونصت وثيقة السلطان المؤيد على ترتيب اثنين من مدرسي الحديث وأن يختص أحدهما بتدريس كتاب (معاني الآثار) للطحاوي . [١١١٣]

ومما يلفت الانتباه أن وثائق أوقاف المدارس المملوكية قليلاً ما نصت على مناهج اللغة العربية ، أو تعرضت لتفصيلاتها . وغير واضح ما إذا كان ذلك من قبيل التسليم بضرورة تدريسها بدون نص عليها ، أم أن الأساس في الوقف هو علم الشريعة الإسلامية ، لاعتقاد الواقف أنها الهدف الأسمى من الوقف ، لجلب رضا الله والتقرب إليه ؟.

ومن الجدير بالذكر أن أغلب المصادر المملوكية أشارت إلى المدارس الموقوفة ، بينما تقل التفصيلات عن المدارس الخاصة أو حلقات العلم التي كان يعقدها العلماء في مجالسهم الخاصة ، والتي تتناول الموضوعات العقلية كالرياضيات والطبيعة وعلم الهيئة والفلسفة والمنطق وغيرها . [١١١٤]

وكان التحاق الطالب بالحلقات العلمية الخاصة أو ملازمة الشيوخ أمراً ميسراً ، ولا يتطلب الأمر غير ذهاب الطالب إلى الشيخ الذي يريد أن يجلس إليه ، " وكانت حرية مكفولة للطالب في التنقل بين من يشاء من الأساتذة ، دون قيد ولا شرط ، كما كان له مطلق الحرية في اختيار ما يشاء من مواد الدراسة ، والإعراض عما لا تميل إليه نفسه منها " [١١١٥]

وبناء على ما سبق يتضح أن أهم المواد التي كانت تدرس في المرحلة العالية كانت :

١- العلوم الشرعية .

٢- علوم اللغة العربية .

٣- العلوم العقلية (الطب – الحساب – الجبر – الهندسة – الهيئة – الميقات – الطبيعيات).

وقد انفرد ابن جماعة بذكر علم ومنهج دراسي لم نجده عند غيره ألا وهو التربية الرياضية ، فأشار إليها صراحة بقوله : " ولا بأس بأن يريح طالب العالم نفسه وقلبه وذهنه وبصره ، إذا كلّ شي من ذلك

(١١١١) - المقريزي : السلوك - ج١ ص١٠٤٠ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٦ .

(١١١٢) – إبراهيم : نصان من وثيقة الأمير صرغتمش - ص١٤٧-١٤٩ .

(١١١٣) – أمين : تاريخ الأوقاف في مصر - ج١ ص٣١٢ .

(١١١٤) – النباهين : نظام التربية الإسلامية - ص٣٥١ .

(١١١٥) – (غنيمة) : محمد عبد الرحيم (مقدمة لتاريخ التعليم الجامعي في الإسلام) رسالة ماجستير غير منشورة – كلية الآداب - قسم التاريخ – جامعة القاهرة – ١٩٥٣ - ص١٨٠ .

أو ضعف ، بتنزه وتفريج في المستنزهات بحيث يعود إلى حاله ولا يضيع زمانه ، ولابأس بمعاناة المشي ورياضة البدن به ، فقد قيل إنه ينعش الحرارة ، ويذيب فضول الأخلاط ، وينشّط البدن " . (١١١٦)

ثالثاً - طرق التدريس :

تعد طريقة التدريس هي العامل الثاني في حصول التعليم إلى جانب المنهج . وقد أولى المدرسون في العصر المملوكي طرق التدريس عناية خاصة كعنايتهم بالمناهج التي تضمن وصول المعلومات إلى أذهان التلاميذ بوسائل تؤدي إلى تحقيق الهدف من ذلك المنهج ، فقد تعددت أساليب التدريس وتنوعت ، بتعدد العلوم التي سادت العصر المملوكي ، فإن لكل مرحلة تعليمية طرقها الخاصة .

وقد أوصى ابن جماعة المدرسين باتباع التوجيهات التالية في أثناء العملية الدرسية وهي بمثابة توجيهات تربوية نجملها فيما يلي :

١- أن يرغّب في العلم وطلبه في أكثر الأوقات بتذكيرهم بالفضل والكرامات التي أعدّها الله لهم ، وأنهم ورثة الأنبياء وعلى منابر من نور . (١١١٧)

٢- يجب إعطاء الطلاب معلومات تتناسب مع قدراتهم ، وذلك بألا " يلقى للطالب ما لا يتأهل له ، لأن ذلك يبدد ذهنه " وأن يحرص على تعليمه وفهمه ببذل جهده ، وتقريب المعنى له ، من غير إكثار لا يحتمله ذهنه أو بسط لا يضبطه حفظه ، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة ، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره . (١١١٨)

٣- عليه استخدام الوسائل المعُينة على التدريس بقدر إمكانه ، وذلك بأن " يبدأ المدرس بتصوير المسائل ثم يوضحها بالأمثلة ، وذكر الدلائل ، ويقتصر على تصوير المسألة وتمثيلها لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها ، ويذكر الأدلة والمأخذ لمحتملها ، ويبين له ما يتعلق بتلك المسألة من فرع وأصل ، وعلل وأحكام " . (١١١٩)

في حين حدد أحد الباحثين ثلاثة أبعاد أساسية لتحقيق الأهداف المرجوة من الاختيار الناجح لطريقة التدريس هي :

١- **البعد الأول** : يتعلّق بالمدرس ذاته وبإمكانياته من حيث استطاعته تطبيق وتنفيذ الطريقة التي يختارها .

٢- **البعد الثاني** : يتعلق بالطلاّب الذين يدرسهم وهل تناسبهم هذه الطريقة أم لا .

٣- **البعد الثالث** : يتعلّق بالمادة الدراسية التي يقوم المعلم بتدريسها ، فما يصلح في درس الأدب العربي ، قد لا يصلح في درس الرياضيات وهكذا . (١١٢٠)

آ- طرق التدريس في المرحلة الأولى :

(١١١٦) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص٨١ .
(١١١٧) – ابن جماعة : المصدر نفسه - ص٥٥ .
(١١١٨) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص٥٧-٥٨ .
(١١١٩) – ابن جماعة : المصدر نفسه - ص٥٨ .
(١١٢٠) – (مرسي) : محمد عبد العليم (المعلم ومناهج وطرق التدريس) دار عالم الكتب – ط١ – الرياض - ١٩٨٥ - ص١٨٠ .

من خلال الدراسة السابقة عن مناهج التعليم في المرحلة الأولى تبين لنا أنها تتكون بشكل عام من القرآن الكريم ومبادئ الشريعة الإسلامية والهجاء والكتابة ، ومبادئ الحساب والشعر.

أما بالنسبة لطريقة **تدريس القرآن الكريم** ، فكانت على يد المؤدب الذي يعلم الأطفال السور القصار، ووسيلته في ذلك التلقين، وبذلك يحفظ الأطفال ما يلقى على أسماعهم من القرآن الكريم.

وإلى جانب ذلك يتم تعريف الأطفال على الحروف وضبطها بالشكل ، ويتدرج في معرفتها حتى يألفها ، ويستمر في ذلك إلى أن يجيد الكتابة ، وفي مرحلة متقدمة يستطيع الطفل القراءة من المصحف مباشرة .

وقد ذكر الدكتور عبد العاطي أن المؤدبين اتبعوا طريقتين في تعليم الأطفال **القرآن الكريم** وهما :

١- أن يكتب الأطفال فقرات معينة من القرآن الكريم على ألواحهم ويظلّ الطفل يرددها حتى يحفظها ، وبعد ذلك يمسحها ويكتب آيات أخرى .... وهكذا حتى يتم له حفظ القرآن . أما الأطفال الذين يجيدون القراءة فيقرؤون من المصحف مباشرة .

٢- يقوم المؤدب أو العريف بقراءة قدر معين من القرآن الكريم ، ويردد الأطفال خلفه عدة مرات ، حتى يتم لهم الحفظ . وهي ما تعرف بطريقة التكرار والتسميع .

وغالباً ما يقوم الأطفال بعد عودتهم من عطلة نهاية الأسبوع بتسميع ما حفظوه من القرآن الكريم ، ليطمئن المؤدب على تمام حفظه . (١١٢١)

وقدم لنا ابن جبير وصفاً لهذه الطريقة قائلاً : " وتعلم الصبيان للقرآن بهذه البلاد الشرقية كلها إنما هو تلقين ، ويعلمون الخط والأسفار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو " . (١١٢٢)

أما بالنسبة **لتعليم الكتابة** فقد اتبع المؤدبون في المكاتب قواعد وأساليب معينة تتدرج مع نمو الطفل لتعليمه كتابة الحروف وشكلها وضبطها . وقدم لنا النويري وصفاً جميلاً لتعليم المبتدئين الكتابة قائلاً : " وأول ما يبدأ به المؤدب من تعليم الصبي : أن يكتبه حروف المعجم المفردات ، فإذا عملها الصبي وعرف كيف يضعها ، وميّز بين المعجم والمهمل منها ، امتحنه المؤدب بتقطيعها وسؤاله عنها على غير وضعها ، مثل أن يسأله عن النون ثم الجيم والضاد ونحو ذلك ، فإذا أجابه عما فرقه وعكسه عليه ، علم من ذلك أنه أتقن هذه الحروف ، فيهجيه بعد ذلك حرفاً حرفاً ، كل حرف وهجاءه في المنصوب والمجرور والمرفوع ، فإذا عرف هجاء هذه الحروف وأتقنه امتحنه على نحو ما تقدم جمع له بعد ذلك كل حرف إلى آخر كتابه من الباء والجيم والدال والراء والسين والصاد والطاء والعين والفاء والكاف واللام والميم ، يبدأ بالياء مع الألف وما بعدها ثم يُكَتبه البسملة ، ويأخذ في تدريجه في الكتابة ، وتدريبه في استخراج الحروف بالهجاء وما يتولد منها إذا اجتمعت ، إلى أن يقوى فيها لسانه ويده ، ويقرأ ما يكتب له ، ويكتب ما يقترح عليه من غير منبه له ولا مساعد " (١١٢٣) . وبعد أن ينتهي الطالب من هذه

(١١٢١) – عبد العاطي : التعليم في مصر - ص٨٢ / أبو الفضل : المدارس والحركة العلمية - ص٦٠٩ .
(١١٢٢) – ابن جبير : الرحلة - ص٢١٨ .
(١١٢٣) – النويري : نهاية الأرب - ج٩ ص٢١٨-٢١٩ .

المرحلة ، ينتقل الطالب إلى مرحلة ثانية يثبت فيها مهارته العملية بالكتابة على الألواح ، حيث قال السبكي عنها " يُمكّن المؤدب كتابة القرآن في اللوح وحمله " . [١١٢٤]

ولم يكتفِ المؤدب باستخدام القرآن الكريم في التدريب على الكتابة ، بل استخدمت الأمثال وأبيات الشعر، كنماذج للتدريب على الكتابة . [١١٢٥] أما المادة الأساسية للكتابة عليها فكانت الألواح ، التي يكتب عليها الطلاب ما يملى عليهم . [١١٢٦]

أما المهارات والقدرات التي يكسبها الطالب من خلال تعلّم الكتابة فقد أوجزها أحد الباحثين بما يلي :

١- المقدرة على التعبير عمّا يريد قوله بطريقة واضحة ، سواء في خطاب شخصي ، أو في تدوين نص.

٢- القدرة على التعبير الذاتي ، واستخدام الكتاب ، وغير ذلك من أبواب الثقافة التي تفتح على مصراعيها للفرد . [١١٢٧]

وقد كانت الكتابة (الخط العربي) مادة أساسية تدرس للطلاب ، وكان المؤدب يقوم بتدريسها ، وأحياناً يعهد بذلك إلى المكتّب . [١١٢٨]

وفيما يتعلق **بتدريس الشعر** : فإنه وللأسف لم تشر المصادر المملوكية إلى الطريقة المتبعة في ذلك . وعلى الأرجح أنها لم تختلف عما هو متّبع في عصرنا الحالي ، حيث يتم اختيار الأشعار السهلة في العبارة واللغة ، القصيرة الأبيات ، الخفيفة الوزن كي يسهل حفظها وفهمها ، ويراعى في اختيارها ، ما قيل في مدح الأخلاق النبيلة ، وذم الرذيلة كمدح الكرم وذم البخل والحث على حب الوالدين والوطن . [١١٢٩]

ولكن مما لفت انتباهنا ما ذكره السبكي في أثناء حديثه عن وظيفة (المنشد) فقد وضع شروطاً لنوعية الشعر المتداول . بحيث " يذكر من الأشعار ما هو واضح اللفظ ، صحيح المعنى ، مشتمل على مدائح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ذكر الله تعالى وآلائه وعظمته وخشيته مقته ، وذكر الموت وما بعده ، وكل ذلك حسن" [١١٣٠] . بالإضافة إلى ذلك حذر ابن الأخوة من تعليم الصبيان الشعر الماجن . [١١٣١]

أما **تدريس الحساب** : فكذلك الأمر أغفلت المصادر المملوكية ذكر الطريقة التي يتم فيها تدريس الحساب وتفصيلاتها .

(١١٢٤) – السبكي : معيد النعم - ص١٣٣ .
(١١٢٥) – النباهين : نظام التربية الإسلامية - ص٣٦٤ .
(١١٢٦) – ابن الحاج : المدخل - ج٢ ص٣١٧ .
(١١٢٧) – (دوترتز) : روبرت (منهج الدراسة الابتدائية) ترجمة : يوسف بدوي – دار الفكر العربي – القاهرة – ط٢ – ١٩٦٥ – ص٢٩٨ ، ٣٠٥ .
(١١٢٨) – إبراهيم : نصان من وثيقة الأمير صرغتمش ص١٧٤ .
(١١٢٩) – النباهين : نظام التربية الإسلامية - ص٣٦٥ .
(١١٣٠) – السبكي : معيد النعم - ص٨٦ .
(١١٣١) – ابن الأخوة : معالم القربة - ص٢٦٢ .

ولكن ابن خلدون الذي عاش خلال العصر المملوكي ذكر أن : " الحساب صناعة عملية في حساب الأعداد ، بالضم والتفريق . فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع ، وبالتضعيف بأن تضاعف عدداً بآحاد عدد آخر وهذا هو الضرب ، والتفريق أيضاً يكون في الأعداد ، إما بالأفراد ، مثل إزالة عدد من عدد ، ومعرفة الباقي ، وهو الطرح ، أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة له ، وهو القسمة ، سواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر ، وكذلك يكون بالضم والتفريق في الجذور ، ..... وهذه الصناعة حادثة احتيج إليها للحساب في المعاملات وألّف الناس فيها كثيراً ، وتداولوها في الأمصار ، بالتعليم للولدان " . (١١٣٢)

وبناءً على ذلك فإن وسيلة تعليم عمليات الحساب الأربع للأطفال كانت على نمط ما شرحه لمعنى الجمع والطرح والقسمة والضرب .

ب – طرق التدريس في المراحل العالية :

إن الطرائق والأساليب التي استعملتها التربية الإسلامية " في عمليات التدريس والدعوة ، والإقناع والإرشاد والتوجيه متعددة ومتنوعة ، تختلف باختلاف أغراض التعليم وباختلاف العلوم والمواد الدراسية ، وباختلاف الدروس والموضوعات ، وباختلاف مرحلة النمو والدراسة للمتعلم ، وباختلاف غرض المعلم من تدريسه ، ومقدار معلوماته وخبراته السابقة .

فالتدريس للحفظ غير التدريس للفهم ، أو لتنمية المثل والإتجاهات والأذواق والإهتمامات وطرائق التدريس للعلوم النقلية واللغوية غير تدريس العلوم الطبيعية والفنون العملية " . (١١٣٣)

بما أن التلقين والحفظ ، هما الطريقتان اللتان اتبعتا في المرحلة الأولى ، فإن المحاضرة، والسماع والإملاء ، والقراءة والعرض ، والمناظرة والحوار ، كانت أهم طرق التدريس في المرحلة العالية .

وسنفصل في هذه الطرائق :

١ – طريقة المحاضرة :

تسمى هذه الطريقة الإلقائية " والتي يكون فيها صوت المدرس هو المسموع أكثر من غيرها عندما يلقي الحقائق أو يسردها، وإن المدرس كالمحامي لا يمكنه أن يستغني عن لسانه، فهو أول الوسائل التي يمكن بها توضيح ما غمض . وهو الطريق السهل للاتصال الشخصي بالتلميذ ، ويمتاز الإلقاء الجيد بتأثير المدرس نفسه من حيث حركاته وصوته ، وهذا يسترعي انتباه الصغار وكذلك الكبار . وتساعد هذه الطريقة المعلم بحيث يتناول الدرس فلا يتقيد بحرفية كتاب مما يمكنه أن يطيل أو يختصر أو يصف " . (١١٣٤)

ويذكر أحد الباحثين أن المعلمين طوروا هذه الطريقة بحيث " كان يقوم مقام السائل فيلقي على طلابه بضعة أسئلة ليختبر فهمهم ثم يجيب بنفسه على ما تعسر أن يجيبوا عنه ، وهو بهذه يعطي

(١١٣٢) – ابن خلدون : المقدمة ص٤٥٥-٤٥٦ .

(١١٣٣) – (الشيباني) : عمر محمد (فلسفة التربية الإسلامية) المنشأة العامة – ط٥ – طرابلس – ليبيا – ١٩٨٦ . ص٤٠٧ .

(١١٣٤) – عبد العزيز : التربية وطرق التدريس - ج١ ص٢٥٤ .

فرصة للطلاب المحدودي المواهب أن ينتفعوا بما تستدعيه هذه الأسئلة من إعادة للموضوع وزيادة بسط لمسائله " . [١١٣٥]

٢- طريقة السماع :

وتعتمد هذه الطريقة على نقل المؤلفات العلمية عن طريق رواية عن صاحبها بالسماع منه ، ولم يكن التقيد ضرورة من ضرورات السماع وإن كان عملاً مستحسناً لصيانة العلم من آفات الذاكرة . [١١٣٦] فابن عساكر (ت ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م) " قد خَلَفَ أباه في إسماع الحديث بالجامع ، وولي بعده دار الحديث النورية " . [١١٣٧]

ورأى الماوردي أن السماع كثيراً ما يؤدي إلى الملل أو التشتيت الذهني لذلك قال : " كل علم كثر على المستمع ولم يطاوله الفهم ازداد به القلب عمى " . [١١٣٨]

٣- طريقة المناظرة والحوار :

كثيراً ما كانت تقام مناظرات علمية ولاسيّما بين الأئمة في مواضيع علمية متعددة يحضرها كبار الأئمة وأعيان الدولة والطلبة [١١٣٩] ، الأمر الذي ساهم في إغناء الحركة الفكرية ودفعها قدماً إلى الأمام .

(١١٣٥) – شلبي : التربية الإسلامية - ص٣٧٧ .
(١١٣٦) – الشيباني : فاسفة التربية - ص٤٢١ .
(١١٣٧) – النعيمي : الدارس ج١ ص١٠٣ .
(١١٣٨) – (الماوردي): علي بن محمد (أدب الدنيا والدين) ضبطه وعلّق عليه : عبد الله العتم – المكتبة العصرية – ط١ – بيروت – ٢٠٠٦ - ص٩٠.
(١١٣٩) – الذهبي : العبر ج٥ ص٤٩-٥٠ ، ٩٣-٩٤ / ابن كثير : البداية والنهاية ج٣ ص٧٧ / النعيمي : الدارس- ج١ ص٤٣١ – ٤٣٣ / ابن العماد : المصدر السابق ج٥ ص٥٣ – ٥٨ .

وهذه الطريقة تقوم على أساس النقاش بطرح الأسئلة وتلقي الأجوبة للوصول إلى حقيقة من الحقائق لا تحتمل الشك أو النقد ولا الجدل [١١٤٠] ، ومن خلال المناظرة والمحاورة نرى المناظر (المحاور) يمر بثلاث مراحل متتابعة هي :

١- مرحلة اليقين : ولا أساس لها من الصحة ، وهي مرحلة يراد بها إظهار جهل الخصم وغروره وإدعائه العلم .

٢- مرحلة الشك : وهنا تتوالى الأسئلة والإجابة عنها حتى يتروى المتكلم ويقع في حيرة لا مخلّص منها، ويبدو التناقض في عبراته ، فيأخذه الغضب وهنا يقابل المحاور كل كلام من هذا النوع بالصبر الجميل .

٣- مرحلة اليقين بعد الشك : وهي مرحلة يقصد بها البحث من جديد في الموضوع ومعرفة الأمثلة التي توضح الحقيقة وتميّزها عن غيرها ، وملاحظة ما بينها من أوجه الشبه وأوجه الخلاف ، والوصول إلى تعريف منطقي جامع لا يجد الشك إليه سبيلاً . وهذه المرحلة تقوم على أساس الإدراك العقلي لا على أساس التصديق . [١١٤١]

وإن المراجع لكتب التراجم يرى اهتماماً بأولئك العلماء المناظرين حيث أطلقت عليهم مواصفات معينة تشير إلى طول باعٍ لهم في هذا الميدان : " فقد جالس محي الدين بن النحاس (ت ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م) العلماء وناظر وبان فضله ... وكان صدراً معظماً متبحراً في المذاهب وغوامضها موصوفاً

(١١٤٠) ــ جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص٣٣٥ .
(١١٤١) ــ عبد العزيز : التربية وطرق التدريس - ج١ ص٢٥١ .

بالذكاء وحسن المناظرة " . [١١٤٢] وكذلك ظهر شمس الدين الخولي (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م) [١١٤٣] ولعل طريقة المناظرة والجدل لها في الأصول مكانة بارزة ، ونرى الأمثلة في القرآن الكريم ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ . [١١٤٤]

٤- طريقة الأسئلة :

وهذه طريقة قديمة قدم التربية ، ولا تزال هذه الطريقة منتشرة بين صفوف المتعلمين حتى وقتنا الحاضر، وتعد هذه الطريقة أداة إنعاش لذاكرة المتعلم ولجعله أكثر فهماً ، ولرفعه إلى مستوىً عالٍ من التعليم .

وفي التربية الإسلامية ظواهر متعددة ، من إثارة التساؤلات سواء كانت من جهة المعلم أو المتعلم ، وحتى على شكل أسئلة بين العلماء أنفسهم ، تعطي الدرس حيوية ونشاطاً وفاعلية ، وبخاصة إذا صيغت الأسئلة بشكل تربوي وضمن أهداف محددة واضحة . [١١٤٥]

هذه الطرائق في التدريس التي استخدمها العلماء المربون المسلمون في العصور الإسلامية ، وخاصة العصر المملوكي ، ما هي إلا نتاج عصرها ، تتلاءم مع طبيعة العلوم التي كانت تدرس آنذاك ، وإذا نظرنا إليها بمنظار عصرها نرى مدى إيجابيتها وتلبيتها لحاجات المتعلم آنذاك ، وهي طرائق أعطت ثمارها علماء كان لهم الباع الطويل كلٌ في ميدان اختصاصه وفي جميع العلوم . مما حقق الأهداف المرجوة ومما خدم الطالب والمدرّس والمادة على اختلافها كيف لا وقد بدا كل هذا على الأجيال الماضية تفوقاً وتقدماً .

رابعاً - المعاقبة والمكافأة :

يعد العقاب والمكافأة على صلة وثيقة بطريقة التدريس ، ولهما تأثير في الطلاب سواء كان إيجابياً أم سلبياً . فالمكافأة تزيد الجهد والانتباه والاجتهاد في أثناء الدرس ، بينما قد يكون العقاب عاملاً في تشتيت الانتباه ، وزرع الخوف في نفوس الطلاب ، وكان لكلتا الحالتين انعكاساتهما السلبية والإيجابية على العملية التربوية .

لذلك كان لابد لنا من التطرق إلى هذا الموضوع ودوره في العملية التعليمية في عصر المماليك :

آ- المكافأة :

تعددت وتنوعت أشكال المكافآت التي نالها الطلاب خلال العصر المملوكي ، فوجدت المكافآت المادية والمعنوية . لذلك فإن التوجيهات التربوية من قبل المعلم تقضي " بأن يعتني بمصالح تلاميذه

(١١٤٢) – النعيمي : الدارس - ج٢ ص٢٢٥ .
(١١٤٣) – أبو شامة : ذيل الروضتين ص١٤٨ / ابن كثير : البداية والنهاية - ج٣ ص١٥٥ / ابن قاضي شهبة : طبقات الشافعية – ج٢ - ص٤٥ / ابن العماد : الشذرات - ج٧ ص١٨٣ .
(١١٤٤) – سورة الكهف : الآية (٥٤) .
(١١٤٥) – جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص٣٣٦ .

ويعاملهم بما يعامل به أعزّ أولاده من الحنان والرأفة بهم ، والإحسان إليهم ، والصبر على متاعبهم " لأن شفقة المعلم على طلابه ، وإحساسهم بالاحترام من قبل معلمهم يدفعهم لبذل الجهد المستمر .

وقد أخذ واقفو المكاتب والمدارس على عاتقهم توفير جميع متطلبات العملية التربوية للطلاب ، بالإضافة إلى المكافآت التشجيعية سواء أكانت يومية أو شهرية .

وكانت تصرف مكافآت مالية تشجيعية للطلبة الذين يتقنون حفظ القرآن في أثناء وجودهم بالمكتب ، بالإضافة إلى الملابس والحلوى التي توزع عليهم في المناسبات المختلفة . (١١٤٦)

وكان الطالب الذي يختم القرآن ، تمد له الأسمطة ، وتفرّق الحلوى ، (١١٤٧) وتزين له أرض المكتب ، وحيطانه وسقفه بالحرير ، ويُركّب الطالب على فرس مزّين ، ويحملون أمامه الأطياف المليئة بالثياب ، ويسيرون بالطالب من مكتبه إلى منزله، وعندها يقوم الشيخ ويعطي اللوح لأم الطالب، فتعطيه ما تقدره عليه من مال.(١١٤٨)

ومن ذلك نستطيع القول بأن مظاهر الاحتفال والتكريم المعنوية بتلميذ المكتب بالإضافة إلى المكافآت المادية كانت من باب التشجيع والتحفيز للطالب لكي يقبل على دروسه بحماس ورغبة ، ولابد أنه كان لهذا التكريم نتائج إيجابية على الطالب المكرّم وغيره من أقرانه ، وأنها دفعتهم للاجتهاد .

ب- المعاقبة :

إذا كانت المكافأة حافزاً للاجتهاد ، فإن بعض الباحثين رأى : " أنه لابد من العقوبة على أن تبدأ بالإنذار فالتوبيخ فالتشهير فالضرب الخفيف ... " .

ورأى بعضهم : " أن الوقاية خير من العلاج ، فنصح ببذل كل جهد ، لتأديب الأطفال وتقويمهم منذ الصغر حتى يشبوا على حميد الخصال ، وبذلك تنعدم الحاجة إلى العقاب ". (١١٤٩)

وبيّن لنا مؤرخنا ابن خلدون الذي عاش في العصر المملوكي أن استخدام الشدة مع المتعلمين مضرة بهم، حيث أكد أن : " إرهاق الجسد في التعليم مضر بالأطفال خاصة والمتعلمين عامة ، لأن من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين ذهب نشاط نفسه ، ودعاه ذلك إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث والتظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك . وربما صارت له هذه عادة وخلقاً ، فتفسد معاني الإنسانية عنده وتكسل نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل " . (١١٥٠)

بينما نجد ابن الأخوة قد أوجب العقاب البدني ولكنه حدد موجباته وذلك بناءً : " على إساءة الأدب والفحش من الكلام وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع " وكذلك حدد وسيلة العقاب بأنه يجب ألا :

(١١٤٦) – عبد العاطي : التعليم في مصر - ص٩٦-٩٧ .

(١١٤٧) – إبراهيم : نصان من وثيقة الأمير صرغتمش ص١٥٣ .

(١١٤٨) – (عاشور) : سعيد عبد الفتاح (المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك) – دار النهضة العربية – القاهرة – ١٩٦٢ ص١٥٢ .

(١١٤٩) – عبد الدايم : الرق في مصر - ص١٩٣ .

(١١٥٠) – ابن خلدون : المقدمة - ص٥٠٨ .

" يضرب بعصا غليظة تكسر العظم ، ولا رقيقة لا تؤلم الجسم بل تكون وسطاً . ويتخذ مجلداً عريض السير ، ويعتمد بضربه على الألايات والأفخاذ وأسافل الرجلين ، لأن هذه المواضع لا يخشى منها مرض ولا غائلة ". (١١٥١)

ومن خلال كلام ابن الأخوة نستطيع أن نؤكد أن العقاب الجسدي كان موجوداً ، وله أدوات ، وكذلك حددت مواضع العقاب من البدن ولكن هذا العقاب لم يكن التصرف فيه متروكاً للمعلم ، بل نجد أن العالم ابن حجر الهيتمي يصدر فتوى تحدد أن العقاب يجب ألا ينفذ في أي مكتب من المكاتب إلا بعد إذن الأب أو الجد أو ولي الأمر أو الأم . فإن حصل المعلم على الإذن جاز له الضرب على كل خلق سيء صدر من الطفل ، وعلى كل ما فيه إصلاح للولد ، بما في ذلك إهماله واجباته المدرسية . وكذلك أوضح بأن العقاب يجب أن يكون مناسباً لفعل الصبي . وحذّر من الضرب على الرأس أو الوجه ، وكذلك حذر من الضرب في أثناء الغضب . وحدد عدد الضربات بعشر .

أما عن أداة الضرب فقال عنها يجب " أن تكون معتدلة الحجم ، فتكون من القضيب والعصا ، وأن تكون معتدلة الرطوبة ، فلا تكون رطبة فتشق الجلد لثقلها ، ولا شديدة اليبوسة فلا تؤلم لخفتها " . (١١٥٢)

وأفاد ابن الحاج بتقديم نصيحة للمعلمين بأن العقوبة يجب أن تتدرج مع طبيعة الطفل ونوع المشكلة ، ورأى أن نظرة عابسة إلى الطفل قد تكون كافية لزجره وإصلاحه ، بينما قد يحتاج طفل آخر إلى استعمال التوبيخ والتأنيب في عقوبته . (١١٥٣)

وبذلك نرى أنه على المدرس عدم اللجوء إلى استخدام العصا إلاّ في حالة اليأس من نجاح طريقة الإصلاح باللين والشفقة . وكذلك فإن مجمل الآراء التي تطرقنا إليها نجدها لا تخرج عن إطار التربية الإسلامية .

الساعات والعطلات الرسمية :

أما عن عدد ساعات التدريس التي كان يتلقاها الطلبة كل يوم وعن العلوم التي كانت تدرس قال ابن كثير في وفيات سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) : " وفيها مات شيخ الإسلام محي الدين أبو زكريا الشافعي النووي ، وكان يقرأ كل يوم اثنى عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً ، درسين في الوسيط ، ودرساً في المهذب، ودرساً في الجمع بين الصحيحين ، ودرساً في صحيح مسلم ، ودرساً في اللمع لابن جني ، ودرساً في المنطق لابن السكيت ، ودرساً في التصريف ، ودرساً في أصول الفقه ،

(١١٥١) – ابن الأخوة : معالم القربة - ص٢٦١ .
(١١٥٢) – (ابن حجر الهيتمي) : أحمد بن محمد (تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال) تح : سليمان عطية – مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة – ١٩٧٨ ص٦٢-٦٤ .
(١١٥٣) – ابن الحاج : المدخل - ج٢ ص١٦٤ .

تارة في اللمع لأبي اسحق ، وتارة في المنتخب لفخر الدين ، ودرساً في أسماء الرجال ، ودرساً في أصول الدين " . [١١٥٤]

ومن هذا يتضح لنا أن الطالب كان يتلقى كل يوم دروساً في الفقه والحديث واللغة وآدابها والمنطق وأسماء الرجال .

وتختلف مواعيد الدراسة بين كل مرحلة من مراحل التعليم على الرغم من أن اليوم المدرسي يبدأ من طلوع الشمس إلى آذان العصر " [١١٥٥] . وكان على المدرس أن يختار الوقت المناسب حسب إمكانيات المكان ، وحسب ظروفه خلال اليوم الدراسي ، على أن تقتصر ساعات الدراسة الفعلية على ثلاث ساعات ، دون تحديد ما إذا كان ذلك في الصباح أو بعد الظهر ، فالأمر – على ما يبدو – متروك للمدرّس ، ويمكن للمدرس أن يزيد وقت الدرس حسب احتياجاته [١١٥٦] . وبذلك نستنتج أن مواعيد الدراسة مرهونة بظروف المدرسين ، وتوفر عليهم مشقة التقيد بفترة واحدة ، ويمكن أن تسبب إزعاجاً لبعض المدرسين وخاصة لأولئك الذين يعملون في أكثر من مدرسة .

أما بالنسبة للعطلات السنوية فلكل مدرسة مدة محددة فبعض هذه المدارس كانت تعطّل في شهر شعبان ورمضان وعشر شوّال وعشر ذي الحجة وأيام الأعياد والتشريق ويوم التاسع والعاشر من المحرم من كل سنة. [١١٥٧]

وفي بعض آخر زادت مدة العطلة لتشمل شهر رجب وشعبان ورمضان وعشرين يوماً من شوال وخمسة عشر يوماً من أول ذي الحجة ، بالإضافة إلى يوم التاسع والعاشر من المحرم.[١١٥٨]

ولكن نتساءل هنا ألم تكن هناك عطل غير هذه كان يسمح للطلبة والمدرسين من خلالها التغيب عن المدرسة ؟

في الواقع أنه كانت هناك عطل عارضة كان يسمح من خلالها للطلاب والمدرسين بالتغيب عن المدرسة ، مع الاحتفاظ بمرتباتهم طوال مدة غيابهم ، ولكن هذه المدة كانت ثلاثة أيام في كل شهر ، على أن تكون متفرقة ، ومن غاب أكثر من هذه المدة قطع عنه معلومه النقدي والعيني . ومن أكثر من الغياب بغير عذر شرعي قطع من وظيفته .

وقد وقفت بعض المدارس بحزم ضد ظاهرة التغيب عن الدوام لمدة سبعة أيام متوالية دون عذر شرعي ، فعندها يحق للناظر فصله ، وتعيين غيره في مكانه . [١١٥٩]

وقد عرف نظام التعليم في العصر المملوكي ما هو معروف في عصرنا بالإجازات المرضية ، ومن تغيب بعذر مرضي عن وظيفته ، أخذ ما قرر له من جراية إلى حين شفائه أو موته . كذلك سمحت

(١١٥٤) – ابن كثير : البداية والنهاية - ج١٤ ص٢٧٨-٢٧٩ / ابن العماد : الشذرات ج٨ ص٣٥٤-٢٥٦ .
(١١٥٥) - أمين : الأوقاف - ج١ ص٣١٨ .
(١١٥٦) – النباهين : المرجع السابق ص٤٠٧ .
(١١٥٧) – أمين : المرجع السابق – ص٣٢٠ .
(١١٥٨) – عبد العاطي : التعليم في مصر - ص٢٤٧ .
(١١٥٩) – عبد العاطي : التعليم في مصر - ص٢٤٨-٢٤٩ .

المدارس المملوكية لموظفيها بأداء فريضة الحج ، وزيارة الأرحام ، وزيارة الأهل ، ومدة الغياب المسموح بها في هذه الحالة كانت ثلاثة أشهر يأخذ الموظف خلالها أجره إلى حين عودته . [١١٦٠]

من خلال هذا ندرك أن نظام العطلات قد تم تحديده بدقة ، وكذلك حددت الإجازات العرضية ، والعطلات المرضية والدينية ، ونظام الإجازة بمرتب أو بغير مرتب – كما هو في عصرنا اليوم – الأمر الذي يدل على الدقة والوعي من قبل المشرفين على العملية التعليمية ، والحرص الكبير الذي أبدوه لضمان حسن سير العملية التعليمية بمدارسهم .

النظام الداخلي في مدارس نيابة دمشق المملوكية :

عرف المسلمون النظام الداخلي في دور العلم منذ عصر مبكر . فمنذ أن شيّد الأزهر منذ أكثر من ألف عام . استقبل هذا الصرح العلمي العظيم أفواج الطلاّب من بلدان العالم الإسلامي كله . وكان كثير من هؤلاء يلازمون الإقامة فيه [١١٦١] . وذكر المقريزي : " أن عدتهم في سنة ثمان عشرة وثمانمائة للهجرة بلغت سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم ومن ريف مصر ومن مشارقه ومغاربه " . [١١٦٢]

أما عن دمشق التي هي موضوع بحثنا فقد أجمعت المصادر على أن الداخلية كانت تعد مرفقاً هاماً من مرافق مدارسها ، وتعد المدرسة النورية الكبرى التي أوردنا عنها دراسة مفصلة نموذجاً صادقاً لمدارس دمشق وللنظام الداخلي فيها .

وكان للطالب في القسم الداخلي آداب فصّلها ابن جماعة حيث أبدى اهتماماً بهذا المجتمع الذي قام في المدرسة، ولهذا رأى أن تخصص الداخلية للطلاّب الذين عرفوا بحسن أخلاقهم وسماحتها حتى يكونوا في الداخلية متوادين متحابين . كما رأى أن تكون الداخلية المخصصة للفتيات في أمكنة منعزلة لا يكثر أن يمر بها الرجال على أبوابها أولها كوى تشرف على ساحة المدرسة . ووضع شروطاً للطلاب الذين يقيمون في الداخلية فطلب منهم :

١- على طلبة البيوت العليا تخفيف المشي عليها .

٢- تخفيف وضع ما يثقل كي لا يؤذي من تحته . [١١٦٣]

٣- عدم الجلوس أو الوقوف على باب المدرسة أو في صحنها ، وتقليل الدخول والخروج ما أمكنهم .

٤- الابتعاد عن الأعمال التي تسبب الأذى للطلاب الساكنين وكذلك تجنب العادات القبيحة.

٥- إكرام الطلبة القاطنين بإفشاء السلام فيما بينهم ، وإظهار الاحترام والمودة ومراعاة حق الجيرة والصحبة والأخوة في الدين لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه . [١١٦٤]

وقد حصر الواقف سكن المدرسة على المرتبين بها دون غيرهم ، وكان السكن في منازل المدارس ورباطها للذين يجري عليهم إدرار من أوقاف المدرسة . [١١٦٥]

(١١٦٠) – النباهين : نظام التربية الإسلامية - ص٤٠٨-٤٠٩ .
(١١٦١) – شلبي : التربية الإسلامية - ص٣٨٢ .
(١١٦٢) – المقريزي : الخطط - ج٢ ص٢٧٦-٢٧٧ .
(١١٦٣) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص٢٢٩-٢٣٠ .
(١١٦٤) – ابن جماعة : تذكرة السامع - ص٢٢١ .

ووصف ابن بطوطة الذي زار دمشق هذه المنازل وما يحدث فيها من إكرام الناس لطلابها الساكنين فيها فقال : " ومن عوائدهم بالطعام أن يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين كل واحد ما يشتهيه من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسان خبزه ومرقه في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان في اليوم ، ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ، ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى العشرين ، ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة والصابون لغسيل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام ، والزيت للاستصباح وهؤلاء هم أعزاب ، أما المتزوجون فلهم زوايا خاصة بهم ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزوايا " . [١١٦٦]

ولابد من الإشارة إلى أن فرصة الفوز بسكن مدرسي لم يكن بالأمر السهل ، حيث وضع واقفو المدارس قواعد معينة ، تحكم نظام المدارس ، كأن يكون الطالب أعزب أو متزوجاً ، وعدد الأيام المسموح فيها بالمبيت خارج المدرسة إلى غير ذلك من الأنظمة .

أما إذا أراد أحد الساكنين بالمدرسة الزواج فكان يسمح له بترك مسكنه بها ليحل محله أحد العزّاب ، كذلك لا يسمح لأحد الساكنين أن يجمع بين سكنين ، وكذلك كان يسمح للمدرسين بالإقامة مع عائلاتهم في مساكن المدرسة . [١١٦٧]

ومن خلال ذلك نرى أن جميع هذه الشروط وكذلك الآداب الواجبة على الطلاب الساكنين، يقصد منها الصالح العام ، ولا تناقض شيئاً من التعاليم الدينية والأخلاقية ، وليست قيوداً كما رأى فيها أحد الباحثين [١١٦٨] ، لأن التربية الحديثة ليست هي المقياس الذي نقيس عليه الأنظمة التربوية الأخرى ، إذ لكل عصر نظمه وتقاليده التربوية .

الشهادات والإجازات العلمية :

كان المشتغلون بالعلوم في العصر المملوكي يحرصون – في بدايات عمرهم – على الحصول على ما يمكن تسميته اليوم بالشهادات التي تثبت كفاءاتهم . وقد عُرفت الإجازة كشهادة علمية في تاريخ التربية الإسلامية منذ أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، ويبدو أن علماء الحديث أول من بدأ منح الإجازة لرواية الحديث ، ثم أصبحت فيما بعد شاملة لمعظم العلوم ، كالفقه والقراءات والنحو والأدب والطب إلى غير ذلك من العلوم.[١١٦٩]

وينظر أحد الباحثين إلى الإجازة العلمية على أنها شهادة شخصية يمنحها أحد أعلام العلماء لأحد طلابه ، ويشهد فيها أن الطالب المذكور قرأ عليه كتاب " كذا " قراءة فهم وتدبّر ومعرفة، أو أنه مَهَرَ في الفقه مثلاً ، وأصبح أهلاً للفتيا ، وأنه أجازه بها ، أي صرّح له بمزاولتها ، أو أنه بَرع في الأدب ، وأصبح كفئاً لرواية كتاب فيه أو ديوان ، أو أنه سمع عنه جملة من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ورواها بسندها ، وحفظها بهذا السند ، وأنه أجاز له روايتها عنه باعتباره حافظاً جديداً من

(١١٦٥) – ابن جماعة : المصدر نفسه ص٢١٠ .
(١١٦٦) – ابن بطوطة : الرحلة - ج١ ص٢٣-٢٤ .
(١١٦٧) – النباهين : نظام التربية الإسلامية - ص٣١٩ .
(١١٦٨) – عبد العاطي : التعليم في مصر - ص٢٥٦ .
(١١٦٩) – شلبي : التربية الإسلامية - ص٢٦٨ .

حفّاظها [١١٧٠] . ولم يكن باستطاعة أي عالم أن يجيزها إلاّ أن يكون عالماً بما يجيزه ، معروفاً بذلك ، ثقة في دينه وروايته ، وأن يكون المستجيز (الطالب) ، من أهل العلم ، حتى لا يوضع العلم إلاّ عند أهله . [١١٧١]

والهدف من الإجازة بأنواعها كان ضبط الرواية ، وضمان نشر الحقائق العلمية سليمة غير مشوّهة أو مزيفة . وكانت المادة العلمية غرضها الأساسي ، إلاّ أنه في العصر المملوكي أصبح لها غرض جديد هو الترخيص " للمهنة العلمية " أو الوظيفة " كالفتيا ، والتدريس ، والقضاء ، والتطبب ... " . وهذا النوع من الإجازات يشبه كثيراً الشهادات العلمية الحديثة.[١١٧٢]

كان الغالب على أسلوب الإجازات في أول الأمر الإيجاز في العبارة ، والبساطة في التعبير . وغالباً ما كانت تكتب الإجازة على الكتب المجاز بها . والمراجع للمخطوطات العربية القديمة يلاحظ أنها تحمل إجازات من مؤلفيها أو رواتها مكتوبة عليها ، غير أنهم أخذوا في العصر المملوكي بصفة خاصة يتفننون في أساليب كتابتها ، ويعنون بتزويق عباراتها ، والإطالة والإسهاب منها [١١٧٣] . أما بالنسبة لأنواع الإجازات فكانت :

١- الإجازة بالسماعات :

ومفردها (سماع) ، وهي أن يكتب الشيخ في آخر كتاب أسماء الذين سمعوا عليه الكتاب ، والمواضيع التي فاتت على الطالب ، يعبّر عنها بقوله " مع فوت " . [١١٧٤]

وتكتب هذه السماعات عادة على كتاب الشيخ ، أو كتاب الطالب نفسه ، وهو الأرجح ، وهي أبسط الشهادات العلمية ، ولا تعني شيئاً للطالب ، كما أنها لا ترفع من منزلته العلمية ، فهي تعني حضور الطالب لا أكثر [١١٧٥]، وقد حصل ابن بطوطة على سماعات من عشرات العلماء بدمشق لكتب سمعها عليهم . [١١٧٦]

٢- الإجازة بعراضة الكتب :

وهي أن يحفظ الطالب كتاباً ويقدم نفسه طواعية لشيخه أو لأي شيخ آخر . ويطلب منه إجراء امتحان له في هذا الكتاب [١١٧٧] ، كأن يكون كتاباً في الفقه أو النحو أو غير ذلك من الفنون ، فيقطع الشيخ المعروض عليه من ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبواباً ومواضيع يستقرئه إياها من أي مكان اتفق ، فإن مضى فيها من غير توقف أو تلقين ، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه جميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عُرض عليه . [١١٧٨]

(١١٧٠) – سليم رزوق : عصر سلاطين المماليك ج٣ ص٢٩ .
(١١٧١) – (ابن الأنجب) : صائن الدين محمد (مشيخة النعال البغدادي) تح : ناجي معروف بشار معروف – المجمع العلمي العراقي – بغداد – ١٩٧٥ ص٢٣ .
(١١٧٢) – غنيمة : مقدمة لتاريخ التعليم - ص١٤٣ .
(١١٧٣) – غنيمة : المرجع نفسه - ص١٤٥ .
(١١٧٤) – العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانين ص١٩٠ .
(١١٧٥) – جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص٣٩٢ .
(١١٧٦) – ابن بطوطة : الرحلة - ج١ ص٦٦ .
(١١٧٧) – جيدة : المدارس ونظام التعليم - ص٣٩٢ .
(١١٧٨) – القلقشندي : المصدر السابق - ج١٤ ص٣٢٧ .

ومن ذلك أنه لما عرض ابن طولون – وهو في الرابعة عشرة – على شيخ الشافعية تقي الدين بن قاضي عجلون كتبه التي تعلمها ، كتب له القاضي المذكور : " عرض عليّ الولد المبارك ، اللبيب الأديب عرضاً حسناً محرراً متقناً ذلك على حفظه لجميع الكتب المذكورة ، أعانه الله على درايتها كما وفقه لروايتها " . [١١٧٩]

٣- الإجازات العامة :

وصورتها أذن لفلان ... أن يدرس مذهب الإمام ... ، وأن يقرأ ما يشاء من الكتب المصنفة فيه ، وأن يفيد ذلك لطلابه ، حيثما أحلّ وأقام ، وكيف شاء ، ومتى شاء ، وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطاً ولفظاً على مقتضى مذهبه الشريف ... لعلمٍ بديانته وأمانته.[١١٨٠]

وقد جرت العادة أن كل عالم يزور دمشق أو القاهرة أو غيرها من المدن الكبيرة يأخذ من علمائها ما يسمى بالإجازة العامة . وواضح أن في هذه الإجازات شيئاً غير قليل من المجاملات لأنه غالباً ما يستوى مقام الشيخ مع طالب الإجازة ، فيعتبره زميلاً له تلميذاً بعكس النوع الأول من الإجازات العامة الذي يعطيه الشيخ لتلميذه ، فقد كان هذا النوع خالياً من المجاملات ، بل إن فيه نصائح لا تقال إلاّ لطالب ، وهي قول الشيخ : " ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم : لا أعلم ... " .

وقد كان يجاز – أحياناً – أولاد دون العاشرة ، مجاملة لآبائهم ، ولذلك كله لم يكن الناس يعولون كثيراً على هذه الدرجات العلمية ، وإنما كانوا يحكمون على الإنسان بقدر ما يتقن من علوم ، لا بمقدار ما يحمله من شهادات . [١١٨١]

إذاً فالإجازة هي شهادة يمنحها الشيخ أو الأستاذ لطالب العلم لتفتح المجال أمامه لينال حقه في التدريس ورواية ما درسه عليه وأتقنه على يديه ، والإجازة قد تكون عامة ينالها الطالب نتيجة السماع المباشر ، أو تكون خاصة من غير سماع ، وقد تكون مستقلة أو مسطرة على الكتاب الذي أتم دراسته على الشيخ .

وإذا أجاز الشيخ أو المدرس إنساناً ومنحه الشهادة بعد الدراسة عليه حضوراً فهو شيخه بالسماع . فالتصريح بنشر ما يقرأ ويسمع يعتبر دليلاً على كفاية الطالب والذي يحصل على الإجازة كما تقول زيغريد هونكه : " يحصل في نفس الوقت على حق التدريس علانية أي إجازة التدريس ، وهكذا نجد حق التأليف والاختراع العربي الذي كان يلازم إنشاء المدارس العليا العربية ينتقل إلى الجامعات الأوروبية ، التي ما زلنا نجدها حتى اليوم في الدرجة اللاهوتية ليسانس اللاهوت ، وربما أيضاً البكالوريا وهي تقابل في العربية (الحق في تفويض رخص بالتدريس أعنى بحق الرواية) " . [١١٨٢]

(١١٧٩) – (ابن طولون) : محمد بن علي (الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون) تح : محمد خير رمضان يوسف – دار ابن حزم – ط١ – بيروت – ١٩٩٦ – ص٢٢ .

(١١٨٠) – القلقشندي : صبح الأعشى - ج١٤ ص٣٢٣ – ٣٢٤ .

(١١٨١) – العلبي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين - ص١٩٢ .

(١١٨٢) – (هونكه) : زيغريد (شمس العرب تسطع على الغرب) شمس العرب تسطع على الغرب – دار المعارف – مصر – ١٩٦٩ – ص٢٧٦ .

ولقد جرت العادة أن تُكتب الإجازات " في قطع عريض ، إما في فرجة الشامي أو نحوها من البلدي ، وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية بين كل سطرين نحو إصبع عريض " [١١٨٣].

ومن خلال الإجازات استطعنا الحصول على معلومات جغرافية وتاريخية عن أمكنة التعليم في العالم الإسلامي ، وعن تلك الرحلات التي كان يقوم بها العلماء والمتعلمون في أنحاء العالم الإسلامي .

وكانت " الإجازة التحريرية المفصلة ، خاصة تلك التي لا تكتب على ظهور الكتب بل تكون مستقلة ، وثائق صحيحة يمكن أن تتخذ بمثابة دليل على ثقافة العلماء الماضين وما قرؤوه أو سمعوه ، أو أجيز لهم ، دون قراءة أو سماع ، من كتب أو معلومات شفهية " . [١١٨٤]

ومن ذلك نذكر إجازة أثير الدين أبي حيان الأندلسي لصلاح الصفدي " قد أجزت لك أيدك الله تعالى لجميع ما رويته عن أشياخي في الأندلس وبلاد إفريقية وديار مصر والشام والحجاز وغير ذلك بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة مشافهة ... وجميع ما أخبرني أن أرويه بالشام والعراق وغير ذلك وجميع ما صنفته واختصرته وجمعته وأنشأته نظماً ونثراً ، وجميع ما سألت في هذا الاستدعاء " . [١١٨٥]

٤- الإجازة الفخرية :

كانت تتخذ الإجازة في بعض الأحيان صفة فخرية ، فتصدر من عالم كبير إلى زميله على سبيل الفخر والاعتزاز ، ويمثل ذلك " بالاستدعاء الذي قدمه العلامة ابن حجر العسقلاني وجماعة من زملائه المصريين إلى العلاّمة الفيلسوف ابن خلدون ليصدر لهم إجازة جماعية ". [١١٨٦]

٥- الإجازة في الطب :

أما الإجازة في الطب فكانت تعطى للطبيب " في فن من فنون الطب ، أو كتاب معين فيه، فيتقدم إلى رئيس الأطباء ويطلب منه إجازته للاشتغال بالطب ، وكانت هذه الإجازة بنفس الطريقة السابقة ، ولكنها تقسم إلى قسمين : إجازة نظرية أو إجازة ممارسة ، أي أنه يمكن أن يجاز الطالب في كتاب معين ، أو في فن معين، لاقرائه أو لتدريسه فقط ، ثم كانت تصدر إجازة أخرى للتصريح لصاحبها بالاشتغال بالطب وممارسته، وربما تشمل الإجازة الواحدة على الإقراء والممارسة معاً " . [١١٨٧]

وهكذا تبين لنا مما سبق أن الإجازات العلمية في عصر دولة المماليك قد أدت دوراً علمياً مهماً في تقويم أشخاص العاملين في حقول العلوم المختلفة لا يقل عن دور الشهادات العلمية اليوم . ووجدنا أن نظام الإجازات هو من التقاليد التعليمية التي يمنحها الشيخ أو الأستاذ لطالبه دون تدخل الدولة ، واعتبرت منظار العلماء من الوسائل السليمة التي يتم عن طريقها نقل مختلف العلوم وخاصة الدينية من جيل إلى جيل . هذا رغم ما وجه إليها من انتقادات وتجريح واستغلال وفوضى .

تدهور أخلاقيات مهنة التعليم وتدني نظرة المجتمع للمعلمين :

(١١٨٣) - القلقشندي : صبح الأعشى - ج١٤ ص٣٢٢ .
(١١٨٤) – (فياض) : عبد الله (الإجازات العلمية عند المسلمين) د . ر . ت . م . ط – ص٤٢ .
(١١٨٥) – (المقري) : أحمد بن محمد (نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) تح : مريم الطويل ، يوسف الطويل – دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى – بيروت – ١٩٩٥ ج٩ ص٣٧٣ .
(١١٨٦) – عبد العاطي : التعليم في مصر - ص٣١٧ – ٣١٨ .
(١١٨٧) – عبد العاطي : المرجع نفسه - ص٣١٧ .

على الرغم من المكانة العالية التي حظي بها المعلمون ، وكذلك قدسية وعظمة مهنة التدريس ، إلا أنه اجتمع العديد من العوامل التي أثرت بشكل مباشر في تدهور مهنة التعليم ، وتدني نظرة المجتمع إلى المعلمين وخاصة معلمي الصغار .

فقد دخل مهنة التعليم أناس ليس لهم الموهبة والكفاءة العلمية اللازمتان للاشتغال بهذه المهنة . إذ ساهم الخلل الاقتصادي وارتفاع مستوى المعيشة إلى جانب تشجيع الحكام ، وانتشار الخلافات المذهبية والمنازعات السياسية ، وزيادة الطلب على التعليم بتقدم العلوم واشتغال المتعلمين بالوظائف الرئيسية والهامة في الدولة ودواوين الحكومة إلى أن أصبح التعليم عملاً شعبياً يحرص عليه الآباء لتعليم الأبناء ، ومن ثم زادت الحاجة إلى معلمين فدخل في المهنة أعداد ضخمة من المعلمين الذين اتخذوها وسيلة لكسب الرزق وأصبحت مهنة من لا مهنة له ، واشتغل بها أناس كانت لهم أوضاع اقتصادية واجتماعية متفاوتة إلى حد كبير .

غير أن تعليم الصغار لم يكن بالنسبة لكثير من المعلمين عملاً مربحاً أو مرموقاً في المجتمع مما اضطرهم إلى اتخاذ أساليب شخصية ذات صفة نفعية تتنافى مع المبادئ الأخلاقية للمهنة ، [١١٨٨] إذ لجأ بعض المعلمين وخاصة معلمي الكّتاتيب إلى قبول الهدايا التي يقدمها التلاميذ وآباؤهم بعضها هدايا عينية كالسمن والدقيق وأرغفة العيش ، وتبين لنا النصوص في كتب التراث مدى تدهور الحالة الاجتماعية المالية ، فقال أحد الشعراء في الحجاج وكان معلم كُتّاب أطلق عليه اسم كليب :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

وكان لتدهور الأحوال المالية لمعلمي الكتاب وقبولهم الهدايا من التلاميذ أن أثّر ذلك في التفرقة في المعاملة التربوية بين أبناء الموسرين الذين يدفعون بكرم وسخاء ، وأبناء الفقراء الذين كان نصيبهم الإهمال والاستخدام والقسوة في العقوبة ، إذ لجأ بعض المعلمين إلى استخدام الصغار الفقراء في أداء مصالح شخصية لهم لا صلة لها بالتعليم . [١١٨٩]

ومن ناحية أخرى فقد أدى تدهور الأحوال المالية لمعلمي الكتاتيب إلى الاشتغال بأعمال خارجية تصرفهم عن أداء مهامهم الأساسية في التعليم ، فكان منهم من يترك الدرس لحضور الشهادة بأجر في مجالس القضاء ، ومن يمشي في الجنائز ويؤدي طقوسها بأجر ، ومن يشهد عقود الزواج ، ويقوم بنسخ المخطوطات ، أو يعمل بتحرير الرسائل ، أو يشتغل بالتجارة .[١١٩٠]

وقد أدى الطمع ببعض المعلمين إلى قبول أعداد متزايدة من الأطفال في المكتب بغية الحصول على أجر وزيادة الدخل مع إهمال التدابير اللازمة لمساعدتهم على التعليم ، ومن سوء السلوك المهني

(١١٨٨) – (قمبر) : محمود (نهضة التعليم في التراث العربي) حلقة دراسية في سلطنة عمان في " إعداد المعلم العربي" – آذار – ١٩٧٩ – ص ٧ .

(١١٨٩) – (فهمي) : أسماء حسن (مبادئ التربية الإسلامية) مطبعة لجنة التأليف والترجمة – القاهرة – ١٩٤٧ – ص٢٣ .

(١١٩٠) – (بروفنسال) : ليفي (ثلاثة رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب) مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية – القاهرة – ١٩٥٥ ص٢٥ .

قيام بعض المعلمين بأساليب دعائية مضادة تسيء إلى سمعة الزملاء الناجحين المخلصين في عملهم وتجريح الآخرين بقصد سحب الأطفال من كتاتيبهم . (١١٩١)

ونظراً لتفشي مثل هذه الانحرافات في أخلاقيات المهنة فقد حاول علماء التربية المسلمون علاج هذه الظاهرة الاجتماعية المرضية في دراساتهم ومؤلفاتهم وشغلت أذهان الكثيرين منهم. فكثر التأليف في أخلاقيات مهنة التعليم وآداب المعلمين والمتعلمين ، وكان أول مرجع علمي كتب بأسلوب منهجي من تأليف ابن سحنون، ثم توالت بعد ذلك مؤلفات المسلمين في هذا الموضوع أمثال القابسي ، والغزالي، وابن عبدون ، وابن جماعة ، والسبكي وغيرهم كثيرون.

ومن ناحية أخرى فرضت الدولة عقوبات مناسبة على مثل هذا السلوك المنحرف ، وأضافت إلى وظيفة المحتسب مسؤوليات أخرى ، فكان من سلطته مراقبة سلوك المعلمين لحملهم على الالتزام بآداب المهنة ، كما كان المحتسب يعاقب أو يحيل إلى القضاء المعلم الذي يتسبب في ضرب مبرح بجسم المتعلم أو يصيب أحد أعضاء جسمه بالتلف (١١٩٢) ، ومع ذلك فلم تكن تكتشف كل الحالات أو يتم ضبطها ، ولم يستطع المحتسب أن يقضي على كل المخالفات والانحرافات المهنية في التعليم بل تزايدت وتحدّت كل سلطة .

وقد ساعدت هذه الانحرافات الخلقية في آداب التعليم على رسم صورة سيئة في أذهان الناس عن معلم الصغار وعظمت فيها المبالغة إلى الدرجة التي أصبح معها معلم الصبيان في موضع الدونية ، وتحت مستوى النضج والاكتمال يضرب به المثل في الحمق ويطرد من مجالس الرجال ويُمنع من أداء الشهادة ويفضل عليه النساء . (١١٩٣)

وقد روى الجاحظ من أمثال العامة قولهم : " أحمق من معلّم كتّاب " وما رواه عن بعض الحكماء أنه قال: " لا تستشيروا معلماً ، ولا راعي غنم ، ولا كثير القعود مع النساء " . (١١٩٤)

وروى ياقوت الحموي في كتابه " معجم الأدباء " أن : الصاحب بن عباد " بلغه أن أبا حيان التوحيدي عاب رسائله ورغّب عن نسخها ، فتوعده الصاحب وهدده فقال أبو حيان : " يتوعدني ... كأني طعنت القرآن... أو عقرت ناقة صالح ، أو سَلَحْت في بئر زمزم ، أو قلت ... كان الصاحب معلم صبيان " . (١١٩٥)

وكذلك فإنه مما يؤسف له أن مشايخ القراءة في عصور التدهور الاقتصادي أصبحوا يمنحون المعلمين إجازاتهم مقابل مبلغ من المال فتدهور التعليم وخاصة بعد أن انخرط في مهنة التعليم نفر من الفاشلين الذين لجؤوا إلى احتراف مهنة التعليم هرباً من الجهاد ونكولاً عن الحرب . (١١٩٦)

(١١٩١) – فهمي : مبادئ التربية الإسلامية - ص١٣٦- ١٣٧ .

(١١٩٢) – G – Lecompte , Lelivrev deconduite des maitres d'ecoles , Annees . 1935 et 1845 , pp80.

(١١٩٣) - (علي) : سعيد إسماعيل (نوادر المعلم) – مجلة الهلال – تشرين الأول – ١٩٤٨ ٢٩ .

(١١٩٤) – الجاحظ : البيان والتبيين ج١ ص١٤٠ .

(١١٩٥) – (الحموي) : شهاب الدين ياقوت (معجم الأدباء) تح : عمر فاروق الطباع – مؤسسة المعارف – ط١ – القاهرة – ١٩٩٩ – ج٥ – ص١١٠ .

(١١٩٦) – بروفنسال : ثلاثة رسائل - ص٢٥-٢٦ .

ومن هنا فإن هذه الظاهرة الاجتماعية المرَضية يجب ألا تجعلنا نغفل التقدير والاحترام الذي أحاط المعلمين العرب من الرعيل الأول الذين أسهموا بجهدهم وإخلاصهم للارتقاء بالتعليم ، فكان منهم الفقهاء الأتقياء الذين قدموا اليتامى والقراء منهم ، ولكنهم كانوا من القلة بحيث ضاع أثرهم وسط الكثرة من المعلمين الذين انحرفوا بأخلاقيات المهنة إلى أنماط سلوكية كانت في موضع النقد والتجريح ، وحطّت من كرامتهم وقيمتهم في نظر المجتمع .

النتائـــج :

أهم النتائج التي توصلنا إليها :

١- بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس فقد حظيت دمشق خلال هذا العصر بوجود عدد كبير من (معلّمي الكتاب – العرفاء – المعيدين – المدرسين) حيث كان لكل شخص وظيفة خاصة. وعلى ما يبدو أن نظرة الناس كانت متدنية جداً إلى معلم الكتاب ، حتى صارت تضرب به الأمثال . في حين نجد أن عمله هو الأهم في الحلقة الدراسية للطالب منذ بدء دراسته وحتى نهايتها لأنه هو من يؤسس الطالب ويقوم بتربيته وتوجيهه منذ صغره . ووضعت شروط لاختيار العرفاء والمعيدين وكذلك المدرسين الذين كانوا هم رأس الهرم في العملية التعليمية ، وأصحاب الثروة والنفوذ ، ومحط الإعجاب ، حتى أن التلاميذ

كانوا ينتقلون من بلد إلى آخر بحثاً عن المدرس المتميز والمشهور . ووجدت قواعد وشروط لاختيار المدرسين ووضعهم في وظائفهم ، وكذلك حددت شروط وقواعد على الطلاب الالتزام بها .

٢- وجدت أساليب متنوعة لتعيين المدرسين منها (الإستنابة – والإحتكار للوظيفة) وكذلك وجدت ملابس خاصة بالمدرسين في ذلك العصر ، ليظهر المعلم بالمظهر اللائق أمام طلبته ،

٣- أعطي الطالب حرية اختيار شيخه الذي يود الأخذ عنه ، وخصصت لأعضاء الهيئة التدريسية جرايات شهرية . وكذلك الحال للطلاب .

٤- كانت جرايات (رواتب) المدرسين والأطفال تتأثر بما كانت تصاب به الأوقاف من الاعتداء عليها ، وكذلك العوامل الجوية التي كانت تصيب الأراضي المخصصة للوقف .

٥- رأينا أن تعدد المؤسسات التعليمية في العصر المملوكي قد أتاح فرصة تلقي العلم لفئات كبيرة من فئات المجتمع على مختلف المستويات .

٦- دخلت بعض الأمور السلبية بين صفوف المعلمين الأمر الذي دفع بعضهم إلى الاشتغال ببعض الأعمال التي لا تمت للعلم بصلة ، دفع الطمع بعضهم إلى قبول الرشاوي والهدايا من أجل منح الإجازات .

٧- وفيما يخص المناهج عرف العصر نوعين من المناهج :

أ- مناهج المرحلة الأولى التي علّمت الطالب الخط والحساب والقرآن الكريم والحديث وذلك من خلال التلقين والكتابة .

ب- في المرحلة العالية تعلّم الطالب العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية والعلوم العقلية وذلك من خلال المدرسين الذين فسحوا المجال أمام الطلبة لتلقي هذه العلوم بطرق متعددة (المحاضرة – السماع – الإملاء – المناظرة والحوار – الأسئلة) .

واستخدم المدرسون المكافآت والعقوبات من أجل ضمان سير العملية التدريسية ، وتحفيز الطلاب على العلم ، وتأديبهم في حال الخطأ .

٨- حدد خلال هذا العصر عدد الساعات الدراسية اليومية ، وذلك بـ (٣) ساعات ، وكانت ظروف التدريس مرهونة بالعوامل الجوية ، وظروف المدرسين ، وكذلك تمكّن المدرس من زيادة عدد ساعات الدراسة اليومية حسب حاجته لذلك . بالإضافة إلى ذلك كان هناك نظام العطل السنوية (شهر شعبان – رمضان – العشر من شوال – عشر ذي الحجة – أيام الأعياد والتشريق – التاسع والعاشر من المحرم) من كل سنة .

كذلك الأمر سمح للطالب وللمدرس بالغياب في حال المرض ، أو الذهاب لزيارة الأهل .

٩- عرفت دمشق خلال هذا العصر نظام الداخلية في المدارس ، ووضعت شروط للطلاب الراغبين في الإقامة الداخلية . وحصر السكن داخل المدارس بالمرتبين عليها دون غيرهم . وحدّدت العزوبية شرطاً للإقامة في الداخلية .

١٠- تمتع هذا العصر بوجود الإجازات العلمية والشهادات الدراسية (إجازة السماع ، الإجازة بعراضة الكتاب ، الإجازات العامة ، الإجازات الفخرية ، الإجازة في الطب) .

١١- شغلت المرأة دوراً هاماً في العملية التعليمية . فكان منهن المحدثات ، والفقيهات ، وكذلك قمن ببناء المؤسسات التعليمية (مدارس – زوايا – ربط – خوانق) الأمر الذي يدل على المكانة الكبيرة التي حظيت بها المرأة خلال هذا العصر .

رموز الرسالة

تح : تحقيق

تر : ترجمة

مج : مجلد

ج : جزء

ص : صفحة

ط : طبعة

ق : قسم

م : ميلادي

هـ : هجري

د . ر . ت . م . ط : دون رقم وتاريخ ومكان الطبع

محتوى الرسالة

العنـــوان	الصفحة
رموز الرسالة	١
محتوى الرسالة	٢
المقدمة	٧
التعريف بأهم مصادر البحث	١٢
الفصـــل الأول : مـــدخل فـــي الحيـــاة السياســـية والإداريـــة والاقتصـــادية والاجتماعية	١٥
أولاً : آ- نظام الرق عند الأمم القديمة	١٦
ب- نظام الرق في الدولة الإسلامية	١٧
ثانياً : دولة المماليك الأولى	٢١
إعادة بعث الخلافة العباسية	٢٥

ثالثاً : لمحة عن تاريخ دمشق	٢٨
الفتح الإسلامي لدمشق	٣٠
دمشق في العصر الأموي	٣١
دمشق في العصر العباسي	٣١
دمشق والفاطميون	٣١
قدوم السلاجقة	٣٢
دمشق والحملة الصليبية الثانية	٣٢
الأيوبيون في دمشق	٣٣
انضمام بلاد الشام إلى الدولة المملوكية	٣٣
موقف بلاد الشام من الانضمام للحكم المملوكي في مصر	٣٤
حركات التمرد والعصيان ضد سلاطين المماليك	٣٥
دور دمشق في الدفاع عن الدولة المملوكية	٣٧
النتائج والملاحظات	٣٩
رابعاً : التقسيم الإداري لبلاد الشام في العصر المملوكي	٤٠
خامساً : الوظائف في نيابة دمشق المملوكية :	٤٧
١"- الأمراء والمماليك	٤٧
٢"- الوظائف الديوانية	٤٩
٣"- الوظائف الدينية	٥٠
٤"- وظائف أرباب الصناعات	٥١
٥"- نظام البريد	٥١
النتائج	٥٣
سادساً : الحياة الاجتماعية في دمشق المملوكية	٥٤
المرأة في نيابة دمشق	٦٥
النتائج	٧٠
سابعاً : الحياة الاقتصادية	٧٢
١- الزراعة	٧٢
٢- الصناعة	٧٤
٣- التجارة	٧٦
النتائج	٨١
الفصل الثاني : **أولاً : عوامل قيام النشاط الفكري**	٨٣
آ- العوامل الخارجية	٨٧

ب- العوامل الخارجية	٩٠
ثانياً : مراكز النشاط الفكري في دمشق خلال العصر المملوكي الأول	٩٥
(١) المساجد	٩٦
(٢) المكاتب	١٠٤
(٣) المدارس	١٠٧
آ- دور القرآن الكريم	١١٠
ب- دور الحديث	١١٤
ج- دور القرآن والحديث معاً	١٢٠
د- مدارس الفقه	١٢٢
أولاً : المدارس الشافعية	١٢٣
ثانياً : المدارس الحنفية	١٣١
ثالثاً : المدارس المشتركة بين الشافعية والحنفية	١٣٥
رابعاً : المدارس المالكية	١٣٧
خامساً : المدارس الحنبلية	١٣٩
سادساً : المدارس الصوفية	١٤٠
آ- الخوانق	١٤٢
ب- الربط	١٤٥
ج- الزوايا	١٤٦
سابعاً : المدارس الطبية	١٤٨
(٤) المكتبات	١٥٣
(٥) وسائل التثقيف العامة	١٥٨
النتائج	١٦١
الفصل الثالث : الهيئة التدريسية والطلاب	١٦٤
أولاً : هيئة التدريس	١٦٥
ثانياً : المناهج وأساليب وطُرق التعليم	١٧٨
ثالثاً : طرق التدريس	١٨١
رابعاً : المعاقبة والمكافأة	١٨٨
الشهادات والإجازات العلمية	١٩٢
النتائج	١٩٩
الفصل الرابع : النشاط التأليفي في نيابة دمشق	٢٠١
أولاً : النشاط التأليفي في العلوم النظرية	٢٠٢

١- العلوم الدينية	٢٠٢
آ- علوم القرآن وقراءته	٢٠٣
ب- علم التفسير	٢٠٤
ج- علم الفقه وأصوله	٢٠٦
د- علم الحديث	٢١٦
٢- علوم اللغة العربية	٢٢٠
أ- علوم النحو والصرف	٢٢١
ب- اللغة (المعاجم)	٢٢٣
ج- الأدب	٢٢٤
٣- علوم التاريخ	٢٣٩
ثانياً : العلوم التطبيقية	٢٥٣
١- العلوم الطبية	٢٥٣
أ- الطب	٢٥٣
ب- الصيدلة	٢٥٨
٢- علم الفلك	٢٦٠
٣- علم الرياضيات	٢٦٢
٤- علم الكيمياء	٢٦٤
٥- علم الحيوان والنبات	٢٦٦
٦- علم الجغرافية	٦٦٧
٧- العلوم العسكرية	٢٦٩
النتائج	٢٧٠
الفصل الخامس : عائلة السبكي	٢٧٢
١- الأسر العلمية في العصر المملوكي	٢٧٣
٢- أصول عائلة السبكي	٢٧٣
تقي الدين السبكي	٢٧٨
أولاً : كنيته	٢٧٨
ثانياً : لقبه	٢٧٨
ثالثاً : مولده	٢٧٩
رابعاً : نشأته وعلومه الأولى	٢٨٠
خامساً : شيوخه	٢٨٢
آ- في القاهرة	٢٨٣

ب- في الاسكندرية	٢٨٥
ج- في دمشق	٢٨٥
سادساً : تلاميذه	١٨٧
آ- تلاميذه من أبنائه	٢٨٧
ب- تلاميذه من البيت السبكي من غير أبنائه	٢٨٧
ج- تلاميذه الذين أفادوا منه من غير أفراد أسرته	٢٨٨
د- تلاميذه من الفضلاء	٢٨٩
هـ - تلاميذه من الذين ورد اسمهم في ترجمته في طبقات الشافعية	٢٩٠
و- تلاميذ تقي الدين الذين لم يذكرهم ابنه تاج الدين في ترجمته لوالده	٢٩١
ز- تلاميذه الذين لم يذكرهم ابنه تاج الدين في طبقات الشافعية	٢٩١
ح- ممن طلبوا علمه	٢٩٢
سابعاً : أخلاقه	٢٩٢
ثامناً : الوظائف التي شغلها	٢٩٤
تاسعاً : مؤلفاته	٢٩٩
آ- المؤلفات المفقودة	٣٠٠
ب- المؤلفات المخطوطة	٣١١

ج- المؤلفات المطبوعة ضمن مؤلفات أخرى	٣١٣
د- المؤلفات المطبوعة	٣٢١
عاشراً : دوره في الحركة الفكرية في دمشق	٣٢٤
أحد عشر : وفاته	٣٣٧
اثنى عشر : أبناؤه	٣٣٩
ثلاث عشرة : أعلام البيت السبكي	٣٤٧
النتائج	٣٥١
الخاتمة	٣٥٤
قائمة المصادر والمراجع	٣٥٩